تأليف

برنارد لويس

تعريب

محمد العزب موسى

الحشاشون

فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام

مكتبة مدبولى

محمد العزب موسى

الحشاشون

M.Lotfy

مكتبة مدبولى

الحشاشون

فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام

فى عام ١٣٣٢ عندما فكر الملك فيليب السادس ملك فرنسا فى القيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد الأراضى المقدسة التى فقدتها المسيحية نصحه قس ألمانى يدعى بروكار دوس وحذره من أنه سيقاتل الحشاشين وهم قوم متعطشون للدماء، أشداء لا يلقون اعتباراً للحياة أو النجاة، ولديهم قدرات على التخفى فى شكل الشياطين، ولا يسمحون للغريب أن يعيش بينهم، وبمجرد إشارة من كبيرهم يحدثون أكبر قوة تدميرية، وهم يعيشون عند تخوم دمشق وأنطاكية وحلب وفى بلاد الفرس، ولديهم هيكل تنظيمى صارم ونظام تربوى وتعليمى، وكان أول من اغتالوه أمير مملكة القدس اللاتينية، وهم لا يفرقون فى القتل بين زعيم مسلم أو غير مسلم ولا حتى الولاة المسلمين .

ولعل اكتشاف هذه الفرقة كان الخيط الأول لدراسة الفكر الثورى عند المسلمين: نشأته وتطوره وتأثيره المتذبذب بين الفكر الشيعى والفكر السنى، ولقد انتهى أمرهم على يد الحاكم المصرى الظاهر بيبرس والسلطان المغولى معاً، كما لم يعرف تحديدا أصل تسميتهم بالحشاشين..

هذا كتاب فى تطور الفكر الثورى الذى لابد أنه ينتج أثره حتى يومنا هذا .



الناشر

الكتاب : الحشاشون
تأليف : برنارد لويس
الطبعة : الثانية ٢٠٠٦
الناشر : مكتبة مدبولي ـ ٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤
الجمع التصويري دار جهاد ـ ٢٦ ش إسماعيل أباظة - لاظوغلي
والتنسيق الداخلي : ت: ٧٩٦٤٧٨٣
رقم الإيداع : ١٧٣٥٦/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولي : (9 -573 -208 -977)

الحشاشون

فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام

تأليف

برنارد لويس

تعريب

محمد العزب موسى

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : اكتشاف الحشاشين	١١
الفصل الثانى : الإسماعيلية	٣٩
الفصل الثالث : الدعوة الجديدة	٦٥
الفصل الرابع : الدعوة فى فارس	١٠١
الفصل الخامس : شيخ الجبل	١٤٣
الفصل السادس: الوسائل والغايات	١٨١

مقدمة المترجم

يسرنى أن أقدم إلى القارئ العربى ترجمة لكتاب ثمين مغر بالقراءة والتأمل إلى أقصى حد كهذا الكتاب «الحشاشون ـ فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام» من وضع المؤرخ الإنجليزى والمستشرق الكبير البروفيسور برنارد لويس.

والدكتور برنارد لويس غنى عن التعريف، خاصة فى أوساط المشتغلين بالدراسات التاريخية المتعلقة بالشرق الأوسط فى العصر الوسيط، ومن مؤلفاته السابقة «جذور الإسماعيلية» وهى رسالته العلمية التى نال بها درجة الدكتوراه، و«العرب فى التاريخ» و«ظهور تركيا الحديثة» و«إسطنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية» و«الشرق الأوسط والغرب». وكان قبل وفاته أستاذاً لتاريخ الشرق الأدنى والأوسط بجامعة لندن.

أما كتابه «الحشاشون» فقد ظهر فى عام ١٩٦٧ فى وقت اتجهت فيه أنظار العالم بشدة إلى الشرق الأوسط نتيجة لتفجر الصراع العربى الإسرائيلى ونشوء ما عرف بأزمة الشرق الأوسط، وفيه يفتح المؤلف صفحة مهمة غامضة فى تاريخ المنطقة ويجلوها جلاء بيناً حتى ليخيل للقارئ كأن الأحداث والشخصيات تقفز مجسمة من بين سطور الكتاب. وقد تتبع المؤلف فى كتابه تاريخ فرقة الحشاشين الإسماعيلية منذ بداياتها الأولى إلى نهايتها؛ وهى فرقة لعبت دوراً غريباً ليس بالقصير فى تاريخ المنطقة ونسجت حولها الخرافات والروايات والأساطير، وأعطت اسمها «لفن القتل» و«الاغتيال السياسى» فى اللغات الأوربية الحديثة. ويستعرض المؤلف فى بحثه الشائق تطور فرقة الحشاشين فى

التاريخ والأساطير ومعتقداتها ووسائلها فى الانتقام من خصومها، وأهدافها الدينية والسياسية، كما يبحث مغزاها فى تاريخ الإسلام وتاريخ الحركات الثورية والإرهابية.

وقد اعتمد المؤلف فى إعداد دراسته على كثير من المصادر والمؤلفات الأوربية والعربية والفارسية أفرد لها قسماً خاصاً فى نهاية الكتاب استغرق ٢٠ صفحة تحت عنوان «ملاحظات»، وقد رأيت أن أتجاهل ترجمة هذا القسم حتى لا يشق على القارئ لا سيما أنه موجة -فحسب- إلى الباحث المتخصص الذى يريد مواصلة البحث فى بعض النقاط المثارة، ومن ناحية أخرى فإن اسم برنارد لويس ـ فى حد ذاته ـ ضمانة كافية لدقة البحث وسلامة مصادره؛ الأمر الذى يجعل القارئ فى غنى عن متابعة المراجع وراءه.

أما الترجمة العربية فقد حاولت ـ جهد الطاقة ـ أن تأتى بسيطة واضحة، فى الوقت الذى لا تحيد فيه قيد أنملة عن الأصل الإنجليزى، مما يجعلها أقرب ما تكون إلى الترجمة الحرفية الدقيقة فيما عدا فقرة أو اثنتين من الكتاب الأصلى تجاوزت عن ترجمتهما نظراً لأنهما استطراد عن مؤلف عربى مترجم إلى الإنجليزية لم أستطع الحصول عليه، أما أسماء الأماكن وبعض الأشخاص الواردة فى الكتاب -ومعظمها فارسى- فقد ترجمتها حسب نطقها الإنجليزى كلما عسر علىّ العثور على نطقها الفارسى، مع إيراد الاسم الإنجليزى عند ذكر الاسم لأول مرة.

وآمل أن أكون بهذا الجهد المتواضع قد سددت مكاناً شاغراً فى المكتبة التاريخية الإسلامية العربية، بالإضافة إلى تقديم دراسة أصلية ممتعة

عن فرقة إسلامية مدانة وغامضة احتلت ذات يوم صفحة مهمة من تاريخنا قبل أن يطويها التاريخ بين جنباته الواسعة فلم نعد نذكر عنها سوى الاسم والخرافة والنزر اليسير من الحقيقة فى وقت نحن أشد ما نكون فيه حاجة إلى مراجعة تاريخنا وسبر أغواره ومصادره... والله الموفق والمستعان.

محمد العزب موسى

الفصل الأول

اكتشاف الحشاشين

فى عام١٣٣٢ عندما كان الملك فيليب السادس ملك فرنسا يفكر فى القيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد الأماكن المقدسة التى فقدتها المسيحية، وجد قس ألمانى يدعى بروكاردوس أن من واجبه أن يضع رسالة يقدم فيها للملك النصح والإرشاد قبل أن يضطلع بهذا المشروع. وأفرد بروكاردوس ـ الذى قضى فترة من حياته فى أرمينيا ـ جزءاً مهمًا من رسالته للحديث عن الأخطار الغريبة التى تنطوى عليها مثل تلك الحملة إلى الشرق، والاحتياطات الواجب اتخاذها لدرء هذه الأخطار.

من هذه الأخطار ـ كما يقول بروكاردوس ـ «أذكر الحشاشين الذين ينبغى أن يلعنهم الإنسان ويتفاداهم، إنهم يبيعون أنفسهم، ويتعطشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مقابل أجر، ولا يلقون اعتباراً للحياة أو النجاة، وهم يغيرون مظهرهم كالشياطين التى تتحول إلى ملائكة من النور، وذلك أنهم يحاكون الحركات والثياب واللغات والعادات والتصرفات التى تأتيها الأمم والأقوام المختلفة، وهكذا يتخفون فى ثياب الشاة لتنفيذ أغراضهم، ويتعرضون للموت بمجرد أن يكتشفهم الناس، وحيث إننى فى الواقع لم أرهم ولكننى أعرف عنهم ذلك بالشهرة والكتابات الصحيحة فحسب، لذلك لا يمكننى أن أستطرد أكثر من ذلك أو أن أعطى مزيداً من المعلومات، ولا أستطيع أن أبين كيف يمكن أن يعرفهم الإنسان من واقع عاداتهم أو غيرها من العلاقات، لأنهم فيما يتعلق بهذه الأشياء غير معروفين لى وللآخرين كذلك، كما لا أستطيع أن أبين كيف يمكن أن يعرفهم الإنسان بأسمائهم؛ إذ إنهم بسبب بشاعة مهنتهم، وكراهية الجميع لهم، يحاولون إخفاء أسمائهم بقدر ما يستطيعون، ولذا فلست أعرف سوى وسيلة واحدة لوقاية الملك وحمايته، وهى أنه لا ينبغى السماح بإعطاء وظائف القصر الملكى أو أية

خدمة فيه ـ مهما كانت صغيرة أو مختصرة أو متواضعة ـ إلا للمعروفين تماما، كما لا ينبغى السماح لأحد بدخول القصر إلا لهؤلاء الذين تعرف بالتحديد دولتهم وحكامهم ونسبهم وحالتهم، أى ينبغى باختصار أن يكون الشخص المسموح له بالاقتراب من الملك معروفاً تماماً».

فالحشاشون ـ كما يراهم بروكاردوس ـ كانوا قتلة مأجورين سريين من نوع خطر وذوى مهارة خاصة. وبالرغم من أنه عدهم من بين مخاطر الشرق إلا أنه لم يربط بينهم وبين أى مكان معين أو فرقة أو دولة، ولم يعز إليهم أية معتقدات دينية أو أغراض سياسية، فهم ببساطة قتلة قساة أكفاء وينبغى أخذ الحيطة منهم باعتبارهم كذلك، وفى الواقع لم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلمة «حشاش» Assassin قد دخلت بأشكال مختلفة فى الاستخدام الأوربى بهذا المعنى أى معنى القاتل المحترف المأجور، فنجد المؤرخ الفلورنسى جيوفانى ڤيللانى الذى توفى عام ١٣٤٨ يخبرنا كيف أن حاكم لوكا أرسل حشاشيه I Soui assassini إلى بيزا لقتل أحد أعدائه المزعجين هناك، وحتى قبل ذلك نجد دانتى فى إشارة عابرة له فى النشيد التاسع عشر من الجحيم يتحدث عن «الحشاش الخائن» Lo Perfido assassino ويفسر فرانشسكو دابوتى شارح دانتى فى القرن الرابع عشر هذا التعبير لبعض القراء الذين كانوا فى ذلك الوقت يجدونه غريباً وغامضاً فيقول: «الحشاش هو الذى يقتل الآخرين مقابل أجر»

Assassino é celui che uccide altrui per danari

ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة حشاش Assassin اسماً شائعاً فى معظم اللغات الأوربية، وتعنى القاتل، أو بالتحديد الذى يقتل خلسة أو غدراً وغالباً ما تكون ضحيته شخصية عامة وهدفه التعصب أو الجشع.

ولكن الأمر لم يكن دائماً كذلك، فالكلمة ـ كما ظهرت لأول مرة فى سجلات الصليبيين ـ كانت تعنى فرقة إسلامية غريبة فى الشرق تتزعمها شخصية غامضة تعرف بشيخ الجبل، وهذه الفرقة مكروهة بسبب عقائدها وأفعالها من جانب المسيحيين والمسلمين على السواء، ونجد وصفاً مبكراً لهذه الجماعة فى تقرير كتبه مبعوث أرسله الإمبراطور فريدريك بربروسة إلى مصر وسوريا عام ١١٧٥، فقد كتب يقول:

«لاحظ أنه يوجد عند تخوم دمشق وأنطاكية وحلب جنس معين من العرب يعيشون فى الجبال يسمون أنفسهم بالحشاشين، ويعرفون فى الرومانية بسادة الجبل، هذه السلالة من الرجال يعيش أفرادها بلا قانون، وهم يأكلون لحم الخنزير الذى تحرمه شريعة العرب، ويأتون المحارم من أمهاتهم وأخواتهم، ويعيشون فى الجبال فى شبه منعة كاملة وراء أسوار قلاعهم الحصينة، ولما كانت بلادهم ليست خصبة بما فيه الكفاية لذلك فإنهم يعتمدون على ماشيتهم . ولهم سيد يلقى أشد الرعب فى قلوب كل الأمراء العرب القريبين والبعيدين على السواء وكذلك يخشاه الحكام المسيحيون المجاورون لهم، لأن من عادته أن يقتلهم بطريقة تدعو للدهشة، وهذه الطريقة كالتالى: هذا الأمير يملك فى الجبال عديدا من القصور البالغة الجمال تحيطها أسوار عالية جداً بحيث لا يستطيع أحد الدخول إلا عبر باب صغير عليه حراسة مشددة، وفى هذه القصور يربى عددا من أبناء الفلاحين الذين يأخذهم منذ طفولتهم المبكرة، وهناك يجرى تعليمهم لغات مختلفة كاللاتينية والإغريقية والرومية والعربية وغيرها، وهؤلاء الشبان الصغار يلقنهم معلموهم – من شبابهم المبكر إلى رجولتهم الكاملة ـ أن عليهم أن يطيعوا سيد القلعة فى كل ما يقوله

أو يأمر به، وأنهم إذا فعلوا ذلك فإنه ـ وهو المسيطر على جميع الآلهة ـ سوف يهبهم مسرات الفردوس، وهم يلقنون كذلك أن لا أمل لهم فى النجاة إذا قاوموا إرادته فى أى شىء، ولاحظ أنهم منذ الإتيان بهم أطفالا لا يرون أحداً سوى معلميهم وأسيادهم ولا يحصلون على أى تعليم آخر، وفى الوقت المناسب يجرى استدعاؤهم إلى حضرة الأمير، وعندما يكونون فى حضرته يسألهم عما إذا كانوا راغبين فى إطاعة أوامره من أجل أن يمنحهم نعمة الفردوس، وعندئذ ينفذون ما تلقنوه دون اعتراض أو ريبة فيرمون بأنفسهم تحت قدميه ويجيبون بحماسة أنهم سوف يطيعونه فى كل ما يأمر به، وحينئذ يقوم الأمير بإعطاء كل منهم خنجراً ذهبياً ويرسلهم لقتل من يشاء من الأمراء»!

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب وليم أسقف صور وصفاً مختصراً لهذه الفرقة فى تاريخه عن الدويلات الصليبية فقال: «يوجد فى إقليم صور، أو بمعنى آخر فينيقيا، وفى دوقية تورتوزا أناس يملكون عشر قلاع قوية مع ما يتصل بها من القرى، وعددهم كما سمعنا مراراً حوالى ٦٠ ألفاً أو يزيد، ومن عاداتهم أن يختاروا رئيسهم ليس بحق الوراثة وانما باعتباره الأفضل الذى يستحق الرئاسة، وهم يكرهون أن يخلعوا عليه أى لقب من ألقاب التبجيل ويكتفون بتسميته «الأكبر»، ورابطة الولاء والطاعة التى تربط بين هؤلاء الناس ورئيسهم من القوة بحيث أنه لا يوجد أى عمل شاق أو صعب أو خطر يكلفهم به إلا وأقدموا على أدائه بحماسة بالغة بمجرد أن يأمر به الرئيس، فإذا كان هناك -مثلاً- أمير يكرهه هؤلاء الناس أو لا يثقون فيه فإن رئيسهم يعطى خنجراً لواحد أو أكثر من رعاياه وبمجرد أن يتلقى أحدهم الأمر يخرج لأداء مهمته دون اعتبار لنتائج فعلته أو إمكانية الهرب بعد أدائها، وربما تأخذه حماسته

لإنهاء مهمته إلى العمل والكدح فترة طويلة حتى تسنح له الفرصة لتنفيذ أوامر رئيسه. ونحن والعرب نسميهم الحشاشين، ولكننا لا نعرف أصل هذه التسمية».

وفى عام ١١٩٢ عثرت خناجر الحشاشين ـ التى كانت قد اغتالت حتى ذلك الحين عدداً من الأمراء والقواد المسلمين ـ على أول ضحية لها من الصليبيين، وهو كونراد أوف مونتفيرات أمير مملكة القدس اللاتينية، وقد أحدث هذا الاغتيال أثراً عميقاً بين الصليبيين، ووجد معظم مؤرخى الحملة الصليبية الثالثة شيئاً يقولونه عن أشياع هذه الطائفة، وعقائدهم الدينية، ووسائلهم المريعة، ورئيسهم المخيف.

فكتب المؤرخ الألمانى أرنولد أوف لوبيك يقول: «سوف أحكى الآن أشياء عن هذا «الأكبر» قد تبدو غريبة ولكن أكد صحتها لى شهود يوثق بهم، لقد استطاع هذا الشيخ بطرقه السحرية أن يغرى قومه بأن يعبدوه ولا يقتنعوا بإله سواه، وأغواهم بطريقة غريبة مستخدماً الآمال والوعود بالمسرات والبهجة الخالدة حتى جعلهم يفضلون الموت على الحياة، إن إيماءة منه كافية لأن تجعل الكثيرين منهم يقفزون من فوق الأسوار المرتفعة فتدق أعناقهم وتتحطم جماجمهم ويموتون ميتة بائسة، وهو يؤكد لهم أن أسعدهم مآلاً هم الذين يسفكون دماء الآخرين ويلقون حتفهم بالتالى انتقاماً لفعلتهم، ولذا فإنهم ـ عندما يختار بعضهم للموت بهذه الطريقة ـ يعدون أنفسهم لاغتيال من يحددهم ببراعة ثم يسلمون أنفسهم للموت سعداء جزاء لما فعلوه، والشيخ يقدم لهم بنفسه خناجر مخصصة لهذه المهمة ثم يشملهم على نحو يجعلهم ينغمرون فى حالة من الوجد والابتهاج الغامر ونسيان أى شىء آخر، ويعرض عليهم بسحره أحلاماً خيالية ومسرات وبهجات كبيرة ـ أو بالأحرى مبهرجة زائفة ـ ويعدهم بأن هذه الأشياء ستكون خالصة لهم جزاءً لهم».

غير أنه فى البداية كان ولاء الحشاشين لسيدهم هو الذى جذب انتباه أوربا إليهم بأكثر من وسائلهم فى الاغتيال. يقول أحد شعراء التروبادور من مقاطعة بروفنس الفرنسية لحبيبته: «أنت تسيطرين علىّ بسحرك أكثر مما يسيطر الشيخ على حشاشيه الذين يذهبون لقتل أعدائه الفانين» ويقول آخر: «كما يخدم الحشاشون سيدهم بإخلاص لاينضب كذلك أحبك بولاء لا يكل»، وفى خطاب حب مجهول الصاحب يقول كاتبه مؤكداً لحبيبته: «أنا حشاشك الذى يتمنى أن يحظى بفردوسك عن طريق تنفيذ أوامرك». ولكن مع مرور الزمن أصبح «الاغتيال» وليس «الولاء» هو الصفة ذات التأثير الأقوى والتى أعطت لكلمة حشاش Assassin معناها الذى احتفظت به حتى اليوم.

وعندما طال بقاء الصليبيين فى الشرق أمكن الحصول على المزيد من المعلومات عن الحشاشين، بل وأمكن لبعض الأوربيين بأن يلتقوا بهم ويتحدثوا معهم، فقد نجح فرسان المعبد Templars والأسبتاريون Hospitallers فى أن يفرضوا سيطرتهم على قلاع الحشاشين ويحصلوا على الجزية منهم. ويسجل وليم الصورى محاولة فاشلة من شيخ الجبل لإقناع ملك القدس بعقد حلف بينهما، ويضيف من أتم تاريخه قصة مشكوكا فيها تقول إن الكونت هنرى أوف شمبانيا عندما عاد من أرمينيا فى عام ١١٩٨ استضافه شيخ الجبل فى قلعته، وأمر عدداً من رجاله الأوفياء بالقفز إلى حتفهم من فوق أسوار القلعة ليدلل لضيفه على مدى ولاء أتباعه له، ثم عرض عليه فى كرم أن يؤدى له أى خدمة بواسطة أمثال هؤلاء الرجال وقال له: «إذا كان هناكِ أى شخص قد أساء إليك فأبلغنى وسوف يقتل».

ولكن الأكثر قبولا ومعقولية هو ما يرويه المؤرخ الإنجليزى ماتيو

البارىسى عن وصول سفارة لبعض الحكام المسلمين وبخاصة من شيخ الجبل إلى أوربا فى عام ١٢٣٨ ليطلبوا مساعدة الفرنسيين والإنجليز ضد الخطر المغولى الجديد اللائح من الشرق، وعندما قام لويس التاسع بحملته الصليبية إلى الأراضى المقدسة فى عام ١٢٥٠ كان فى إمكانه أن يتبادل الهدايا والبعثات مع شيخ الجبل، وكان هناك راهب فرنسى يتحدث العربية يدعى إيف البريتونى صحب رسل الملك إلى الحشاشين وتناقش مع رئيسهم فى المسائل الدينية، ونستطيع أن نميز فى تقريره ـ رغم ضباب الجهل والتحيز ـ آثاراً واهية لبعض النظريات المعروفة لدى تلك الطائفة الإسلامية التى ينتمى إليها الحشاشون.

عرف الصليبيون الحشاشين كفرقة فى سوريا فحسب، ولم يهتموا كثيراً بوضعهم فى الإسلام أو علاقاتهم بالجماعات الأخرى فى مختلف أرجاء الديار الإسلامية. وقد لاحظ جيمس أوف ڤيترى أسقف عكا ـ وهو واحد من أعرف الكتاب الصليبيين بالشئون الإسلامية فى بداية القرن الثالث عشر ـ أن هذه الفرقة بدأت فى إيران، ولكن يبدو أنه لم يعرف أكثر من ذلك. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر وصلت معلومات جديدة مباشرة عن أصل الفرقة فى إيران، وأول من جاء بهذه المعلومات وليم أوف ريبروك William of Rubruck وهو قس فلمنكى أرسله ملك فرنسا بين سنتى ١٢٥٣ ـ ١٢٥٥ فى بعثة إلى بلاط الخان المغولى الأكبر فى كراكوروم بمنغوليا، وقد مر أثناء رحلته عبر إيران حيث لاحظ وجود جبال الحشاشين ملحقة بجبال الخزر جنوبى بحر الخزر Caspian Sea وعندما وصل القس إلى كراكوروم دهش لاحتياطات الأمن المشددة المتخذة هناك، وعرف أن السبب فى ذلك أن الخان الأكبر قد سمع أن هناك ما لا يقل عن أربعين من الحشاشين يتخفون فى أزياء

مختلفة قد أرسلوا لقتله، ورداً على ذلك أرسل الخان أحد إخوته على رأس جيش إلى بلاد الحشاشين وأمره بالفتك بهم جميعاً.

والكلمة التى استعملها وليم أوف ريبروك للدلالة على الحشاشين فى إيران هى Muliech أو Mulhit وهى تحوير للكلمة العربية «ملحد»، وكانت شائعة الاستخدام فى وصف الفرق الدينية المنحرفة وخاصة الإسماعيلية التى ينتمى إليها الحشاشون.

أسطورة الفردوس

أما الرحالة الشهير ماركو بولو الذى مر عبر إيران فى عام ١٢٧٣ فقد وصف قلعة «ألموت» التى ظلت طويلاً مقراً للفرقة، ونقرأ فى كتاب ماركو بولو ما يلى:

«إنهم يسمون شيخ الجبل فى لغتهم ألودين «علاء الدين» وقد قام بإغلاق واد بين جبلين وحوله إلى حديقة فيحاء، أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين، وملأها بكل أنواع الفاكهة، وأقام فيها قصوراً ومقصورات من أروع ما يمكن تخيله وجميعها مغطاة برسوم فاتنة ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وأقام على خدمة الحديقة فاتنات من أجمل نساء العالم يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية ويغنين بأصوات رخيمة ويؤدين رقصات تخلب الألباب، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحى لشعبه بأن هذه هى الجنة الحقيقية، ولذا فقد نظمها بالوصف الذى جاء به محمد للفردوس كحديقة جميلة تفيض بأنهار من الخمر واللبن والعسل والماء

مليئة بالحور العين، ومن المؤكد أن المسلمين فى هذه الجهات يعتقدون أنها الجنة حقاً.

والآن، لا يسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يراد لهم أن يكونوا حشاشين Ashishin وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة تبلغ من القوة والمناعة أنها تستطيع مقاومة كل العالم، وليس هناك طريق آخر للدخول، وهو يحتفظ فى بلاطه بشبان من أبناء المنطقة المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، وهى السن الملائمة للجندية، وتعود أن يقص عليهم قصصاً عن الجنة كما كان يفعل محمد، وهم يعتقدون فيه كما يعتقد المسلمون فى النبى، ثم يدخلهم حديقته فى مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة بعد أن يجعلهم يشربون مخدراً معيناً يسلمهم إلى نعاس عميق ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك، وهكذا فإنهم عندما يستيقظون يجدون أنفسهم فى الجنة!

وهكذا فإنهم عندما يستيقظون ويجدون أنفسهم فى مثل هذا المكان الأخاذ يحسبون أنه الفردوس حقاً، وتغازلهم السيدات والفتيات بما يملأ قلوبهم حبوراً حتى يشبعن كل رغبات هؤلاء الشبان إلى درجة أنهم يتمنون ألا يغادروا هذا المكان أبداً.

والآن، هذا الأمير الذى يسمونه الشيخ أقام لنفسه بلاطاً عظيماً رائعاً، وجعل سكان الجبل البسطاء يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه نبي عظيم، وعندما يريد أن يرسل أحد حشاشيه فى مهمة فإنه يأمر بإعطاء الخدر الذى تحدثت عنه من قبل إلى أحد الشبان فى الحديقة ثم يحملونه إلى القصر، ولذا فإنه عندما يستيقظ يجد نفسه فى القلعة وليس فى الفردوس، ثم يؤتى به إلى حضرة الشيخ فيركع أمامه فى احترام بالغ

معتقداً أنه فى حضرة نبى حقيقى، وعندئذ يسأله الأمير من أين جاء، فيجيبه الشاب أنه جاء من الفردوس! وأنه كما وصفه محمد فى القرآن تماماً. وهذا بالطبع يفعم الحاضرين الذين لم يشاهدوا ذلك المكان بأكبر رغبة فى الدخول إلى هناك.

ولذا، فإنه عندما يريد الشيخ أن يقتل أميراً ما فإنه يقول لمثل هذا الشاب: اذهب واقتل فلاناً أو فلاناً وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس، وإذا مت أرسل ملائكتى لتحملك إلى هناك.

هكذا أجبرهم الشيخ على الاعتقاد، ولذا فإنهم يسارعون إلى تلبية كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم فى العودة إلى الفردوس، وهكذا أيضاً بث ألودين الرعب فى قلوب جميع الأمراء وجعلهم يدفعون له الجزية من أجل أن يمنحهم السلام والمودة.

وينبغى كذلك أن أخبركم بأن الشيخ لديه أشخاص آخرون تحت إمرته ينسخون أقواله، ويتصرفون تماماً كما يفعل، وقد أرسل واحداً منهم إلى إقليم دمشق وأرسل آخر إلى كردستان». أ.هـ.

ولكن يجب أن نلاحظ أنه عندما كان ماركو بولو ـ أو بالأحرى واضع كتابه ـ يتحدث عن الإسماعيلية فى فارس باعتبارهم «حشاشين» وعن زعيمهم باعتباره «شيخ الجبل» كان يستخدم تعبيرات شائعة فى أوربا، هذه التعبيرات جاءت من سوريا لا من فارس، فالمصادر العربية والفارسية على السواء تدل على أن كلمة «حشاشين» كلمة سورية محلية كانت تعنى فحسب إسماعيلية سوريا وليس إسماعيلية فارس أو أية دولة أخرى، كما أن لقب «شيخ الجبل» كان سورياً كذلك، أما بالنسبة للإسماعيليين أنفسهم فقد كان من الطبيعى أن يسموا رئيسهم «الشيخ» بالعربية أو «بير» بالفارسية، وهو اللقب الشائع للتبجيل بين

المسلمين، أما تعبير «شيخ الجبل» بالتحديد فيبدو أنه كان مستخدماً فى سوريا وخاصة بين الصليبيين، حيث لم يرد فى أى نص عربى من تلك الفترة، ولكن استخدام هذه التعبيرات أصبح شائعاً بالنسبة لفرعى الفرقة الإسماعيلية فى سوريا وإيران على السواء، وقد تلت قصة ماركو بولو قصص أخرى عمقت تأثير الحشاشين السوريين فى مخيلة أوربا، فشاعت القصص عن حدائق الفردوس، وقفْز الأنصار المتحمسين إلى الموت، ومهارة الحشاشين الفائقة فى التخفى والاغتيال، وأساليب شيخ الجبل الغريبة فى الآداب الأوربية ثم انتشرت من أدب التاريخ والرحلات إلى الشعر والحكايات والأساطير.

وكان للحشاشين تأثير فى السياسات الأوربية أيضاً، فمنذ وقت مبكر شعر البعض بأصابع شيخ الجبل فى الاغتيالات السياسية أو محاولات الاغتيال التى جرت فى أوربا، ففى عام ١١٥٨ عندما كان فريدريك بروسة يحاصر «ميلان» زعموا أنه قد تم العثور على «حشاش» فى معسكره، وفى عام ١١٩٥ عندما كان الملك ريتشارد قلب الأسد فى «شينون» قيل إنه تم إلقاء القبض على ما لا يقل عن خمسة عشر شخصاً ممن يدعون بالحشاشين واعترفوا بأنهم أرسلوا من قبل ملك فرنسا لقتله، ولم يمض طويل وقت حتى أصبحت مثل هذه الاتهامات شائعة، واتهم عدد كبير من الحكام أو الزعماء الأوربيين بأنهم متحالفون مع شيخ الجبل ويستخدمون خدمات مبعوثيه فى تحطيم أعدائهم وخصومهم. ولكن الذى لا شك فيه أن مثل هذه الاتهامات لا أساس لها، فإن رؤساء الحشاشين سواء فى سوريا أو فى إيران لم تكن لهم مصلحة فى المؤامرات والفتن بأوربا الغربية، كما أن الأوربيين لم يكونوا بحاجة إلى عون خارجى لتنفيذ مختلف فنون الاغتيال. وعلى أية حال،

فما إن حل القرن الرابع عشر حتى أصبحت كلمة Assassin تعنى «القاتل» ولم تعد تستخدم للدلالة على أية علاقة محددة بالطائفة التى ينتمى اليها هذا الاسم فى الأصل.

دراسات مبكرة

ولكن فرقة الحشاشين استمرت تثير الاهتمام.... وقد قام دنيس ليبى دى باتيلى Denis Lebey de Batilly بأول محاولة غربية لتحقيق تاريخها تحقيقاً علمياً، ونشرت هذه الدراسة فى عام ١٦٠٣، وهذا التاريخ له مغزاه، فالأخلاقيات الوثنية لعصر النهضة كانت قد أنعشت الاغتيال كسلاح سياسى، والحروب الدينية رفعته إلى مستوى الواجب المقدس، كما أن ظهور ملكيات وإمارات جديدة حيث يقرر رجل واحد مجرى السياسة والدين فى الدولة وقد جعل من الاغتيال سلاحاً فعالاً ومقبولاً فى نفس الوقت وأصبح الأمراء والأساقفة على السواء راغبين فى استئجار القتلة للتخلص من خصومهم السياسيين أو الدينيين، وظهر المنظرون ليضيفوا على منطق العنف العارى غطاءً أيديولوجياً براقاً.

وكان غرض ليبى دى باتيلى متواضعاً: أن يشرح المعنى التاريخى الصحيح لتعبير اكتسب شيوعاً قوياً فى فرنسا، وجاءت دراسته مستمدة من المصادر المسيحية فحسب، ولم تذهب لأكثر مما كان معروفاً فى أوربا خلال القرن الثالث عشر، ولكن حتى إذا لم تكن دراسة دى ليبى تحوى معلومات جديدة فإنها كانت ثمرة نظرة جديدة، هذه النظرة كان من السهل أن تأتى إلى جيل شاهد وليم أوف ناساو William of Nassau

يردى قتيلاً بواسطة قاتل استأجره ملك أسبانيا، وهنرى الثالث ملك فرنسا يلقى مصرعه بطعنة خنجر من قس دومنيكى، واليزابيث ملكة إنجلترا لا تنجو إلا بالكاد من القتلة الذين يتربصون بها.

ولكن أول محاولة حقيقية لحل لغز الحشاشين من حيث منشؤهم وشخصيتهم كانت من ثمار عصر التنوير المبكر، ففى عام ١٦٩٧ نشر بارتولمى دى هيربلوت Bartholomé d'Herbelot عمله العظيم المسمى بالمكتبة الشرقية Bibliothéque Oriental وهو عمل رائد يحوى معظم ما يمكن أن تقدمه الدراسات الشرقية فى أوربا فى ذلك الوقت من معلومات عن الإسلام تاريخاً وديناً وأدباً، ولأول مرة نجد هنا دارساً غربياً يستخدم بموضوعية وعدم تحيز المصادر الإسلامية المتاحة فى أوربا على قلتها حينئذ وحاول أن يضع طائفة الحشاشين بسوريا وإيران داخل المحتوى العريض لتاريخ الإسلام الدينى، فأوضح أنهم ينتمون إلى الإسماعيلية وهى فرقة مهمة منشقة عن «الشيعة» التى يمثل صراعها مع «السنة» الانقسام الدينى الرئيسى فى الإسلام وأوضح أن رؤساء فرقة الإسماعيلية يقولون إنهم أئمة ينحدرون عن إسماعيل بن جعفر، ومنه ينتمون إلى النبى محمد ﷺ عن طريق ابنته فاطمة زوج الإمام على.

وخلال القرن الثامن عشر واصل المستشرقون ومؤرخون آخرون بحث الموضوع، وأضافوا معلومات جديدة إلى تاريخ الحشاشين وعقائدهم وروابطهم وفرقة الإسماعيلية التى انحدروا منها. كما حاول بعض الكتاب تفسير أصل كلمة Assassin وهى كلمة كان معروفا بوجه عام أنها عربية ولكن لم يعثر عليها فى أى نص عربى مكتوب، واقترحت عدة اشتقاقات ولكنها لم تكن مقنعة جميعاً.

ومع بداية القرن التاسع عشر تجدد الاهتمام بالحشاشين، فقد أنعشت

الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث اهتمام الجمهور بأخبار التآمر والاغتيال. ثم جاءت حملة بونابرت إلى مصر وسوريا لتنشئ علاقات جديدة وثيقة بين الغرب والشرق الإسلامى وتوفر فرصاً جديدة للدراسات الإسلامية، وبعد محاولات قام بها دارسون صغار لإشباع اهتمام الرأى العام جاء سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy أكبر أساتذة الدراسات العربية فى عصره وأبدى اهتماماً بالموضوع، وفى ١٩ مايو ١٨٠٩ قرأ دى ساسى تقريراً أمام المعهد الفرنسى Institut de France عن أسرة الحشاشين واشتقاق اسمها.

كانت دراسة سيلفستر دى ساسى بمثابة علامة مهمة فى تاريخ الدراسات الخاصة بالحشاشين فبالإضافة إلى استخدامه للمصادر الشرقية التى استخدمها دارسون سابقون كان فى استطاعته أن يستفيد من مجموعة غنية من المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس Bibliothéque Nationale ومن هذه المخطوطات عدة سجلات عربية مطولة عن الحملات الصليبية لم تكن معروفة من قبل للدارسين فى الغرب، وفاق فى تحليله للمصادر جهود كل سابقيه من الكتاب الأوربيين. ولا شك أن أهم ما احتوت عليه دراسة دى ساسى تفسيره النهائى للمشكلة المعقدة الخاصة بأصل كلمة assassin فبعد أن فحص دى ساسى النظريات السابقة عن أصل هذه الكلمة ورفضها جميعاً أوضح على نحو مقنع أن الكلمة جاءت من الأصل العربى «حشيش» hashish وقال إن الأشكال المختلفة للكلمة مثل assassini Assassini وheyssissini الخ التى وردت فى المصادر الصليبية إنما هى مؤسسة على الأشكال المختلفة للكلمة العربية مثل حشيشى وحشاش وجمعهما حشيشيون وحشاشون، وتأكيداً لذلك استطاع دى ساسى أن

يورد عدة نصوص عربية تشير إلى هذه الفرقة باسم «حشيشى» ولكن كلمة «حشيشى» فى نصوص إضافية أخرى برزت إلى دائرة الضوء ولكن لم يظهر حتى الآن ـ كما نعلم ـ أى نص عربى يسمى الإسماعيلية بالحشاشين، وعلى ذلك يبدو أن هذا الجزء من تفسير سلفستر دى ساسى يجب أن يهمل، ويمكننا القول بأن كل الأشكال الأوربية للكلمة مشتقة من الأصل العربى «حشيشى» وجمعه فى محل نصب «حشيشيين».

هذا التنقيح يثير مرة أخرى مشكلة دلالة التعبير كشىء مستقل عن اشتقاقه. إن كلمة «حشيش» فى اللغة العربية تعنى أصلا العشب أو الكلأ، وبالتحديد العشب الجاف أو العلف الذى تأكله الماشية، ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على القنب الهندى Cannabis Sativa وكان تأثيره المخدر معروفاً بالفعل لدى مسلمى العصور الوسطى، أما كلمة «حشاش» فهى أكثر حداثة وتطلق على آكل المخدر المعروف بالحشيش أو القنب الهندى، وبالرغم من أن سلفستر دى ساسى لم يقل كما قال الكثيرون من الكتاب اللاحقين بأن الحشاشين سموا كذلك لأنهم كانوا مدمنى القنب الهندى إلا أنه فسر الاسم طبقاً للاستخدام السرى للحشيش بواسطة زعماء الفرقة من أجل أن يعطوا مبعوثيهم جرعة مسبقة من مباهج الفردوس التى تنتظرهم لدى نجاحهم فى إتمام مهامهم وربط بين هذا التفسير والقصة التى أوردها ماركو بولو وبعض المصادر الشرقية والغربية الأخرى عن حدائق الفردوس السرية التى كان يدخل اليها الأنصار المخدرون.

غير أن هذه القصة رغم ظهورها المبكر وانتشارها الواسع تكاد تكون غير صحيحة إطلاقاً، إن استخدام الحشيش وآثاره كان شيئاً معروفاً فى

ذلك الوقت ولم يكن بالسر المجهول أو وقفاً على زعماء تلك الفرقة، ولم يذكر أحد من الكتاب الإسماعيليين أو كتاب السنة الجادين أن الإسماعيليين كانوا يستخدمون هذا المخدر، وحتى كلمة «حشيشى» كانت مقصورة الاستعمال على سوريا ولعلها لفظة شعبية استخدمت فى غير محلها، وكل الدلائل تشير إلى أن الاسم هو الذى أوجد القصة لا العكس، ومن بين التفسيرات المختلفة التى طرحت يبدو أن الأكثر احتمالاً أنه تعبير يدل على احتقار العقائد الغثة والسلوك المعيب لأعضاء تلك الفرقة، فهو تعبير ساخر عن سلوكهم أكثر من كونه وصفاً حقيقياً لأفعالهم. غير أن مثل هذه القصص ـ خاصة بالنسبة للمراقبين الغربيين ـ ساهمت فى تقديم تفسير معقول لسلوك يبدو بدونها غير قابل للتفسير.

فتحت دراسة سلفستر دى ساسى الباب أمام سلسلة من الدراسات الأخرى حول الموضوع كان أكثرها انتشاراً بالتأكيد «تاريخ الحشاشين» الذى وضعه المستشرق النمسوى جوزيف فون هامر ونشر بالألمانية فى شتوتجارت عام ١٨١٨ وترجم إلى الفرنسية والإنجليزية فى ١٨٣٣ و١٨٣٥ على التوالى بالرغم من أن تاريخ فون هامر كان مؤسساً على مصادر شرقية إلا أنه كان أقرب إلى «كراسة دعائية» وضعت خصيصاً للعصر الذى ظهرت فيه، فهو بمثابة تحذير ضد «النفوذ المأفون للجمعيات السرية.. و.. إساءة استخدام الدين ببشاعة لخدمة الطموح الرهيب الذى لا يلجمه شيء» وهو ينظر إلى الحشاشين باعتبارهم «اتحاداً من الدجالين والمغفلين استطاع تحت قناع من التشدد الدينى والأخلاقى الإساءة إلى كل الأديان والأخلاقيات، وأن هذه الجماعة من السفاكين الذين سقط تحت نصال خناجرهم أسياد الدول ظلوا أقوياء لأنهم ولمدة

ثلاثة قرون استطاعوا أن يبثوا الرعب فى قلوب الجميع إلى أن سقط وكر الوحوش فى يد الخلافة التى كانت منذ البداية هدفاً للتدمير بأيديهم كرمز للسلطة الروحية والزمنية للمسلمين» وحتى لا يخطئ أحد القراء مقصده أخذ فون هامر يقارن بين الحشاشين وفرسان المعبد والجيزويت وحركة الاستنارة والبنائين الأحرار وقتلة الميثاق الوطنى الفرنسى وقال: «كما ظهرت فى الغرب الجمعيات الثورية من حركة البنائين الأحرار كذلك ظهر فى الشرق الحشاشون من الإسماعيلية، وإن دعاة التنوير الذين ظنوا أن فى إمكانهم بمجرد التبشير أن يجردوا الأمم من أمرائها ودياناتها قد ظهر جنونهم المرعب واضحاً فى آثار الثورة الفرنسية تماماً كما ظهر فى آسيا فى عهد الحسن الثانى».

ولقد كان لكتاب فون هامر تأثير كبير، وظل لقرابة قرن ونصف من الزمان بمثابة المصدر الأساسى لصورة الحشاشين فى الغرب. وفى هذه الأثناء كان البحث العلمى يتقدم ولا سيما فى فرنسا، حيث بذل المستشرقون جهوداً كبيرة فى اكتشاف وتحرير وترجمة واستغلال النصوص العربية والفارسية ذات العلاقة بتاريخ الفرقة الإسماعيلية فى سوريا وإيران، ومن أهم هذه النصوص أعمال اثنين من المؤرخين الفرس فى العهد المغولى وهما الجوينى ورشيد الدين، وقد اطلع الاثنان على الكتابات الإسماعيلية فى «ألموت» واستطاعا باستخدامها أن يقدما أول سرد متصل لتاريخ الإمارة الإسماعيلية فى شمال إيران.

إذا كان استخدام المصادر الإسلامية قد أضاف الكثير إلى المعلومات المستقاة من الكتابات الأوربية فى القرون الوسطى فإن أصحاب هذه المصادر كانوا أساساً من السنة، وبالرغم من أنهم أحسن اطلاعاً -بالطبع- من المؤرخين والرحالة الغربيين إلا أنهم ربما كانوا أكثر عداء

تجاه نظريات الإسماعيليين وأهدافهم. ولم تلبث أن تحققت خطوة مهمة أخرى إلى الأمام بظهور مادة من نوع جديد، فلأول مرة تظهر فى دائرة الضوء معلومات تعكس مباشرة وجهة نظر الإسماعيليين أنفسهم. فمنذ القرن الثامن عشر لاحظ الرحالة الأوربيون أن الإسماعيليين ما زالوا موجودين فى بعض القرى بوسط سوريا، وفى عام ١٨١٠ نشر روسو القنصل الفرنسى العام فى حلب تحت إلحاف سلفستر دى ساسى وصفاً للإسماعيليين بسوريا فى أيامه يحتوى على معلومات جغرافية وتاريخية ودينية عنهم، ولكن مصادر البحث لم توضح، ويبدو أنها كانت محلية وشفوية استقاها روسو من أرض البحث كما أضاف سلفستر دى ساسى بنفسه بعض الملاحظات التفسيرية. وقد كان روسو أول أوربى يحصل على مثل هذه المعلومات المحلية وأحضر إلى أوربا لأول مرة شذرات من المعلومات من الإسماعيليين أنفسهم، وفى عام ١٨١٢ نشر مقتبسات من كتاب إسماعيلى حصل عليه من «مصيف» وهو أحد المراكز الإسماعيلية الرئيسية فى سوريا، وبالرغم من أن الكتاب لم يكن يحوى غير معلومات تاريخية ضئيلة فإنه ألقى شيئاً من الضوء على النظريات الدينية للفرقة. ولم تلبث أن وجدت نصوص أخرى من سوريا طريقها إلى باريس حيث نشر بعضها فيما بعد، وخلال القرن التاسع عشر زار عدد من السياح الأوربيين والأمريكيين القرى الإسماعيلية فى سوريا وجاءوا بمعلومات إضافية عن تلك الأطلال وساكنيها.

أما فى إيران ـ حيث لا تزال قلعة ألموت العظيمة قائمة ـ فقد أمكن الحصول على معلومات أخرى ولكن بدرجة أقل، ففى عام ١٨٣٣ ظهر مقال فى «جورنال الجمعية الجغرافية الملكية» لضابط بريطانى يدعى الكولونيل و. مونتيث W.Monteith يصف فيه رحلة قام بها إلى مدخل

وادى ألموت ولكنه لم يبلغ القلعة فعلاً ولم يذكر شيئاً عنها، وهو أمر حققه فيما بعد زميل له يدعى الليفتنانت كولونيل (سير) جوستان شيل Justin Sheil وظهر وصفه للقلعة فى نفس الجورنال فى عام ١٨٣٨، ثم جاء ضابط بريطانى آخر يدعى ستيوارت وزار القلعة بعد ذلك بعدة سنوات، ثم انقضى زهاء قرن كامل قبل أن يستأنف اكتشاف قلعة ألموت من جديد.

أتباع أغاخان

ولكن كان ثمة ما هو أكثر من الأطلال يحكى مجد الإسماعيليين الغابر فى إيران. ففى عام ١٨١١ قام القنصل الفرنسى روسو برحلة من حلب إلى إيران بحثاً عن وجود الإسماعيليين، ودهش عندما علم أنه لايزال هناك أناس كثيرون فى إيران يمتون برابطة الولاء لإمام من نسل إسماعيل، وعلم أن اسمه شاه خليل الله ويقيم فى قرية تدعى «كيك» بالقرب من مدينة «قم» فى منتصف الطريق بين طهران وأصفهان، يقول روسو: «ويمكننى أن أضيف أن شاه خليل الله يجله أتباعه كإله ويعزون إليه المقدرة على الإتيان بالمعجزات ويخلعون عليه لقب الخليفة تشريفاً له وتكريماً، كما يوجد إسماعيليون ينتشرون حتى الهند ويمكن رؤيتهم يأتون بانتظام إلى كيك من على ضفاف الجانج والإندوس ليتلقوا بركات إمامهم نظير ما يأتون به من هدايا فاخرة».

وفى عام ١٨٢٥ أكد رحالة إنجليزى يدعى جـ.ب فريزر J.B. Fraser وجود الإسماعيليين فى إيران واستمرار ولائهم لرئيسهم وهم وإن لم يعودوا يزاولون الاغتيال بناء على أوامره إلا أنهم ـ كما يقول فريزر ـ

«وحتى اليوم فإن الشيخ أو رئيس هذه الطائفة لا يزال يلقى ولاء أعمى من رعاياه بالرغم من أن حماستهم قد فقدت طابعها العميق المرعب الذى كان لها من قبل»، وكان هناك أيضاً أنصار لهذه النحلة فى الهند «يمتون بالولاء الخاص لقديسهم» وقد قتل شيخهم السابق شاه خليل الله فى يزد منذ سنوات (بالتحديد ١٨١٧) بأيدى متمردين ضد حاكم المدينة، وخلفه فى منصبه الدينى أحد أبنائه وهو يلقى نفس الاحترام والتبجيل من أفراد الطائفة.

وجاءت الإضافة التالية إلى المعلومات من مصدر مختلف تماماً، ففى ديسمبر ١٨٥٠ نظرت محكمة جنايات بومباى قضية قتل غير مألوفة بعض الشيء، فقد هوجم أربعة رجال ولقوا مصرعهم فى وضح النهار نتيجة لخلافات فى الرأى داخل الجماعة الدينية التى ينتمون اليها، وقدم إلى المحاكمة تسعة عشر شخصاً حكم على أربعة منهم بالإعدام وشنقوا، كان الضحايا والمتهمون ينتمون إلى طائفة إسلامية محلية تسمى طائفة «الخوجا» وتضم بضع عشرات من الألوف من الأعضاء معظمهم يمتهنون التجارة ويقيمون فى بومباى وأنحاء متفرقة أخرى من الهند. وتبين أن الحادث وقع نتيجة لنزاع استمر أكثرمن عشرين عاماً، فقد بدأ فى عام ١٨٢٧ عندما رفضت جماعة من الخوجا دفع الجعل المعتاد الذى يؤدى إلى رئيس طائفتهم المقيم فى إيران، وكان هو ابن شاه خليل الله الذى خلف أباه المقتول فى عام ١٨١٧، وفى عام ١٨١٨ عينه شاه إيران حاكماً لإقليم «محلات» و«قم» وأضفى عليه لقب «أغا خان» وصار يعرف بهذا اللقب هو وأبناؤه فيما بعد.

وعندما واجه أغا خان المقيم فى إيران هذا الرفض المفاجئ من جانب مجموعة من أتباعه فى الهند لأداء واجباتهم الدينية أرسل مبعوثاً خاصاً

إلى الهند لإقناعهم بالعودة إلى حظيرة العشيرة، وصحبت المبعوث جدة أغا خان التى يبدو أنها قامت بنفسها بمحاورة خوجات بومباى فى محاولة لاستعادة ولائهم، ونجحت المهمة فى إبقاء معظم أعضاء الطائفة موالين لرئيسهم، ولكن جماعة صغيرة أصرت على المعارضة متمسكة بأنه ليس ثمة علاقة ما بين الجماعة الهندية وأغا خان فى إيران وليس ثمة ما يرغمهم على الولاء له، وأثار هذا الصراع مشاعر عنيفة داخل الجماعة وصلت إلى قمتها فى اغتيالات عام ١٨٥٠.

وفى هذه الأثناء غادر أغا خان إيران بعد ثورة فاشلة قام بها ضد الشاه وأقام فترة قصيرة فى أفغانستان ثم لجأ إلى الهند حيث استطاع أن يحصل على صداقة الإنجليز نظير خدمات أداها لهم فى أفغانستان والسند. وبعد أن أقام أولاً فى السند ثم فى كلكتا استقر أخيراً فى بومباى حيث جعل من نفسه رئيساً ذا نفوذ فعال على طائفة الخوجا، ولكن كان لا يزال هناك بعض المنشقين الذين يعارضون مركزه وفكروا فى اللجوء إلى القضاء لإحباط دعاويه على الطائفة، وبعد عدة إجراءات أولية رفع عدد من المنشقين فى أبريل ١٨٦٦ دعوى أمام المحكمة العليا فى بومباى طالبين الحصول على حكم قضائى يمنع أغاخان من «التدخل فى إدارة أوقاف جماعة الخوجا أو التدخل فى شئونها».

ونظرت القضية أمام كبير القضاة سير جوزيف أرنولد واستمر سماع الدعوى ٢٥ يوماً جذبت خلالها انتباه كل المشتغلين بمهنة القانون فى بومباى، وقدم الجانبان المتقاضيان أسانيد مفصلة وحججاً كثيرة وذهبت تحريات المحكمة بعيداً وعميقاً فى بحار التاريخ وعلم الأنساب واللاهوت والقانون، وتقدم للشهادة عدد كبير من الشهود منهم أغا خان نفسه

الذى قدم إثباتات بأصله ونسبه، وفى ١٢ نوفمبر ١٨٦٦ أصدر سير جوزيف أرنولد حكمه في القضية وجاء فيه أن طائفة الخوجا في بومباى جزء من طائفة الخوجا الكبيرة فى الهند، وهذه تنتمى دينياً إلى الجناح الإسماعيلى للشيعة، وهم «جماعة من الناس كان أجدادهم هنوداً فى الأصل وتحولوا إلى عقيدة الشيعة الإمامية الإسماعيلية وظلوا متمسكين بها، وقد كانوا دائماً ـ وما زالوا ـ تربطهم روابط الولاء الروحى بورثة الأئمة الإسماعيليين» وقد تم تحولهم إلى الشيعة الإسماعيلية منذ حوالى أربعة قرون بواسطة داعية إسماعيلى جاء من إيران، وظلوا تحت السلطة الروحية لنسل الأئمة الإسماعيلية وآخرهم أغاخان، وهؤلاء الأئمة من نسل أمراء قلعة ألموت الذين يدعون أنهم من نسل الخلفاء الفاطميين فى مصر وينتمون إلى نسل النبى محمد ـ ﷺ ـ وأتباعهم هم الذين اشتهروا فى القرون الوسطى باسم الحشاشين.

وكان حكم أرنولد تؤيده حجج وإثباتات تاريخية كثيرة، وهكذا ثبت قانوناً وضع جماعة الخوجا كجزء من طائفة الإسماعيلية، والإسماعيلية كورثة للحشاشين، وأن اغاخان هو الرئيس الروحى للإسماعيلية المعاصرين ووريث أئمة «ألموت»، وقد نشرت معلومات مفصلة عن الجماعة لأول مرة عام ١٨٩٩ فى الدورية المسماة:

Gazetter of the Bombay Presidency

لفت حكم أرنولد الانتباه إلى وجود طوائف إسماعيلية فى أجزاء أخرى من العالم البعض منها لا يعترف برئاسة أغاخان، وهذه الطوائف أساساً هى أقليات صغيرة فى أماكن بعيدة ومنعزلة من الصعب الوصول إليها بكل معنى الكلمة، وهى حريصة حتى الموت على إبقاء عقائدها

وكتاباتها فى طى السر والكتمان، ولكن بعض هذه الكتابات المخطوطة وجدت طريقها - رغم ذلك - إلى أيدى الدارسين، فى البداية كانت هذه المخطوطات تأتى فقط من سوريا - وهى أول منطقة اهتم الغربيون بشئون الإسماعيلية فيها حديثاً وفى الأزمنة الوسطى على السواء - ولم يلبث أن تبعتها أخريات من مناطق متباعدة جداً، ففى عام ١٩٠٣ أحضر تاجر إيطالى يدعى كابروتى مجموعة تضم ٦٠ مخطوطاً عربياً من صنعاء كانت أول دفعة من نوعها تودع بمكتبة امبروزيانا بميلانو، وعند فحصها اتضح أنها تضم عدة كتب فى النظرية الإسماعيلية من وضع كتاب إسماعيليين ما زالوا مقيمين فى بعض أجزاء الجنوب العربى، كما وجد أن بعضها يحتوى على فقرات مكتوبة بشفرة سرية.

وعلى الجانب الآخر من أوربا اكتشف الدارسون الروس الذين حصلوا على بعض المخطوطات الإسماعيلية من سوريا أن لديهم إسماعيليين يقيمون داخل حدود إمبراطوريتهم. ففى عام ١٩٠٢ نشر الكونت الكسيس بوبرنيسكوى Bobrinskoy بحثاً عن «المنظمة» الإسماعيلية فى العالم وتوزيع الإسماعيليين فى آسيا الوسطى الروسية، وفى الوقت نفسه تقريباً حصل مسئول روسى فى إدارة المستعمرات الخارجية يدعى أ. بولوفيتسيف Polobtsev على نسخة من كتاب فى العقيدة الإسماعيلية مكتوب بالفارسية وأودعت النسخة فى المتحف الآسيوى بأكاديمية العلوم الروسية الإمبراطورية، وتلتها نسخة أخرى، وبين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ حصل المتحف على مجموعة من المخطوطات الإسماعيلية التى احضرت من شوغنان Shughnan بأعالى أنه - أوكسوس Oxus بواسطة المستشرقين زاروبين Zarubin وسيميونوف Semyonov.

وبفضل هذه المخطوطات وما تلاها تمكن الدارسون الروس من فحص آداب وعقائد الإسماعيليين المقيمين فى بامير Pamir وما يجاورها من الأقاليم الأفغانية فى باداخشان Badakhshan .

ومنذ ذلك الحين أحرزت الدراسات الإسماعيلية تقدماً كبيراً وسريعاً، فقد أمكن الحصول على المزيد من النصوص الإسماعيلية خاصة من المكتبات الغنية التى تملكها الطائفة فى شبه القارة الهندية، وظهرت أبحاث مفصلة كثيرة بواسطة الدارسين فى مختلف البلاد بمن فيهم بعض الإسماعيليين أنفسهم، ولكن اكتشاف الأدبيات الضائعة لتلك الفرقة كان مخيباً للأمل من بعض جوانبه، أو بالتحديد فيما يتعلق بالتاريخ، فإن الكتب التى خرجت إلى دائرة الضوء تهتم كلية ـ تقريباً ـ بالمسائل الدينية وما يتعلق بها، أما الكتب ذات الطبيعة التاريخية فهى قليلة العدد فقيرة المحتوى. ويبدو هذا أمراً حتمياً بالنسبة لطائفة من الأقليات لا تملك أرضاً ولا مؤسسات ثابتة لا يمكن بغيرهما لمؤرخ فى القرون الوسطى أن يتصور التاريخ أو يكتبه، ويبدو أن إمارة «ألموت» وحدها هى التى أرخ لبعض أحداثها، وحتى هذه وضعها مؤرخون من السنة وليس من الإسماعيلية. ومع ذلك فإن الأدب الإسماعيلى رغم أنه فقير فى المحتوى التاريخى إلا أنه لا يفتقر ـ بأية حال ـ لكل القيمة التاريخية، فإذا كانت مساهمته قليلة فى قص تاريخ الأحداث التى وقعت للحشاشين فى إيران وأقل منها بالنسبة لإخوانهم فى سوريا، فإن هذا الأدب ساهم بدرجة كبيرة فى تحسين فهمنا للخلفية الدينية لهذه الحركة وجعل من الممكن إعادة تقييم عقائدها وأغراضها وتوضيح المغزى الدينى والتاريخى للإسماعيلية فى الإسلام، وللحشاشين فى

الإسماعيلية، والنتيجة أن صورة الحشاشين أصبحت تختلف الآن اختلافاً أساسياً عن تلك الصورة التى جاءت بها الشائعات والخيالات التى نقلها رحالة القرون الوسطى من الشرق، كما تختلف عن الصورة العدائية المشوهة التى استخرجها مستشرقو القرن التاسع عشر من مخطوطات المؤرخين وعلماء الدين المحافظين المسلمين، هؤلاء الذين كان هدفهم الأساسى أن يرفضوا ويستنكروا لا أن يفهموا ويشرحوا، وبفضل هذه الدراسات الحديثة لم يعد الحشاشون مجرد عصابة من السذج المخدرين يقودهم أفاكون مدبرون للمكائد، أو مؤامرة لإرهابيين عدميين، أو جماعة من القتلة المحترفين، ومع ذلك فإنهم لم يصبحوا أقل مدعاة للاهتمام بعد أن تغيرت صورتهم تلك.

الفصل الثانى

الإسماعيلية

حدثت أول أزمة فى الإسلام بعد وفاة النبى فى عام ٦٣٢م، أن محمداً ﷺ لم يدع أبداً أنه أكثر من بشر فانٍ لا يميزه عن الآخرين سوى أنه رسول الله وحامل كلمته ولكنه فى ذاته ليس مقدساً وليس خالداً، ومع ذلك فإنه لم يترك أية أوامر صريحة بمن يخلفه كزعيم للجماعة الإسلامية وحاكم للدولة الإسلامية الوليدة، ولم يكن أمام المسلمين ما يرشدهم سوى التجربة السياسية الهزيلة لعرب ما قبل الإسلام، وبعد مناقشة قصيرة شابتها لحظة من التوتر الخطر وافقوا على اختيار أبى بكر، وهو واحد من أقدم المسلمين وأكثرهم احتراماً، خليفة للرسول، وهكذا نشأت ـ بطريقة عارضة تقريباً ـ تلك المؤسسة التاريخية العظمى المعروفة بالخلافة.

ومنذ الأيام الأولى للخلافة كانت هناك جماعة من الناس يشعرون أن علياً ـ ابن عم النبى وزوج ابنته أولى بخلافته من أبى بكر ومن تبعه من الخلفاء، ولاشك أن تأييدهم لعلى يرجع فى جزء منه إلى اقتناعهم بأن صفاته الشخصية تجعله أصلح رجل للمهمة، كما يرجع ـ ربما ـ إلى اقتناعهم بحق أهل البيت فى وراثة السلطة الشرعية للنبى. هذه الجماعة أصبحت تعرف بشيعة على، أو حزب على، ثم الشيعة فحسب، ومع مرور الزمن أدت إلى ظهور أخطر صراع دينى فى الإسلام.

كانت الشيعة فى أول الأمر مجرد جماعة سياسية، عبارة عن مؤيدى أحد المرشحين للسلطة، دون أية نظريات دينية متمايزة أو أى محتوى دينى غير ذلك الذى يكمن فى طبيعة السلطة السياسية الإسلامية، ولكن سرعان ما أخذت تغيرات مهمة تتلاحق سواء من حيث تكوينها أو فى طبيعة تعاليمها.

فقد كان يبدو لكثير من المسلمين فى ذلك الوقت أن الجماعة

الإسلامية والدولة الإسلامية اتخذتا مجرى خاطئاً، فبدلاً من المجتمع المثالى الذى تخيله النبى وصحابته الأتقياء الأول ظهرت إلى الوجود إمبراطورية تحكمها أرستقراطية جشعة عديمة الضمير مجردة من المبادئ الخلقية، وبدلاً من العدل والمساواة كان هناك عدم المساواة والامتياز والسيطرة، وبدا للكثيرين ممن رأوا الأمور على هذا النحو أن العودة إلى أهل بيت النبى سوف تعيد رسالة الإسلام الصحيحة الأصلية.

وفى عام ٦٥٦ اغتيل الخليفة عثمان بأيدى الثائرين المسلمين وأصبح علىٌّ خليفة للمسلمين، ولكن فترة حكمه كانت قصيرة ومليئة بالفتن والحروب الأهلية، وعندما اغتيل بدوره فى عام ٦٦١ صارت الخلافة لخصمه معاوية وظلت فى أسرته ـ أى البيت الأموى ـ زهاء قرن كامل.

ولكن شيعة على لم تختف بوفاته بل استمرت أعداد متزايدة من المسلمين فى الولاء لأهل البيت الذين رأوا فيهم الزعماء الشرعيين للجماعة الإسلامية، ولم تلبث دعاويهم وما حصلوا عليه من تأييد أن اكتسبت طبيعة دينية بل وتبشيرية بمقدم مخلص.

إن الدولة الإسلامية وحدة دينية سياسية قامت على الشريعة واستمرت بها، وهى تستمد سيادتها من الله، وواجب رئيسها ـ أى الخليفة ـ أن يحافظ على الإسلام ويتيح للمسلمين أن يعيشوا حياة إسلامية صالحة، وفى هذا المجتمع تتعذر التفرقة بين ما هو دينى وما هو دنيوى، فلا فرق بين «الكنيسة» و «الدولة» سواء من حيث القانون أو القضاء أو السلطة، فهما شىء واحد يرأسه الخليفة، ولما كانت أسس التماسك فى المجتمع، وهويته، وعلاقات الولاء والواجب فى الدولة تشملها جميعاً وتعبر عنها الصيغة الدينية لذلك فإن التفرقة الغربية بين الدين والسياسة، بين المواقف الدينية والمواقف والأنشطة السياسية،

تصبح غير ذات معنى وغير حقيقية. فالاستياء السياسى ـ وقد يكون مصدره اجتماعياً ـ يتخذ تعبيراً دينياً والانشقاق الدينى يكتسب تضمينات سياسية، وهكذا فإنه عندما تقوم جماعة من المسلمين بما هو أكثر من مجرد المعارضة الشخصية والمحلية للقائمين على السلطة، وعندما تشكل تهديداً للنظام القائم وتنشئ تنظيماً لتغييره فإن تحديها هذا يعد دينياً، ومنظمتها تصبح فرقة.

وقد شهد القرن الأول للتوسع الإسلامى كثيراً من التوترات التى أثارت المرارة والأحقاد وكثيراً من المظالم والآلام التى عبرت عن نفسها بالانشقاق الدينى والثورة. كما أن انتشار الإسلام بالاعتناق أدخل فى الجماعة الإسلامية أعداداً متزايدة من المؤمنين الجدد الذين يحملون معهم من خلفياتهم المسيحية أو اليهودية أو الإيرانية كثيراً من المواقف والأفكار الدينية التى لم تكن معروفة لدى المسلمين العرب الأوائل، وهؤلاء المتحولون الجدد رغم أنهم مسلمون فإنهم لم يكونوا عرباً، وأكثر من ذلك لم يكونوا أرستقراطيين، ولذا فقد وجدوا أنفسهم فى مرتبة اجتماعية واقتصادية دنيا أرغمتهم عليها الأرستقراطية العربية المسيطرة مما أوجد لديهم شعوراً بالظلم وجعلهم على استعداد للانتظام فى الحركات التى تتحدى شرعية النظام القائم، وحتى الفاتحون العرب أنفسهم لم يكونوا بمنجاة من الشعور بهذا السخط وعدم الرضاء، فالعرب الأتقياء كانوا يأسفون لتدنى الخلفاء والحكام فى حب الدنيا، والعرب البدو كانوا يعارضون تجاوزات السلطة وانتهاكها لحقوقهم وحرماتهم، وكثيرون آخرون من الذين يعانون من الخلافات الاقتصادية والاجتماعية الحادة التى جاءت مع الفتح والثراء بدأوا يشاطرون الداخلين الجدد فى الإسلام أساهم وآمالهم، وكثير من هؤلاء كانت لديهم أفكار عن الشرعية

السياسية والدينية من تراثهم القديم، فاليهود والمسيحيون يعتقدون فى طهارة بيت داود وانتصاره الحتمى فى النهاية عن طريق مسيح منتظر، والزرادشتيون يتوقعون ظهور سوشيان وهو مخلص سيقوم فى نهاية الزمن من نسل زرادشت المقدس، وما إن تحولوا إلى الإسلام حتى كانوا على استعداد للانجذاب إلى دعاوى بيت النبوة التى يبدو أنها ستضع نهاية لمظالم النظام القائم وتنجز الوعد الإسلامى.

أثناء تحول الشيعة من حزب إلى فرقة وقع حادثان لهما دلالة خاصة، وقد نجم هذان الحادثان عن مجرى المحاولات غير الناجحة التى قام بها الشيعة لخلع الخلافة الأموية. الحادث الأول وقع فى عام ٦٨٠م وكان بطله الحسين بن على وفاطمة ابنة النبى، ففى اليوم العاشر من شهر المحرم، وفى مكان يدعى كربلاء، بالعراق، جوبه الحسين وأسرته وأتباعه بقوة أموية أبادتهم بقسوة بالغة، وقتل فى هذه المذبحة حوالى سبعين شخصاً، ولم ينج سوى طفل مريض هو على بن الحسين كان قد ترك راقداً فى خيمة، وقد أدى استشهاد حفيد الرسول ومعينه على هذا النحو الدرامى وموجة الغضب والندم التى أعقبت إلى صب حماسة دينية جديدة فى الشيعة الذين أصبحت تلهبهم الآن أفكار المعاناة والآلام والتكفير.

أما نقطة التحول الثانية فجاءت فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن (الميلادى)، ففى عام ٦٨٥ قام شخص يدعى مختار ـ وهو عربى من الكوفة ـ بثورة باسم ابن على المعروف بمحمد ابن الحنفية (نسبة إلى أمه وهى غير السيدة فاطمة بنت النبى) الذى قال عنه إنه الإمام الحقيقى والرئيس الشرعى للمسلمين، وقد هزم مختار وقتل فى عام ٦٨٧ ولكن حركته استمرت من بعده، وعندما توفى محمد ابن الحنفية

نفسه فى حوالى عام ٧٠٠م قال أنصاره إن إمامته انتقلت إلى ابنه، وادعى البعض أنه لم يمت ولكنه ذهب للاختفاء فى جبال رضوى بالقرب من مكة، وإنه سيعود عندما يشاء الله وينتصر على أعدائه، هذا الإمام التبشيرى يدعى «المهدى» أى الذى يتبع الهدى الحق.

هذان الحدثان: استشهاد الحسين وثورة محمد ابن الحنفية وضعا النموذج المحتذى لسلسلة طويلة من الحركات الدينية الثورية، وهناك شخصيتان مركزيتان فى مثل هذه الحركات هما «الإمام» الذى يدعى أحياناً أيضاً المهدى، أى الزعيم الشرعى الذى يأتى لتدمير الطغيان وإقرار العدل، و «الداعى» الذى ينشر رسالته ويجند أنصاره وقد يقودهم فى النهاية إلى النصر أو الاستشهاد. وفى أواسط القرن الثامن حققت إحدى هذه الحركات نجاحاً مؤقتاً إذ أسقطت الدولة الأموية وأحلت محلها العباسيين ـ وهم فرع آخر من الأسرة التى ينتهى إليها النبى وعلى ـ ولكن الخلفاء العباسيين فى ساعة انتصارهم نبذوا العلويين ودعاتهم الذين جاءوا بهم إلى السلطة، واختاروا طريق الاستقرار والاستمرار فى الدين والسياسة، وأدت خيبة الآمال الثورية على هذا النحو إلى ظهور استياءات جديدة عنيفة واندلاع موجة جديدة من الحركات التبشيرية المتطرفة.

فى المرحلة المبكرة من تاريخ الشيعة تعرضت نظرياتها ومنظماتها لتغييرات كثيرة، فقد ظهر عدد كبير من الذين يدعون الانتماء بدرجة أو أخرى لأهل البيت أو ممثليهم، ثم كانوا يختفون عن الأعين بعد أن يضيفوا تفصيلات جديدة إلى الأوصاف الأسطورية للمخلص المنتظر، وكانت برامجهم تتراوح بين المعارضة المعتدلة والبدع الدينية المتطرفة التى هى أبعد ما تكون عن التعاليم السائدة المقبولة فى الإسلام، ومن

أهم السمات التى أدخلوها تقديس الأئمة والدعاة واعتبارهم معصومين وقادرين على الإتيان بالمعجزات، وكانت نظرياتهم تعكس أفكاراً صوفية واستشراقية مستمدة من الغنوصية ومذاهب مانى ومختلف الأفكار الإلحادية الإيرانية واليهودية ـ المسيحية. ومن العقائد التى أدخلوها فكرة التناسخ وتأليه الأئمة وأحياناً بعض الدعاة، والإباحة أى عدم التقيد بأحكام الشريعة، وفى بعض الأماكن ـ كما حدث مثلاً بين بعض الفلاحين والبدو فى أجزاء من إيران وسوريا ـ ظهرت ديانات محلية متميزة بذاتها نتيجة لاختلاط تعاليم الشيعة بالعقائد والعبادات المحلية السابقة.

كان البرنامج السياسى لهذه الفرق واضحاً: الإطاحة بالنظام القائم وتنصيب الإمام المختار، ولكن من الصعب تحديد أى برنامج اجتماعى أو اقتصادى دعائى لها بالرغم من أن أوجه نشاطها كانت على صلة واضحة بالإحباطات والآمال الاجتماعية والاقتصادية، ويمكن أن نستدل على بعض أفكار هذه البرامج من واقع التراث التبشيرى لهذه الحركات وما تتوقع أن يتصدى له المهدى ويقوم بإصلاحه، وقد كان جزء من مهمته إسلامياً بالمعنى الواسع وهو العودة إلى الإسلام الحق ونشر العقيدة إلى آخر حدود الأرض، ولكن كان عليه بالتحديد أن ينشر العدل «أن يملأ الدنيا بالعدل والمساواة كما هى ممتلئة الآن بالظلم والاضطهاد» وأن يقيم المساواة بين الضعيف والقوى ويأتى بالسلام والرخاء.

وفى البداية كان الزعماء الذين يلتف حولهم الشيعة يقيمون دعاويهم على أساس القرابة للنبى أكثر من الادعاء بأنهم من نسله المباشر عن طريق ابنته فاطمة، وبعضهم ـ ومنهم عدد غير قليل من الأكثر نشاطاً ـ لم يكونوا من نسل فاطمة، بل حتى لم يكن بعضهم من

نسل على وإنما من فروع أخرى من عشيرة النبى، ولكن بعد انتصار العباسيين وخيانتهم ركز الشيعة آمالهم فى نسل على، وبالذات هؤلاء الذين انحدروا من زواجه بابنة النبى، وتم التركيز بصفة خاصة على ضرورة الانحدار المباشر من نسل النبى، وتدعمت فكرة أنه منذ وفاة النبى لم يكن هناك فى الواقع سوى خط واحد من الأئمة الشرعيين الذين هم وحدهم الرؤساء الشرعيون للجماعة الإسلامية، وهؤلاء هم على وابناه الحسن والحسين ونسل الحسين من ابنه على زين العابدين وهو الوحيد الذى نجا من فجيعة كربلاء، وفيما عدا الحسين امتنع هؤلاء الأئمة أساساً عن النشاط السياسى، وفى الوقت الذى كان فيه هناك مطالبون آخرون بالخلافة يزهقون أرواحهم فى محاولات يائسة للإطاحة بالخلافة القائمة عن طريق القوة فضل هؤلاء الأئمة الشرعيون أن يقوموا بنوع من المعارضة القانونية للخلفاء الذين يتولون زمام الأمور، واختاروا أن يقيموا فى مكة أو المدينة بعيداً عن المراكز السياسية الرئيسية، وفى الوقت الذى احتفظوا فيه بحقوقهم فى الحكم لم يفعلوا سوى القليل للحصول عليها، بل على العكس نراهم فى بعض الأحيان يعترفون بل ويساعدون وينصحون الحكام الأمويين ومن بعدهم العباسيين الذين يحكمون الإمبراطورية الإسلامية. وهذا الموقف من جانب الأئمة الشرعيين أخذ فى التراث الشيعى تفسيراً دينياً إذ عزيت سلبيتهم إلى تقواهم وزهدهم فى الدنيا، وفسر إذعانهم بأنه تطبيق لمبدأ «التقية».

إن تعبير «التقية» ـ ومعناه الحذر والاحتياط ـ يشير إلى نظرية إسلامية للإعفاء، والفكرة هى أنه فى حالة الإرغام أو الخطر يمكن إعفاء المؤمن من أداء بعض التزاماته الدينية، وهذا المبدأ كثيراً ما قيلت بشأنه تعريفات وتفسيرات مختلفة ولم يكن مقصوراً على الشيعة فحسب، ولكنهم هم

ـ على أية حال ـ الذين تعرضوا مراراً لأخطار الاضطهاد والقهر، ولذا فإنهم هم الذين لجأوا إلى هذا المبدأ أكثر من غيرهم، وقد استخدم مبدأ «التقية» لتبرير إخفاء المعتقدات التى يحتمل أن تثير عداء السلطات أو الجماهير وكبديل للتهور المدمر للذات الذى ساق الكثيرين إلى الموت فى انتفاضات لا أمل فى نجاحها بالمرة.

كان النصف الأول من القرن الثامن «الميلادى» فترة نشاط وافر بين غلاة الشيعة، فظهرت فرق وأشباه فرق لا حصر لها، لاسيما بين العناصر المختلطة من سكان جنوب العراق وشواطئ الخليج الفارسى، وكانت نظرياتهم متباينة ومستمدة من عناصر شتى وكان من السهل والشائع التنقل من فرقة إلى أخرى، ومن زعيم إلى آخر، وتعطى المصادر الإسلامية أسماء الكثيرين من الدعاة الدينيين فى تلك الفترة، بعضهم رجال من أصل متواضع تزعموا ثورات وأعدموا، وتنسب إلى بعضهم نظريات كانت من خصائص الإسماعيلية فيما بعد، فمثلاً كانت إحدى الجماعات تزاول القتل خنقاً بالحبال كواجب دينى كعادة الثوجىThuggee الهندية، وهى سابقة تنذر بظهور الحشاشين فى القرون التالية، وحتى بين أصحاب النظريات المعتدلة ظهرت جماعات نضالية حاولت الاستيلاء على السلطة بالقوة ولقيت الهزيمة والدمار على أيدى الجيوش الأموية والعباسية من بعدها.

وما إن حل النصف الثانى من القرن الثامن حتى كانت الحركات المتطرفة والنضالية المبكرة قد أثبتت فشلها واختفت تماماً أو تضاءلت أهميتها، فى حين برز الأئمة الشرعيون المعتدلون المرنون فى صلابة وتصميم لحفظ عقيدة الشيعة وإثرائها، ومهدوا الطريق لجهد جديد وأكبر لتحقيق السيطرة على عالم الإسلام.

ولكن بالرغم من فشل الحركات المبكرة وعدم تشجيع الأئمة أنفسهم فقد استمرت العناصر المتطرفة والنضالية فى الظهور حتى داخل النطاق المباشر للأئمة الشرعيين، وحدث الانقسام الحاسم بين المتطرفين والمعتدلين بعد وفاة جعفر الصادق الإمام السادس (بعد على) فى عام ٧٦٥م، فقد كان لجعفر ابن أكبر هو إسماعيل، ولأسباب ليست واضحة تماماً وربما لارتباطه بالعناصر المتطرفة، حرم إسماعيل من خلافة أبيه فى الإمامة واعترف قطاع كبير من الشيعة بأخيه الأصغر موسى الكاظم باعتباره الإمام السابع، واستمر نسل موسى حتى الإمام الثانى عشر الذى اختفى حوالى عام ٨٧٣ ولايزال هو «الإمام المنتظر» أو «المهدى» بالنسبة للأغلبية الساحقة من الشيعة إلى اليوم، وقد عرف أتباع الإمام الثانى عشر بالشيعة الاثنى عشرية وهم يمثلون الجناح الأكثر اعتدالاً فى الفرقة، واختلافاتهم مع السنة محدودة فى عدد معين من النقاط، وحتى هذه الاختلافات قلت أهميتها كثيراً فى السنوات الأخيرة، ومنذ القرن السادس عشر أصبحت الشيعة الاثنى عشرية هى المذهب الرسمى فى إيران.

تبعت جماعة أخرى من الشيعة «إسماعيل» ونسله، وهذه الجماعة عرفت باسم «الإسماعيلية»، ولأن الإسماعيليين ظلوا يعملون فى الخفاء فترة طويلة لذلك تمكنوا من تكوين فرقة بزّت كل منافسيها فى تماسكها وتنظيمها وجاذبيتها العقلية والعاطفية، وبدلاً من التكهنات الفوضوية والخرافات البدائية التى وقعت فيها الفرق السابقة ظهر فى الفرقة الجديدة عدد من المفكرين الدينيين البارزين تمكنوا من تطوير

نظرية دينية على مستوى فلسفى رفيع وأنتجوا فكراً استطاع بعد محاق استمر قروناً أن ينتزع الاعتراف بقيمته الحقيقية الآن، فبالنسبة لأهل الورع والتقوى قدم الإسماعيليون احتراماً للقرآن والسنة والشرعية لا يقل عن احترام أهل السنة، وبالنسبة لأهل الذكاء والفطنة قدموا تفسيراً فلسفياً للكون استمدوه من مصادر القدماء وخاصة الفكر الأفلاطونى الجديد، وبالنسبة لأصحاب الأرواح الشفافة قدموا عقيدة عاطفية ذاتية دافئة تغذيها العبرة المستمدة من آلام الأئمة وتضحيات أتباعهم فى معاناة العذاب وإحراز الحق، وأخيراً بالنسبة للمظلومين والمستائين من الأوضاع القائمة قدموا حركة معارضة قوية جيدة التنظيم واسعة الانتشار بدا أنها تقدم إمكانية حقيقية للإطاحة بالنظام القائم وإقامة مجتمع جديد عادل بدلاً منه، مجتمع يرأسه الإمام الذى هو وريث النبى، والمختار من الله، والزعيم الشرعى الوحيد للبشرية.

والإمام هو مركز النظام الإسماعيلى سواء فى النظرية أو التنظيم، فهم يؤمنون أنه بعد أن تم خلق العالم نتيجة فعل العقل الكونى فى الروح الكونية دخل التاريخ البشرى فى سلسلة من الحقب أو الدوائر، كل دائرة تبدأ بإمام «ناطق» وهو النبى المرسل من الله، ويتتابع بعده أئمة «صامتون»، وهؤلاء الأئمة الصامتون يكونون أحياناً مستترين وأحياناً ظاهرين تبعاً لفترات اختباء العقيدة أو ظهورها. ويقولون إن أئمة الدورة أو الدوائر الحالية من نسل على وفاطمة عبر إسماعيل وهم معصومون وموحى إليهم، بمعنى أنهم أنفسهم فى الحقيقة مقدسون إذ إن الإمام هو تجسيد وصورة مصغرة لروح الكون الميتافيزيقية (الله؟)، ولذا فإنه ينبوع المعرفة والسلطة، فهو مطلع على الحقائق المخفية عن الآخرين وأوامره تقتضى الطاعة التامة التى لا تناقش.

وكانوا يجتذبون المبتدئ بالإثارة المستمدة من سحر المعرفة السرية والعمل السرى، فقد كان مما يميز الفرقة تفسيرها الرمزى للقرآن والمسمى «تأويل الباطن» ومنه اشتق تعبير «الباطنية» الذى عرفت به الفرقة أحياناً[١].

فإلى جانب المعنى الحرفى والظاهرى للقرآن والسنة فإن لهما ـ فى نظر الإسماعيلية ـ معنى آخر رمزياً وخفياً لا يكشف تفسيره إلا الإمام ويعلمه للمبتدئين فى العقيدة، وقد ذهبت بعض فروع الفرقة إلى أبعد من ذلك وانتهجت تعاليم مناقضة ترجع إلى أقصى التطرف الإلحادى والصوفى الذى عرفه الإسلام، ولدى الإسماعيلية أن الالتزام الدينى الغائى هو المعرفة ـ الغنوصية ـ للإمام الحق، وأن حرفية الشريعة تلغى بالنسبة للإسماعيلى المؤمن وتوجد فقط إن كان لها محل كعقاب للدنس أو النجس. والواقع أن من النغمات الشائعة فى الكتابات الدينية لدى الإسماعيليين البحث عن الحقيقة وهو أمر يبدو عبثاً فى أول الأمر ثم لا يلبث أن يتحقق فى لحظة إشراق تغشى الأبصار.

أما تنظيم الفرقة ونشاطاتها والوصاية عليها ونشر تعاليمها فكانت فى أيدى هيئة من الدعاة يرأسهم الداعى الأكبر الذى هو المساعد المباشر للإمام.

(١) ومن أسمائهم أيضاً كما أوردها أبو حامد الغزالى فى كتابه «فضائح الباطنية» حققه وقدم له عبدالرحمن بدوى: القرامطة وقرمطية نسبة إلى حمدان قرمط وحركته المعروفة بهذا الاسم. والخرمية نسبة إلى اتباعهم اللذات وطلب الشهوات وحط أعباء الشرع عن المتعبدين من «خرم» وهو لفظ أعجمى ينبئ عن الشىء المستلذ المستطاب. والبابكية وهو اسم لطائفة منهم بايعوا رجلاً يقال له بابك الخرمى واصطدموا بجيوش المسلمين بناحية أذربيجان فى أيام المعتصم بالله. والسبعية لاعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وربطهم تدابير العالم السفلى بالكواكب السبعة التى أعلاها زحل وأدناها القمر، والمحمرة لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك ولبسوها. والتعليمية لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأى وإبطال تصرف العقول ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم.
(المعرب)

لمدة قرن ونصف القرن بعد وفاة إسماعيل ظل الأئمة الإسماعيليون مخبوئين ولم يكن يعرف سوى القليل عن أوجه نشاط دعاتهم أو تعاليمهم. ولكن مرحلة جديدة بدأت فى النصف الثانى من القرن التاسع (الميلادى) عندما بدأ الضعف الواضح والمتزايد للخلفاء العباسيين فى بغداد ينذر بانهيار الإمبراطورية الإسلامية وتمزيق المجتمع الإسلامى، وظهرت فى الأقاليم الإسلامية المختلفة أسر محلية ذات طبيعة عسكرية فى الغالب وقبلية المنشأ فى بعض الأحيان، ومعظم هذه الأسر الحاكمة كانت قصيرة الأجل ولكنها فى بعض المناطق كانت تقوم على الابتزاز والاضطهاد، وحتى فى العاصمة أخذ الخلفاء يفقدون قوتهم ويتحولون إلى دمى عاجزة فى أيدى عساكرهم، وأخذت أسس الثقة فى الدولة الإسلامية العالمية والموافقة الإجماعية عليها تتقوض، وبدأ الناس يتطلعون إلى أى مكان بحثاً عن الاطمئنان والثقة. فى هذه الأزمنة غير المستقرة أخذت دعوة الشيعة التى تقول إن الجماعة الإسلامية سلكت طريقاً خاطئاً وينبغى إعادتها إلى جادة الصواب تسمع وتكتسب انتباهاً جديداً، واستفاد فرعا الشيعة ـ الاثنى عشرية والإسماعيلية ـ من هذه الظروف، وبدا فى أول الأمر كما لو أن الاثنى عشرية على وشك الانتصار فظهرت أسر اثنى عشرية حاكمة فى عدة مناطق، وفى عام ٩٤٦م تمكنت أسرة شيعية فى إيران، وهى بنو بويه، من إنزال أقصى الإذلال بالعالم السنى الإسلامى باستيلائها على بغداد ووضع الخليفة العباسى نفسه تحت سيطرة الشيعة، ولكن فى هذا الوقت لم يكن للشيعة الاثنى عشرية إمام، إذ إن الإمام الثانى عشر والأخير كان قد اختفى قبل حوالى سبعين عاماً من تلك الأحداث، وهكذا واجه بنو بويه اختياراً صعباً، فقرروا عدم الاعتراف بأى مطالب علوى آخر بالخلافة والاحتفاظ بالخلفاء العباسيين كخلفاء صوريين تحت سيطرتهم

وصاياتهم، وهم إذ فعلوا ذلك زادوا من إخزاء الخلافة السنية التى فقدت لمعانها بالفعل ولكنهم فى الوقت نفسه قضوا نهائياً على إمكان أن تكون الشيعة المعتدلة بديلاً لها.

ولكن كان هناك الكثير مما يجعل الناس فى حاجة إلى بديل، فإن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة التى حدثت خلال القرنين الثامن والتاسع قد جلبت الثراء والقوة للبعض والمشقة وخيبة الأمل للآخرين، ففى الريف أدى نمو الملكيات الكبيرة التى تتمتع غالباً بامتيازات مالية إلى مزيد من إفقار الأجراء وصغار الملاك وإخضاعهم، وفى المدن أدى تقدم التجارة والصناعة إلى خلق طبقة من العمال المعدمين واجتذاب مهاجرين محتاجين لا جذور لهم ليكونوا بمثابة سكان مزعزعين وغير مستقرين. وفى وسط الرخاء العظيم كان هناك أيضاً شقاء عظيم، ولم تستطع الشرعية الجافة ولا الفلسفة المتعالية للعقيدة السلفية ولا التزمت الحذر لشارحيها المعتمدين من السلطة أن تقدم سوى أقل السلوى للمحرومين وأضيق المجال للتطلعات الروحية للأشقياء الذين لا جذور لهم، وبالإضافة إلى ذلك كانت ثمة قلقلة فكرية تغزو العقول، فإن العلم والفلسفة الإسلاميين اللذين ازدادا ثراء من مصادر كثيرة أصبحا أكثر دهاء وحنكة وتنوعاً، وأصبحت هناك مسائل كبرى مقضة ينبغى علاجها، مسائل تنبع من المواجهة بين الوحى الإسلامى وبين العلم والفلسفة الإغريقيين والحكمة الفارسية وحقائق التاريخ المجردة، ووسط أشياء كثيرة أخرى ظهر هناك انعدام للثقة فى الحلول الإسلامية التقليدية ورغبة ملحة وحاجة عاجلة إلى حلول أخرى. وهكذا بدا كأن الإجماع الإسلامى العظيم ـ الدينى والفلسفى والسياسى والاجتماعى ـ على وشك الانهيار، وبرزت الحاجة إلى مبدأ جديد من الوحدة والسلطة والفكر يكون عادلاً وفعالاً لإنقاذ الإسلام من خطر الدمار.

الإسماعيليون يتقدمون

ولم يكن هناك غير الإسماعيليين ـ بقوتهم المتنامية ـ من يستطيع تقديم مثل هذا المبدأ ووضع تخطيط لعالم جديد يهيمن عليه الإمام. وقد استطاع دعاة الإسماعيلية فى هذه الأزمنة المضطربة أن يهبوا برسالتهم وخدماتهم الراحة والأمل لأهل التقوى والورع وللساخطين على السواء، كما استطاعت التوفيقات الإسماعيلية أن تكون بمثابة نداء مغرٍ للفلاسفة واللاهوتيين والشعراء والدارسين، وإذا كانت معظم كتابات الإسماعيلية قد اختفت من أراضى الإسلام الرئيسية بسبب ردود الفعل العنيفة ضد الإسماعيلية فى العصور اللاحقة أو طويت فى صدور أعضاء الفرقة أنفسهم فإن عدة أعمال قليلة قد اكتسبت منذ زمن بعيد شهرة واسعة، وهناك الكثيرون من المؤلفين الكلاسيكيين العظام فى العربية والفارسية تظهر فيهم على الأقل آثار التأثر بالإسماعيلية، فمثلاً نجد أن «رسائل إخوان الصفا» ـ وهى دائرة معارف شهيرة للمعرفة الدينية والدنيوية وضعت فى القرن العاشر ـ مشبعة بالفكر الإسماعيلى وكان لها نفوذ عميق فى الحياة الفكرية الإسلامية من فارس إلى أسبانيا.

ومما لا يثير الدهشة أن يحقق الدعاة الإسماعيليون نجاحاً خاصاً فى مناطق مثل جنوب العراق وشطآن الخليج الفارسى وأجزاء من فارس حيث ظهرت من قبل أشكال سابقة من التشيع النضالى والمتطرف أو حيث تقدم العبادات المحلية أرضية مناسبة، ففى أواخر القرن التاسع استطاعت شعبة من الفرقة تسمى القرامطة ـ ولكن علاقاتها المحددة بالإسماعيلية الرئيسية غير مؤكدة ـ أن تستولى على المناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية وتنشئ شكلاً من الحكم الجمهورى فيها، واتخذوا منها لمدة تزيد على القرن قاعدة للعمليات العسكرية والدعائية ضد

الخلافة، وقد فشلت محاولة قرمطية للاستيلاء على السلطة فى سوريا فى أوائل القرن العاشر، ولكن هذا الحدث له دلالته ويكشف عن بعض التأييد المحلى للإسماعيلية فى سوريا حتى فى ذلك الوقت المبكر.

وتحقق أكبر انتصار للقضية الإسماعيلية فى ركن آخر من أركان العالم الإسلامى، فقد استطاعت بعثة إسماعيلية استقرت فى اليمن فى أواخر القرن التاسع أن تكسب كثيراً من المؤيدين وتحقق قاعدة للسلطة السياسية هناك، ومنها أرسلت بعثات أخرى إلى بلاد مختلفة شملت الهند وشمال أفريقيا، وفى شمال أفريقيا حقق الإسماعيليون أكبر نجاح مدهش لهم. ففى عام ٩٠٩م وصلوا إلى درجة من القوة دعت الإمام المستور إلى أن يظهر من الاختباء ويعلن نفسه خليفة فى شمال إفريقيا ويتخذ لقب المهدى، وهكذا تكونت دولة جديدة وأسرة حاكمة جديدة تعرف باسم «الفاطمية» بدعوى أنها من نسل فاطمة بنت النبى.

ولمدة نصف قرن انحصر حكم الخلفاء الفاطميين فى الغرب فحسب أى شمال أفريقيا وصقلية ولكن عيونهم رغم ذلك كانت على الشرق، على مصر قلب العالم الإسلامى، حيث يمكنهم أن يأملوا تحقيق غرضهم فى الإطاحة بالخلفاء العباسيين أتباع السنة وإعلان أنفسهم الرؤساء الوحيدين للعالم الإسلامى أجمع، ونشط العملاء والمبشرون الإسماعيليون للعمل فى كل البلاد السنية، وأخذت الجيوش الفاطمية تستعد فى تونس لغزو مصر كأول خطوة فى الطريق نحو إمبراطورية الشرق.

وفى عام ٩٦٩م تمت هذه الخطوة الأولى بنجاح فقد اقتحمت القوات الفاطمية وادى النيل وسرعان ما أخذت تتقدم عبر سيناء إلى فلسطين وجنوب سوريا، وبالقرب من الفسطاط المقر القديم للحكومة بنى الزعماء الفاطميون مدينة جديدة أسموها «القاهرة» لتكون عاصمة

لإمبراطوريتهم كما بنوا مسجداً جامعاً جديداً أسموه «الأزهر» ليكون قلعة لعقيدتهم، وانتقل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى من تونس إلى مقره الجديد حيث حكم خلفاؤه من بعده لمائتين من الأعوام التالية.

لقد أصبح التحدى الإسماعيلى للنظام القديم الآن وثيقاً وقوياً تقف وراءه قوة كبرى كانت لفترة أكبر قوة فى العالم الإسلامى، فقد كانت الإمبراطورية الفاطمية فى قمتها تضم مصر وسوريا وشمال أفريقيا وصقلية والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز ببلاد العرب بما فيه المدينتان المقدستان مكة والمدينة. وبالإضافة إلى ذلك كان الخليفة الفاطمى يتحكم فى شبكة واسعة من الدعاة ويتمتع بولاء أنصار لا يحصيهم العدد فى البلاد التى لاتزال تحت الحكم السنى فى الشرق، وفى دور العلم العظيمة بالقاهرة كان الدارسون والأساتذة يعكفون على تطوير نظريات العقيدة الإسماعيلية ويدربون المبشرين لنشر الدعوة فى الداخل والخارج، ومن بين المناطق الرئيسية التى ركزوا فيها نشاطهم فارس ووسط آسيا حيث كان الباحثون عن الحقيقة فى تلك الجهات يجدون طريقهم إلى القاهرة ثم يعودون فى الوقت المناسب إلى بلادهم الأصلية كمفسرين مدربين للرسالة الإسماعيلية، ومن بين هؤلاء برز الفيلسوف والشاعر نصرى خسرو الذى تحول إلى المذهب الإسماعيلى أثناء زيارة له لمصر فى عام ١٠٦٤م وعاد ليدعو للمذهب الإسماعيلى فى بلاد الشرق حيث أحرز نفوذاً قوياً.

وكان رد الفعل السنى فى أول الأمر محدوداً وغير فعال، فقد اتخذت الخلافة العباسية بعض الاحتياطات الأمنية ضد الدعاة وأعلنت نوعاً من الحرب السياسية ضد الفاطميين، فاتهمتهم ـ بطريقة غير مقنعة ـ فى بيان صدر فى بغداد عام ١٠١١م بأنهم ليسوا فاطميين بالمرة وإنما هم من نسل دعى سيئ السمعة.

ومع ذلك، وبالرغم من هذه القوة القاهرة وما بذلوه من جهد هائل فى حربهم السياسية والدينية والاقتصادية ضد الخلافة العباسية، فقد أخفق التحدى الفاطمى فى آخر الأمر ونجت الخلافة العباسية واستعاد الإسلام السنى قوته وانتصر، وبدأ الخلفاء الفاطميون يفقدون إمبراطوريتهم تباعاً ويفقدون معها سلطتهم على أتباعهم.

إن جانباً من السبب فى هذا الفشل ينبغى البحث عنه فى الأحداث التى وقعت فى الشرق حيث كانت تجرى تغيرات كبرى فى ذلك الوقت، فقد أدى مجيء الترك إلى وقف التمزق السياسى فى جنوب غربى آسيا واستطاع لفترة من الزمن أن يعيد لبلاد الخلافة السنية ما فقدته من وحدة واستقرار، وقد كان الفاتحون الأتراك مؤمنين جداً بالإسلام، وكانوا مخلصين وموالين وسلفيين فى عقيدتهم الدينية، كما كانوا متشربين بشعور قوى نحو واجبهم للإسلام ومسئوليتهم كحماة جدد للخليفة وأسياد للعالم الإسلامى، وأن عليهم أن يحافظوا عليه ويدفعوا عنه الأخطار الداخلية والخارجية، وقد قاموا بهذا الواجب إلى نهايته، وقدم الزعماء الترك والجنود الترك ما يلزم من قوة ومهارة سياسياً وعسكرياً لمواجهة واحتواء وصد الخطرين الكبيرين اللذين يتهددان الإسلام السنى وهما تحدى الخلفاء الإسماعيليين ثم غزو الصليبيين القادمين من أوربا.

هذان الخطران ـ الانقسام الدينى والغزو الأجنبى ـ ساعدا على إذكاء اليقظة السنية الكبرى التى كانت تستجمع قواها. ففى العالم السنى كان لايزال هناك احتياطى هائل للقوة الدينية يتمثل فى فقه الفقهاء، وروحانية المتصوفة، وإيمان الأتباع، وفى هذا الوقت من الأزمة والانتعاش ظهرت تركيبة فكرية جديدة رداً على التحدى العقلى للفكر الإسماعيلى والجاذبية العاطفية للعقيدة الإسماعيلية.

وبينما كان الخصوم السنيون يكسبون مزيداً من القوة السياسية والعسكرية والدينية بدأت قضية الإسماعيلية الفاطمية فى الضعف نتيجة للانقسام الدينى والذبول السياسى، وقد نشأ أول الصراعات الداخلية الخطيرة فى الإسماعيلية نتيجة لذات النجاح الذى حققه الفاطميون، فإن الاحتياجات والمسئوليات المترتبة على إنشاء دولة وإمبراطورية تطلبت بعض التغيير فى النظريات السابقة أو كما يقول مؤلف إسماعيلى حديث: «برزت الحاجة إلى اتخاذ موقف أكثر ميلاً إلى الهدوء والمحافظة على الوضع القائم فى الإسلام» ومنذ البداية كانت هناك صراعات بين الثوريين والمحافظين من الإسماعيلية وبين الحافظين للأسرار الخفية والكاشفين لها، وكان على الخلفاء الفاطميين من وقت لآخر أن يواجهوا خطر الانقسام بل والمعارضة المسلحة كلما سحبت جماعة من أتباعهم رضاها أو تأييدها، ومنذ زمن الخليفة الفاطمى الأول فى شمال أفريقيا كانت هناك خصومات بين الدعاة الذين ينتمون إلى وجهات نظر مختلفة وارتدادات عن المعسكر الفاطمى، وقد واجه الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمى صعوبات مماثلة فى نفس لحظة انتصاره الكبير أثناء غزوه لمصر، بل وكان عليه أن يحارب ضد القرامطة فى شرق شبه الجزيرة العربية الذين ـ بعد تأييدهم للفاطميين أول الأمر ـ انقضوا عليهم وهاجموا جيوشهم فى سوريا ومصر، ويبدو أن القرامطة عادوا فى وقت لاحق إلى الولاء للفاطميين ثم اختفوا كشخصية مستقلة. وحدث انقسام آخر بعد اختفاء الخليفة السادس الحاكم بأمر الله الفاطمى فى ظروف غامضة عام ١٠٢١م فقد اقتنع فريق من المؤمنين به أن الحاكم بأمر الله شخصية مقدسة وأنه لم يمت وإنما استتر، ورفضوا الاعتراف بمن تتابعوا من بعده على العرش الفاطمى، ثم انشقوا عن الكيان الرئيسى للفرقة وأحرزوا بعض النجاح فى كسب الولاء بين الإسماعيلية

فى سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة (إسرائيل) للآن، وأحد مؤسسى هذه الفرقة داع من أصل وسط ـ آسيوى يدعى محمد بن إسماعيل الدرزى (ويقال إنه كان ترزياً فى الأصل) ولايزال أتباعه يعرفون من بعده بالدروز.

الرسالة تتمزق

أثناء الحكم الطويل للخليفة الثامن المستنصر (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) وصلت الإمبراطورية الفاطمية إلى أعلى ذراها ثم تهاوت إلى الانحلال السريع، ولدى وفاته تمزقت الرسالة الإسماعيلية فى أكبر انقسام داخلى فى تاريخها.

فى بداية الدولة الفاطمية كانت للخليفة سيطرة شخصية تامة على كل الشئون، كان يهيمن على فروع الحكومة الرئيسية الثلاثة: الإدارة الحكومية والهيئة الدينية والقوات المسلحة، وكان رئيس الإدارة المدنية ورئيس الحكومة الفعال تحت الخليفة هو الوزير وهو شخصية مدنية، وكان رئيس الهيئة الدينية هو داعى الدعاة الذى كان يسيطر على الدعوة الإسماعيلية داخل الإمبراطورية بالإضافة إلى سيطرته على جيش كبير من الدعاة والعملاء الإسماعيليين فى الخارج، وكان قائد الجيش أو أمير الجيوش يسيطر على الفرع الثالث وهو القوات المسلحة، ومنذ وفاة الحاكم، على أية حال، بدأ العسكريون يزيدون من قوتهم حثيثاً على حساب المدنيين، بل والخليفة نفسه، والواقع أن النكسات والكوارث والانقلابات التى حدثت فى أواسط القرن الحادى عشر قد زادت من سرعة هذا التطور الذى بلغ أقصاه فى عام ١٠٧٤ عندما قام الخليفة

المستنصر باستدعاء بدر الجمالى حاكم عكا العسكرى للحضور إلى مصر بقواته ليأخذ بزمام الأمور، وسرعان ما أصبح بدر الجمالى سيداً للبلاد يحمل الألقاب الثلاثة التى منحها له الخليفة: أمير الجيوش وداعى الدعاة والوزير، دلالة على سيطرته على الفروع الثلاثة جميعاً: العسكرى والدينى والإدارى غير أنه أصبح يعرف عادة باللقب الأول.

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد الحقيقى لمصر هو أمير الجيوش أو قائد الجند العسكرى الأتوقراطى الذى يحكم البلاد عن طريق قواته، ثم أصبح المنصب وراثياً فخلف بدر الجمالى ابنه ثم حفيده ثم سلسلة من الأتوقراطيين العسكريين الأخر، وتماماً مثلما أضحى الخلفاء العباسيون فى بغداد بمثابة دمى عاجزة فى أيدى حماتهم والوصاة عليهم أمسى الخلفاء الفاطميون الآن مجرد رؤساء صوريين لسلسلة متتابعة من الدكتاتوريين العسكريين، وكانت تلك نهاية حزينة لأسر حاكمة تدّعى الزعامة الروحية والسياسية لكل العالم الإسلامى وانحطاطاً يناقض بصورة بارزة العقائد والآمال التى تتحلى بها العقيدة الإسماعيلية.

وكان حتماً أن يثير هذا التغيير السخط والمعارضة بين العناصر الأكثر تماسكاً ونضالية من أعضاء الفرقة، ومما زاد فى معارضتها لما يجرى من الأمور أن تلك الفترة شهدت تجدداً للنشاط بين الإسماعيليين فى فارس، غير أن هذه المعارضة لم تكن بذات بال، كما لم يترتب على اختفاء بدر الجمالى وحلول ابنه الأفضل محله فى عام ١٠٩٤ أى تغيير ذى بال فى مجرى الأمور، وعندما توفى الخليفة المستنصر بعد ذلك بشهور واجهت أمير الجيوش الأفضل ضرورة اختيار خليفة له، ولم يكن الاختيار صعباً، فمن ناحية كان هناك نزار الابن الأكبر الناضج الذى عينه المستنصر ولياً لعهده وقبله الزعماء الإسماعيليون بهذه الصفة، ومن جهة أخرى كان

هناك أخوه الأصغر المستعلى، وهو شاب بدون حلفاء أو مؤيدين، وبالتالى على استعداد لأن يعتمد كلياً على نصيره القوى، ولاشك أن ذلك كان فى ذهن أمير الجيوش الأفضل حين دبر زواج ابنته من المستعلى، ولدى وفاة الخليفة المستنصر أعلن الأفضل زوج ابنته خليفة، وفر نزار إلى الإسكندرية حيث هب فى ثورة محلية أحرزت نجاحاً مبدئياً، ولكنه لم يلبث أن هزم وأسر وقتل بعد ذلك.

باختيار المستعلى كخليفة قسم الأفضل الفرقة الإسماعيلية من الرأس إلى القدم، واستبعد ـ عن قصد ربما ـ جميع أتباعها فى بلاد الإسلام الشرقية، وحتى داخل حدود الدولة الفاطمية ظهرت حركات معارضة، أما الإسماعيليون الشرقيون فقد رفضوا الاعتراف بالخليفة الجديد وأعلنوا ولاءهم لنزار وخطه وقطعوا كل علاقاتهم بالمؤسسة الفاطمية الواهنة فى القاهرة، وهكذا تم الانقسام بين الدولة والعناصر الثورية الذى بدأ ظهوره منذ بداية تكوين الدولة.

ولم يمض وقت طويل حتى كان الإسماعيليون الذين قبلوا المستعلى كخليفة قد قطعوا علاقاتهم كذلك بالنظام القائم فى القاهرة. ففى عام ١١٣٠ اغتيل «الأمير» ابن المستعلى وخليفته بأيدى النزاريين، ورفض أتباعه أن يعترفوا بالخليفة الجديد فى القاهرة ونمت بينهم عقيدة بأن ثمة ابناً طفلاً ضائعًا للأمير يدعى «الطيب» هو الإمام المخفى والمنتظر ولن يكون هناك أئمة بعده.

وحكم فى القاهرة بعد ذلك أربعة خلفاء فاطميين آخرين ولكنهم لم يعودوا أكثر من أسرة حاكمة مصرية محلية بدون قوة أو نفوذ أو أمل، وفى عام ١١٧١ عندما كان آخر واحد منهم يرقد ميتاً فى قصره، أمر القائد الكردى صلاح الدين ـ الذى كان فى ذلك الوقت قد أصبح

السيد الحقيقى لمصر ـ بالدعاء للخليفة العباسى فى بغداد على أعواد المنابر، وهكذا أعلن رسمياً إلغاء الخلافة الفاطمية، التى كانت قد ماتت فعلاً كقوة دينية وسياسية، بين عدم الاكتراث المطلق للجماهير، وجمعت الكتب «الإلحادية» الإسماعيلية وأحرقت، وعادت مصر بعد أكثر من قرنين إلى حظيرة الجماعة السنية.

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك إسماعيليون فى مصر ولكن الفرقة استمرت فى الحياة فى بلاد أخرى بفرعيها الرئيسيين اللذين انقسمت إليهما بعد وفاة المستنصر. أما أتباع المستعلى فقد ذهبوا إلى اليمن والهند ـ حيث لا يزالون هناك ـ وأصبحوا يسمون «بالبهرة» ويطلق على عقيدتهم أحياناً «الدعوة القديمة» حيث إنها تسير على التقاليد النظرية الرئيسية للفترة الفاطمية.

وبينما كان المستعليون يجنحون نحو الركود فى المراكز البعيدة من العالم الإسلامى كان منافسوهم النزاريون، أتباع نزار، يدخلون فى مرحلة من التطور النشط سواء فى العقيدة أو العمل السياسى، ولعبوا لفترة طويلة قادمة دوراً مهماً ومثيراً فى الشئون الإسلامية.

فى القرن الحادى عشر انكشف الضعف الداخلى المتزايد للعالم الإسلامى نتيجة تعرضه لسلسلة من الغزوات أهمها تلك التى قام بها الأتراك السلاجقة حيث أنشأوا إمبراطورية عسكرية جديدة تمتد من أواسط آسيا إلى شاطئ البحر المتوسط، وواكبت هذه الغزوات تغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية مهمة كانت لها آثار عميقة فى تاريخ الإسلام، فكما هى العادة بعد الغزوات اقتطعت أراض شاسعة ومنحت دخول كبيرة لضباط الجيوش التركية المنتصرة الذين كونوا مع بنى جلدتهم من المسئولين والموظفين الأتراك طبقة حاكمة جديدة حلت

محل الأرستقراطية والنبالة العربية والفارسية فى الأزمنة السابقة، وذهبت القوة والثروة والمناصب إلى رجال جدد كانوا فى الحقيقة وافدين غرباء لم تمتصهم الحضارة المدنية للشرق الأوسط الإسلامى، وقد ازداد مركز الطبقة الممتازة القديمة ضعفاً نتيجة لعوامل أخرى منها هجرة البدو إلى المدن وتغير طرق التجارة وبداية التغيرات الكبرى التى أدت إلى نهضة أوربا والانحلال النسبى للعالم الإسلامى، وفى هذه الأزمنة من الاضطراب والخطر استطاع الأسياد الترك الجدد أن يحافظوا على قدر من القوة والنظام ولكن بثمن مرتفع تمثل فى زيادة الإنفاق العسكرى وإحكام القبضة على الحياة العامة والتشدد الفكرى.

لم تعد القوة العسكرية للترك قابلة للاهتزاز، ولم تعد مدارس الفكر السلفى معرضة لتحد خطير، ولكن كانت هناك وسائل أخرى للهجوم، ومرة أخرى قدمت الإسماعيلية فى شكلها الجديد نقداً مغرياً للمعتقدات التقليدية التى تحميها إمبراطورية السلاجقة، وذلك بعد أن انتهجت استراتيجية ثورية جديدة وفعالة. لقد فشلت «الدعوة القديمة» للإسماعيلية، وأخذت الإمبراطورية الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وظهرت الحاجة إلى «دعوة جديدة» وأسلوب جديد، وهما ما قدمهما ثورى عبقرى يدعى حسن الصباح.

الفصل الثالث

الدعوة الجديدة

ولد حسن الصباح فى مدينة «قم» وهى أحد المراكز الأولى التى استوطنها العرب فى فارس، وكانت معقلاً قوياً للشيعة الاثنى عشرية، وكان أبوه ينتمى إلى الشيعة الاثنى عشرية وقد جاء من الكوفة بالعراق، ويقال إنه من أصل يمنى، بل ويتخيل البعض أنه ينحدر من ملوك حمير القدامى فى جنوب شبه الجزيرة العربية. ولا نعرف بالتحديد التاريخ الذى ولد فيه حسن ولكن من المحتمل أن يكون فى أواسط القرن الحادى عشر، وعندما كان طفلاً انتقل الأب بأسرته إلى مدينة الرى ـ بالقرب من مدينة طهران الحديثة ـ وهناك تلقى حسن تعليمه الدينى، وكانت الرى مركزاً لنشاط الدعاة الإسماعيليين منذ القرن التاسع، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ حسن يشعر بتأثيرهم، فنراه يكتب فى إحدى شذرات ترجمة حياته التى حفظها المؤرخون فيقول:

«منذ أيام طفولتى، وأنا فى السابعة من عمرى، أحببت مختلف فروع المعرفة، وكنت أتوق لأن أكون من علماء الدين وظللت حتى سن السابعة عشرة دارسًا وباحثاً فى المعرفة ولكنى ظللت على عقيدة أجدادى الاثنى عشرية.

وذات يوم التقيت برجل، أحد الرفاق (وهو تعبير يطلقه الإسماعيليون على أنفسهم) يدعى عميرة زاراب Amira Zarrab كان من وقت لآخر يدعو إلى نظرية الخلفاء فى مصر... كما كان يفعل آخرون من قبله...

لم يكن لدى أى شك أو زعزعة فى إيمانى بالإسلام وفى اعتقادى بوجود إله حى، باق، قدير، سميع، بصير وفى وجود نبى وإمام، وفى وجود مباحات ومحظورات، وجنة ونار، وأوامر ونواه، وكنت أفترض أن الدين والشريعة هما ما يؤمن به الناس بوجه عام والشيعة بوجه خاص، ولم يدر بخلدى أن الحقيقة يمكن البحث عنها خارج الإسلام، وكنت

أعتقد أن نظريات الإسماعيلية من قبيل الفلسفة (وهى كلمة لها معنى مكروه لدى المؤمنين الأتقياء) وأن حاكم مصر فيلسوف.

وكان عميرة زاراب ذا شخصية قوية، وعندما ناقشنى لأول مرة أن «الإسماعيلية يقولون كذا وكيت» فقلت له: «لا يا صديقى لا تردد كلماتهم لأنهم كفرة وما يقولونه ضد الدين» وكانت هناك خصومات ومناقشات بيننا تمكن خلالها من تدمير عقيدتى وإثبات بطلانها، ولم أشأ أن أعترف له بذلك ولكن فى أعماقى كان لكلماته أكبر الأثر... وكان عميرة يقول لى: «عندما تخلو إلى التأمل فى سريرك أثناء الليل سوف تعرف أن ما أقوله لك مقنع».

بعد ذلك افترق حسن ومعلمه، ولكن التلميذ الصغير واصل بحثه، وأخذ يقرأ كتب الإسماعيلية، فوقع فيها على أشياء أقنعته، وأخرى لم تقنعه، ولكنه لم يلبث أن أصيب بمرض شديد كان له الفضل فى تحويله تحويلاً كاملاً إلى المذهب الجديد، كتب يقول: «أخذت أفكر، لاشك أن هذه هى العقيدة الصحيحة ولكنى لم أعترف بها لخوفى الشديد، وها قد اقترب الآن أجلى المحتوم وسوف أموت دون أن أصل إلى الحقيقة».

ولم يمت حسن، ولما شفى بحث عن معلم إسماعيلى جديد أتم تعليمه على يديه، وكانت خطوته التالية أن يقسم يمين الولاء للإمام الفاطمى، وقد أدى هذا القسم أمام مبشر إسماعيلى مرخص له من عبدالملك بن عطاش كبير الدعاة الإسماعيليين فى غرب إيران والعراق. وبعد ذلك بقليل، فى مايو ـ يونيو ١٠٧٢ وصل كبير الدعاة شخصياً إلى الرى حيث قابل النصير الجديد ووافق عليه وحدد له مهمة فى

الدعوة وطلب منه أن يسافر إلى القاهرة ويقدم نفسه فى بلاط الخليفة، أو بمعنى آخر أن يسجل اسمه فى المقر.

ولكن حسن لم يذهب فى الواقع إلى مصر إلا بعد ذلك بسنوات، ولدينا قصة تحاول أن تفسر الأحداث التى أدت إلى رحيله، هذه القصة حكاها عدد من المؤلفين الفرس وانتقلت إلى القراء الأوربيين عن طريق المقدمة التى كتبها إدوارد فيتزجرالد لترجمته لرباعيات الخيام. تقول هذه القصة إن حسن الصباح والشاعر عمر الخيام والوزير نظام الملك كانوا زملاء دراسة لأستاذ واحد، وتعاهد ثلاثتهم على أن أى واحد منهم يحقق قبل زميليه نجاحاً أو ثراء فى هذا العالم عليه أن يساعد الآخرين. ودارت الأيام وأصبح نظام الملك وزيراً للسلطان، فتقدم منه زميلاه طالبين أن يبر بما تعاهدوا عليه، وعرض نظام الملك على كل منهما ولاية أحد الأقاليم، ولكنهما رفضا وإن كان رفضهما لسببين مختلفين، فأما عمر الخيام فقد كره مسئوليات الإدارة وفضل الحصول على معاش يتيح له التمتع بمباهج الفراغ، وأما حسن فقد رفض أن يقنع بمنصب إقليمى وأصر على الحصول على منصب كبير فى البلاط، وإذ تحققت رغبته لم يلبث أن أصبح مرشحاً للوزارة ومنافساً خطيراً لنظام الملك نفسه، ولذا فقد تآمر عليه الوزير واستطاع بخدعة أن يلحق به خزياً فى عين السلطان، وشعر حسن بالعار والغضب ففر إلى مصر ليعد العدة للانتقام.

ولكن هذه القصة تثير بعض الصعوبات، فالمعروف أن نظام الملك ولد عام ١٠٢٠ على أقصى تقدير وقتل عام ١٠٩٢ أما تاريخ ميلاد حسن الصباح وعمر الخيام فغير معروف، ولكن الأول مات فى عام ١١٢٤ والثانى فى عام ١١٢٣ على أقل تقدير، ومقارنة هذه التواريخ تدل على أنه من غير المحتمل أن يكون الثلاثة قد تعاصروا كطلاب علم،

ومعظم الدارسين المحدثين يرفضون هذه القصة المنمقة كخرافة من محض الخيال، ويقدم مؤرخون آخرون تفسيراً أكثر معقولية لرحيل حسن فيقولون إنه أزعج السلطات فى الرى واتهمته هذه السلطات بإيواء عملاء مصريين وبأنه مهيج خطير للخواطر، وليتفادى الاعتقال هرب من المدينة بادئاً سلسلة من الرحلات حملته أخيراً إلى مصر.

وطبقاً لشذرات قصة حياته بقلمه نعرف أنه غادر الرى فى عام ١٠٧٦ وذهب إلى أصفهان ومنها سافر شمالاً إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين حيث طرد من المدينة بواسطة القاضى لأنه ـ أى حسن ـ أصر على أن الإمام وحده له الحق فى تفسير الدين؛ نافياً بذلك سلطة علماء السنة، فواصل رحلته عبر العراق وسوريا حتى وصل إلى دمشق، وهناك علم أن الطريق البرى إلى مصر مغلق بسبب اضطرابات عسكرية فاتجه غرباً إلى الشاطئ وسافر جنوباً إلى بيروت ثم أبحر من فلسطين إلى مصر ووصل إلى القاهرة فى ٣٠ أغسطس عام ١٠٧٨، واستقبل بحفاوة فى البلاط الفاطمى.

مكث حسن الصباح فى مصر حوالى ثلاث سنوات قضى الشطر الأول منها فى القاهرة ثم فى الإسكندرية، وتقول بعض الأخبار إنه اختلف مع أمير الجيوش بدر الجمالى بسبب تأييده ـ أى حسن ـ لنزار، فأدخل السجن ثم طرد من البلاد، وإذا كان السبب الذى عزى إليه النزاع قد يكون إضافة لاحقة حيث إن النزاع على الخلافة الفاطمية لم يكن قد ثار بعد، إلا أن حدوث صدام بين الثورى المتطرف والديكتاتور العسكرى أبعد ما يكون عن عدم الاحتمال.

أبعد حسن الصباح من مصر إلى شمال إفريقيا ولكن السفينة الإفرنجية التى كان مسافراً بها تحطمت، وأنقذ، وحمل إلى سوريا، وهناك

سافر إلى حلب وبغداد ووصل إلى أصفهان فى ١٠ يونيو ١٠٨١ وراح خلال السنوات التسع التالية يسافر على اتساع فى بلاد الفرس ناشراً الدعوة الإسماعيلية، وهو يتحدث فى شذرة ترجمة حياته عن مثل هذه الرحلات فيقول: «ومن هناك (من أصفهان) سافرت إلى كرمان ويزد وباشرت الدعوة هناك بعض الوقت» ومن وسط إيران عاد إلى أصفهان ثم اتجه جنوباً ليقضى ثلاثة أشهر فى خوزستان وكان قد أمضى فيها بعض الوقت خلال عودته من مصر.

الدعوة فى أرض الديلم

أخذ حسن الصباح يركز انتباهه بدرجة متزايدة على أقصى الشمال الفارسى على أقاليم الخزر كجيلان ومازندران وبالتحديد على الهضبة المعروفة بإقليم الديلم. هذه الأقاليم ـ التى تقع شمال سلسلة الجبال التى تحيط بالهضبة الإيرانية الكبرى ـ تختلف فى تركيبها الجغرافى عن بقية البلاد، وكان يسكنها أناس شجعان محبون للقتال مستقلون، وكان الإيرانيون فى الهضبة الرئيسية ينظرون اليهم منذ زمن طويل كقوم غرباء عنهم وشديدى الخطر. وفى الأزمنة القديمة لم يستطع حكام إيران إخضاعهم على نحو فعال، وحتى العرب الغزاة وجدوا من الضرورى أن يقيموا قلاعاً على الحدود لصد هجماتهم، أما حكام إيران العرب فقد أحرزوا معهم تقدماً ضئيلاً، ويقال إنه عندما كان القائد العربى الحجاج يستعد لمهاجمة الديلم أعد خارطة للبلاد مبيناً عليها الجبال والوديان والممرات وأراها لوفد من الديلم طالباً منهم الاستسلام قبل أن يغزو بلادهم ويدمرها، فنظروا إلى الخارطة وقالوا له: «لقد أخبروك الخبر

الصحيح عن بلادنا، وهذه صورتها، ولكنهم لم يضعوا عليها المحاربين الذين يدافعون عن هذه الممرات والجبال، وسوف تعلم عنهم إذا حاولت». ومع مرور الزمن انتشر الإسلام فى الديلم بالتغلغل السلمى وليس بالفتح العسكرى.

كان الديلم من آخر الخاضعين للإسلام ومن أول من أكدوا ذاتيتهم فيه: سياسياً بقيام سلسلة من الأسر الحاكمة المستقلة، ودينياً باتخاذهم عقائد غير سلفية، ومنذ نهاية القرن الثامن عندما لجأ أعضاء من أهل بيت على الهاربين من الاضطهاد العباسى إلى الديلم ووجدوا التأييد لديهم أصبحت الديلم مركزاً للنشاط الشيعى، واستطاع الديلم أن يدافعوا عن استقلالهم بغيرة فائقة ضد خلفاء بغداد وغيرهم من الحكام السنة، وأثناء القرن العاشر وتحت حكم بنى بويه نجح الديلم فى فرض سيطرتهم على معظم بلاد الفرس والعراق، بل وأصبحوا لفترة أوصياء على خلفاء بغداد أنفسهم حتى وضع مقدم السلاجقة نهاية للحكم الديلمى والشيعى فى الإمبراطورية الإسلامية وبدأ يضغط بشدة على الديلم أنفسهم.

بين هؤلاء الأقوام الشماليين ـ ومعظمهم من الشيعة ومتأثرون فعلاً بالدعوة الإسماعيلية ـ ركز حسن الصباح جهده الأكبر، وكانت لدعوته النضالية جاذبية كبيرة بين سكان جبال الديلم ومازندران المتمردين والمحبين للقتال، وكان الصباح يتفادى المدن ويشق طريقه عبر الصحارى من خوزستان إلى شرق مازندران وأخيراً استقر فى دمغان حيث بقى ثلاث سنوات، ومن هذه القاعدة أخذ يرسل الدعاة للعمل بين سكان الجبال وكان يقوم بنفسه بالسفر بلا انقطاع لتوجيه دعاته ومساعدتهم على نشر الدعوة، وسرعان ما لفت نشاطه انتباه الوزير نظام الملك الذى

أمر السلطات فى الرى باعتقاله، ولكنها لم تنجح، وتحاشى حسن الرى وسافر بالطريق الجبلى إلى قزوين التى كانت أنسب قاعدة لحملته فى بلاد الديلم.

قلعة ألموت وأخواتها

لم يكن حسن الصباح ـ أثناء جولاته التى لا تكاد تنقطع ـ مشغولاً فحسب بكسب الأنصار لقضيته، وإنما كان مهتماً كذلك بأن يجد لنفسه قاعدة ما، لم يكن يريد أن يحصل على مخبأ سرى فى مدينة مما يجعله تحت خطر الاكتشاف والاقتحام المستمر وإنما كان يبحث عن معقل ناء منيع يستطيع بفضل حصانته أن يوجه حربه ضد إمبراطورية السلاجقة، ووقع اختياره أخيراً على قلعة «ألموت» Alamot وهى حصن مقام فوق طنف ضيق على قمة صخرة عالية فى قاب جبال البورج Al Borg ويسيطر على واد مغلق صالح للزراعة يبلغ طوله حوالى ثلاثين ميلاً وأقصى عرضه ثلاثة أميال والقلعة ترتفع أكثر من ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كما تعلو عدة مئات من الأقدام فوق قاعدة الصخرة، ولا يمكن الوصول اليها إلا عبر طريق ضيق شديد الانحدار كثير المنعطفات، أما التقدم نحو الصخرة فعن طريق الوادى الضيق لنهر «ألموت» الذى يشق مجراه بين منحدرات صخرية عمودية أو ناتئة بين حين وآخر.

وقد قيل إن هذه القلعة بناها أحد ملوك الديلم القدامى فبينما كان خارجاً للصيد ذات يوم أطلق نسراً مدرباً فاعتلى صخرة، وأدرك الملك القيمة الاستراتيجية للموقع وبنى عليه فوراً قلعة أسماها «ألوه أموت» ومعناها فى لسان أهل الديلم «تعليم النسر»، والبعض يترجم الاسم إلى

«عش النسر»، ولكن الترجمة الأولى هى الأرجح، وقد أعاد بناء القلعة حاكم علوى فى عام ٨٦٠م وفى وقت وصول حسن الصباح كانت القلعة فى يد علوى آخر يدعى مهدى كان قد منحها له السلطان السلجوقى.

وأعد حسن الصباح خطة محكمة للاستيلاء على قلعة «ألموت»، فقد استقر فى دمغان وأخذ يرسل الدعاة للعمل فى القرى المحيطة بالقلعة ثم ـ كما يقول فى شذرات ترجمة حياته ـ «ومن قزوين أرسلت الدعاة مرة أخرى إلى قلعة ألموت... وأمكن كسب بعض الرجال فى القلعة للعقيدة الإسماعيلية بواسطة الدعاة، وهؤلاء حاولوا تحويل العلوى صاحب القلعة نفسه، وتظاهر هو بأنهم كسبوه إلى جانبهم ولكنه بعد ذلك تحايل على إرسال جميع المتحولين إلى الخارج ثم أغلق أبواب القلعة وقال إنها تخص السلطان، وبعد مناقشات كثيرة سمح لهم بالدخول وبعد ذلك رفضوا أن ينفذوا أوامره بالخروج مرة أخرى».

وبعد أن نجح حسن الصباح فى زرع أنصاره داخل القلعة غادر قزوين إلى مشارف «ألموت» حيث مكث مختبئاً بعض الوقت إلى أن تمكن أنصاره من تهريبه سراً إلى داخل القلعة فى يوم الأربعاء الموافق ٤ سبتمبر ١٠٩٠م وظل فترة أخرى من الوقت متخفياً داخل القلعة، ولكن شخصيته لم تلبث أن أميط عنها اللثام فى الوقت المناسب، وتحقق المالك القديم للقلعة مما حدث ولكنه أسقط فى يده ولم يستطع أن يفعل شيئاً لوقف مجرى الأحداث أو تغييرها، وسمح له حسن بمغادرة القلعة، وأعطاه ـ طبقاً لقصة يوردها المؤرخون الفرس ـ مبلغاً قدره ٣٠٠٠ دينار ذهبى ثمناً للقلعة.

وبذلك أصبح حسن الصباح سيداً لقلعة «ألموت» ولم يغادرها مرة

واحدة منذ دخوله حتى وفاته بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاماً، كما لم يغادر البيت الذى يقيم فيه داخل القلعة سوى مرتين اثنتين. وفى هاتين المرتين صعد فقط إلى سطح البيت! ويقول رشيد الدين: «أما بقية الوقت حتى وفاته فقد أمضاه فى قراءة الكتب، وكتابة كلمات الدعوة، وإدارة شئون مملكته، وكان يحيا حياة متقشفة، معتدلة، تقية».

وفى البداية كان أمام حسن الصباح واجب مزدوج: أن يكسب مزيداً من الأنصار وأن يسيطر على المزيد من القلاع فصار يرسل المبشرين والأتباع من «ألموت» إلى مختلف الجهات لتحقيق هذين الغرضين، وكان هدفه الواضح أن يسيطر على الأراضى المجاورة لمقره مباشرة وهى منطقة تسمى رود بار Rod - bar أى حوض النهر نسبة إلى نهر شاه رود الذى يتدفق فى المنطقة. كانت الحياة فى تلك الوديان الجبلية النائية الخصبة تسير على النهج القديم غير متأثرة بالتغيرات التى تحدث فى الجنوب، ولم تكن هناك مدن حقيقية فى رودبار، ولم تكن ثمة سلطة عسكرية أو سياسية مستقرة فى مدينة ما بالمنطقة، بل كان الناس يعيشون فى قرى متناثرة ويدينون بالولاء لنبلاء محليين يقيمون فى القلاع، واستطاع الإسماعيليون أن يجدوا بين هؤلاء النبلاء والقرويين مؤيدين لهم. يقول جوينى: «لقد بذل حسن كل جهد ممكن للاستيلاء على الأماكن الملحقة بألموت أو المجاورة لها، وكان يفعل ذلك عن طريق كسب السكان بأحاديثه الدعائية إذا استطاع فإذا لم تنطل عليهم حيله أخذها بالمذابح والسلب والنهب وسفك الدماء والحرب، وبهذا استولى على ما استطاع الاستيلاء عليه من القلاع، وأينما وجد صخرة مناسبة كان يبنى فوقها قلعة له».

وقد حقق حسن الصباح نجاحاً مهمّاً بالاستيلاء على قلعة لاماسار

Lamasar بهجوم شنه عليها فى الفترة من ١٠٩٦ إلى ١١٠٢ وكان يقود المهاجمين كيا برزرجميد Kiya Burzurgumid الذى ظل قائداً للقلعة عشرين عاماً، وكانت القلعة تحتل مكاناً استراتيجياً فوق صخرة مستديرة تطل على شاه رود، وقد أتاحت هذه القلعة للإسماعيليين أن يدعموا قوتهم فى كل منطقة رود بار.

بعيداً إلى الجنوب الشرقى تقع بلاد كوهستان Quhistan الجبلية القاحلة، وهى تقع على الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان، ويعيش سكانها فى مجموعة من الواحات المتفرقة المنعزلة تحيطها من كل الجهات الصحراء المالحة الكبرى للهضبة الرئيسية. وقد كانت هذه المنطقة فى الأزمنة الإسلامية المبكرة أحد الملاجئ الأخيرة للزرادشتيين (المجوس) وعندما تحولت إلى الإسلام أصبحت معقلاً للشيعة وغيرهم من المنشقين الدينيين ثم للإسماعيليين، ففى عام ١٠٩١ ـ ١٠٩٢ أرسل حسن الصباح بعثة تبشيرية إلى كوهستان لتجنيد سكانها والحصول على تأييدهم للدعوة الاسماعيلية، ووقع اختياره لرئاسة البعثة على حسين القعينى وهو داع قدير قام بدور فى تحويل ألموت وكان هو نفسه من أصل كوهستانى، وقد أحرزت البعثة نجاحاً عاجلاً، فقد كان سكان كوهستان يتذمرون تحت الحكم السلجوقى، ويقال إن مشاعر الاستياء بلغت قمتها عندما حاول قائد سلجوقى مستبد أن يحصل على أخت أحد النبلاء المحليين الذى يتمتع باحترام بالغ بين قومه فانضم إلى صفوف الإسماعيليين، والواقع أن ما حدث فى كوهستان كان أكثر من مجرد تسلل سرى أو استيلاء على قلاع، وإنما أخذ ما يشبه شكل ثورة شعبية أو حركة استقلال من السيطرة العسكرية الأجنبية، فقد هب الإسماعيليون فى ثورات صريحة فى كثير من أنحاء الإقليم وفرضوا

سيطرتهم على عدة مدن رئيسية وهى شوشان وقعين وطبس وتون وأخريات، وهكذا نجحوا فى كوهستان الشرقية -كما نجحوا فى رودبار- فى إنشاء دولة إقليمية بالفعل.

كانت المناطق الجبلية ذات ميزة واضحة بالنسبة لاستراتيجية الإسماعيليين فى التوسع، وقد كانت هناك منطقة أخرى مماثلة تقع فى الجنوب الغربى من إيران فى المنطقة بين خوزستان وفارس، فهناك أيضاً توافرت الشروط اللازمة للنجاح: البلاد المنيعة والسكان القلقون الساخطون والتراث المحلى القوى الموالى للشيعة والإسماعيلية، وقد كان الزعيم الإسماعيلى فى هذه المنطقة يدعى أبو حمزة وهو إسكافى من عرجان Arrajan كان قد ذهب إلى مصر وعاد داعياً فاطمياً، واستولى على قلعتين تبعدان عدة أميال عن عرجان واستخدمهما كقاعدة لمزيد من النشاط.

العنف الإسماعيلى

فى الوقت الذى كان فيه بعض دعاة الإسماعيلية يحصلون على مراكز قوة لهم فى المناطق النائية ويدعمون أنفسهم فيها كان هناك آخرون يبثون دعايتهم الدينية فى المراكز الرئيسية داخل العالم السنى والسلجوقى، وهؤلاء هم الذين تسببوا فى سفك أول الدماء بين العملاء الاسماعيليين والسلطات السلجوقية. وقد وقع الحادث الأول من هذا القبيل فى مدينة صغيرة تسمى ساڤا Sava فى الهضبة الشمالية على مسافة ليست بالبعيدة من الرى وقم وربما يكون هذا الحادث قد وقع قبل الاستيلاء على قلعة «ألموت» والذى حدث أن مجموعة من ثمانية

عشر إسماعيلياً اعتقلوا بأمر آمر الشرطة لاشتراكهم معًا فى صلوات خاصة، وكان هذا هو لقاءهم الأول وقد سمح لهم بالانصراف بعد استجوابهم، ولكنهم حاولوا تجنيد مؤذن من ساڤا كان يعيش فى أصفهان، ولما رفض الرجل الاستجابة لندائهم خشوا أن يشى بهم للسلطات فقتلوه. ويقول المؤرخ العربى ابن الأثير إنه كان أول ضحية لهم وكانت دماؤه أول دماء سفكوها، وقد بلغت أنباء هذا الاغتيال إلى الوزير نظام الملك الذى أعطى أوامره الشخصية بإعدام زعيم الجماعة وهو نجار يدعى طاهر، وكان ابن واعظ تقلد عدة مناصب دينية ثم قتله بعض الرعاع فى كرمان بشبهة انه إسماعيلى، وقد أعدم طاهر وجعل عبرة وأمثولة وسحلت جثته فى ساحة السوق، يقول ابن الأثير إنه كان أول إسماعيلى يعدم.

فى عام ١٠٩٢ قام السلاجقة بأولى محاولاتهم لمواجهة الخطر الإسماعيلى بالقوة العسكرية، فأرسل السلطان ملكشاه ـ السيد الأعلى لجميع الأمراء والحكام السلاجقة ـ حملتين عسكريتين إحداهما ضد «ألموت» والأخرى ضد كوهستان، ولكن الحملتين أمكن صدهما، وقد صدت الحملة الأولى بمساعدة مؤيدى الإسماعيلية والمتعاطفين معهم من سكان رودبار وقزوين، ويورد المؤرخ الجوينى وصفاً إسماعيلياً لهذا الانتصار فيقول: «إن السلطان ملكشاه بعث فى بداية عام ٤٨٥ (١٠٩٢م) أميراً يدعى أرسلان تاش ليطرد حسن الصباح وأتباعه ويستأصل شأفتهم، ونزل هذا الأمير بعسكره أمام ألموت فى غرة جمادى من نفس السنة (يونيو ـ يوليو ١٠٩٢) فى ذلك الوقت لم يكن حسن الصباح لديه فى ألموت أكثر من ستين أو سبعين رجلاً، وكانت لديهم مؤن قليلة وقد عاشوا على القليل الذى لديهم والذى لا يكاد يكفيهم

واستمروا فى المعركة ضد محاصريهم. وفى ذلك الوقت كان أحد دعاة الحسن ويدعى ديدار بوعلى وكان قد جاء من زڤاره Zuvara وأردستان Ardistan واستقر فى قزوين واستطاع تحويل بعض سكان المنطقة، وكذلك كان يوجد فى إقليم طلقان Talqan وكوهى ـ بارا Kuh - i - Bara وإقليم الرى كثير من الناس يعتقدون فى الدعوة الصباحية وجميعهم كانوا يؤازرون الرجل المستقر فى قزوين. والآن طلب حسن الصباح مساعدة بوعلى فأرسل الأسلحة ومعدات الحرب من قزوين، وأقبل حوالى ٣٠٠ رجل لمساعدة حسن الصباح وألقوه بأنفسهم على «ألموت». وفى إحدى ليالى أواخر شهر شعبان من نفس السنة (سبتمبر ـ أكتوبر ١٠٩٢) قاموا بمساعدة حامية ألموت وتأييد بعض سكان رودبار الذين كانوا متحالفين معهم خارج القلعة بشن هجوم مفاجئ على جيش أرسلان تاش، وبتوفيق العناية الإلهية استطاعوا دحر الجيش فرحل عن «ألموت» وعاد إلى «ملكشاه»، ثم ارتفع الحصار عن المركز الإسماعيلى فى كوهستان عندما وصلت الأخبار بوفاة السلطان فى نوفمبر ١٠٩٢.

وفى تلك الأثناء أحرز الإسماعيليون أول نصر كبير لهم فى الفن الذى صار ينسب إليهم... فن الاغتيال، وكانت ضحيتهم المختارة الوزير نظام الملك نفسه الذى أدت جهوده فى «بذر بذور الشقاق ونشر جراثيم التعطيل بينهم» إلى جعله أخطر عدو لهم، وقد دبر حسن الصباح لهذه الجريمة بعناية. يقول المؤرخ رشيد الدين الذى كان ينقل ـ دون شك ـ عن مصادر إسماعيلية مع بعض التصرف «إن سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يصيد أول كل شىء هدفاً كبيراً كنظام الملك ويجعله يسقط فى شباك الهلاك والموت، وبهذا العمل ذاع صيته وعمت شهرته وأرسى أسس الفدائية، قال: من منكم يخلص هذه الدولة من

شرور نظام الملك الطوسى؟ فوضع رجل يسمى بوطالب أرانى يده على صدره علامة الموافقة... وفى ليلة الجمعة ١٢ رمضان من عام ٤٨٥ (١٦ ديسمبر ١٠٩٢) وفى منطقة ساهنا من إقليم نهاوند تقدم الرجل وهو متخفى فى ثياب الصوفيين إلى محفة نظام الملك الذى كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمه وطعنه بسكين، وبهذه الطعنة نال الرجل الشهادة، وبذلك كان نظام الملك أول من قتله الفدائيون وقال مولانا ـ عليه ما يستحق ـ إن قتل هذا الشيطان هو بداية البركة».

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة أدت ـ فى حرب رعب محسوبة ـ إلى إنزال الموت المفاجئ بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام، بل ورجال دين ممن أدانوا نظريات الإسماعيلية وأفتوا بقمع من يقول بها، إذ يقول أحد هؤلاء الخصوم الأتقياء: «إن قتلهم أحل من ماء المطر، ومن واجب السلاطين والملوك أن يهزموهم ويقتلوهم وينظفوا وجه الأرض من دنسهم، ولا يجوز الاتصال بهم أو تكوين صداقات معهم أو أكل لحم ذبح بواسطتهم، أو الدخول معهم فى زواج، إن سفك دم ملحد منهم أكبر جزاء من قتل سبعين من كفار الروم».

كان الحشاشون يبدون فى عيون ضحاياهم مجرمين متعصبين ضالعين فى مؤامرة شيطانية ضد الدين والمجتمع، أما رفاقهم الإسماعيليون فكانوا ينظرون إليهم باعتبارهم «قوة نخبة» فى الحرب ضد أعداء الإمام، وأنهم بقتلهم للطغاة والمغتصبين يعطون الدليل الناصع على إيمانهم وولائهم ويحصلون على البركة الخالدة العاجلة، وقد استخدم الإسماعيليون أنفسهم تعبير «الفدائى» لوصف القاتل منهم، وحفظ لنا الزمن قصيدة إسماعيلية ممتعة تمتدح شجاعتهم وإخلاصهم وتضحيتهم كما حفظت سجلات «ألموت» المحلية التى استشهد بها

رشيد الدين وكاشانى قائمة شرف للاغتيالات تسجل أسماء الضحايا وأسماء المؤمنين التقاة الذين قاموا باغتيالهم.

نظام الفرقة

كانت الحركة الإسماعيلية من حيث الشكل جمعية سرية لها نظامها الخاص وقسمها وشعائرها ولها درجات من الوظائف والمعرفة، وكانت أسرارها تحفظ جيداً فلا يعرف منها سوى شظايا متناثرة مضطربة، وقد كان مناظروهم التقليديون يصورون الإسماعيلية كعصابة من العدميين المضللين الذين يخدعون الأغرار عبر مراحل متعاقبة من الحط بعقلياتهم، وفى آخر تلك المراحل يكشفون لهم عن كفرهم الكامل المريع. أما الكتاب الإسماعيليون فقد كانوا ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار مقدسة وشعائر تقدمية لا يمكن للمؤمن بالعقيدة أن يطلع عليها إلا بعد برنامج طويل من الإعداد والإرشاد، وكان التعبير الشائع الذى يطلق على تنظيم الفرقة هو «الدعوة»، والقائمون بها هم «الدعاة» الذين يماثلون القسس المعينين، وفى المراحل الإسماعيلية المتأخرة انقسموا إلى مراتب عليا ودنيا مختلفة من المبشرين والمعلمين والمجازين، ويأتى تحتهم المستجيبون وهم الطبقة الدنيا من أعضاء الفرقة، وفوقهم يوجد الحجة (بالفارسية خوجا) وهو الداعية الأكبر. وكانت كلمة «الجزيرة» تستخدم لتدل على الاختصاص الإقليمى أو العرقى الذى يرأسه الداعى، وكان الإسماعيليون ـ كغيرهم من الفرق والطوائف الإسلامية ـ يسمون زعماءهم الدينيين بالشيوخ (بالفارسية بير) وكان الاسم الشائع لعضو الفرقة «الرفيق».

فى عام ١٠٩٤ واجهت الإسماعيلية أزمة كبرى، فقد مات الخليفة الفاطمى المستنصر، إمام العصر ورئيس العقيدة، فى القاهرة تاركاً خلفه نزاعاً على الوراثة، ورفض إسماعيلية فارس الاعتراف بخليفته على العرش المصرى وأعلنوا إيمانهم بأن الخليفة الشرعى هو ابنه الأكبر المطرود نزار، وإلى أن وقع هذا الانقسام كان التنظيم الإسماعيلى فى فارس ـ على الاقل من الناحية الشكلية ـ تحت السلطة العليا للإمام والداعى الأكبر فى القاهرة. وكان حسن الصباح مجرد عميل لرؤساء الفرقة فى مصر، أولا كنائب لعبد الملك بن عطاش ثم كخليفة له، أما الآن فقد حدث انقسام كامل، ومن ثم لم يعد الإسماعيليون فى فارس يتمتعون بحماية أسيادهم السابقين فى القاهرة أو يتحملون سيطرتهم.

وواجهت إسماعيلية فارس مشكلة عويصة هى شخصية الإمام، والإمام هو الشخصية المركزية فى كل النظام الدينى والسياسى للإسماعيليين، وقد اعتبروا نزارا هو الإمام الشرعى بعد المستنصر، ولكن نزارا قتل فى سجن بالإسكندرية وقيل إن أبناءه قتلوا معه، وادعى بعض النزارية أن نزاراً لم يمت حقيقة وإنما استتر وسيعود إلى الظهور باعتباره المهدى المنتظر، ومعنى هذا أن خط الأئمة قد انتهى. ولكن هذه المدرسة الفكرية لم تستمر طويلا، ولا نعرف ماذا كان يقوله حسن الصباح لأتباعه حول هذه النقطة بالذات، ولكن ظهرت بعد ذلك نظرية تقول إن الإمامة انتقلت إلى حفيد لنزار أحضر سراً إلى قلعة «ألموت»، وتقول إحدى الروايات أنه كان طفلا جرى تهريبه من مصر إلى فارس بينما تقول رواية أخرى إن محظية لابن نزار كانت حاملا منه وقد أخذت إلى «ألموت» حيث وضعت حملها وهو الإمام الجديد، وطبقاً للعقيدة النزارية ظلت هذه الأحداث فى طى الكتمان والسرية المطلقة فى ذلك الوقت، ولم تذع إلا بعد ذلك بسنوات طويلة.

توسع الإسماعيلية

غير أن غياب الإمام الظاهر والتعديلات التى كان من الضرورى إجراؤها بعد الانشقاق عن القاهرة لم يبد أنها أوقفت أو عاقت نشاط الإسماعيليين فى فارس بل على العكس فقد استغل الإسماعيليون الخلل المؤقت الذى أصاب الدولة السلجوقية خلال السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر والسنوات الأولى من القرن الثانى عشر وقاموا بمد نشاطهم إلى مناطق جديدة.

فخلال هذه الفترة تمكن الإسماعيليون من السيطرة على قلعة بشرق البورج فى عام ١٠٩٦ وكان هذا العمل بمثابة امتداد لجهودهم السابقة فى هذا المضمار، فقد أرسل حسن الدعاة من ألموت إلى مناطق دمغان التى عمل فيها بعض الوقت قبل ذهابه إلى بلاد الديلم، وهناك حصلوا على مساعدات قيمة من حاكم دمغان، وهو ضابط يدعى مظفر كان قد تحول سراً إلى العقيدة الإسماعيلية على يد عبد الملك بن عطاش، وكانت هناك قلعة فى جنوب دمغان تسمى قلعة غير دكوه وهى عظيمة القيمة لأغراض الفرقة نظراً لقوتها وموقعها، وشمر مظفر عن ساعديه ليحصل لهم عليها وكان حينئذ لايزال يتظاهر بالولاء للسلاجقة فحرض الأمير السلجوقى الذى كان بمثابة رئيسه على أن يطلب قلعة غيردكوه من السلطان ويعينه قائداً لها، ووافق على ذلك الأمير والسلطان، وبذا استولى مظفر على غيردكوه واستطاع بسلطة الأمير -وربما على نفقته أيضاً- أن يرمم ويحصن القلعة ويملأها بالمؤن والكنوز، وعندما تمت ترتيباته جميعاً أعلن عن حقيقة نفسه باعتباره إسماعيلياً من أتباع حسن الصباح، وظل يحكم القلعة لمدة ٤٠ سنة،

وكانت قلعة غيردكوه تطل على الطريق الرئيسى بين خراسان وغرب إيران وتقع فى نفس الوقت بالقرب من المراكز الإسماعيلية بشرق مازندران مما جعلها عظيمة القيمة من حيث تدعيم المركز الاستراتيجى للقوة الإسماعيلية المتصاعدة.

وفى الوقت نفسه تقريباً قاموا بضربة أكثر جسارة باستيلائهم على قلعة تدعى شاه ديز تقع على تل بالقرب من المدينة الكبيرة أصفهان مقر السلطان السلجوقى، وكان المبشرون الإسماعيليون يعملون فى هذه المدينة منذ فترة طويلة بل إن عبد الملك بن عطاش كان يقيم فيها ولكنه هرب منها عندما اتهم بالتشيع، وحصل الإسماعيليون على فرصة جديدة فى أصفهان نتيجة للصراع بين السلطان الجديد بركيارق Berkyaruq وإخوته غير الأشقاء وزوجة أبيه، وفرض الإسماعيليون حكما من الرعب فى أصفهان لم ينته إلا عندما هبت الجماهير بالثورة ضدهم وأشبعتهم تقتيلا، وقد تكررت مثل هذه الهبات الشعبية ضد الإسماعيلية فى مدن فارسية أخرى.

وقد استطاع أحمد -ابن عبد الملك بن عطاش- القيام ببداية جديدة فى أصفهان، وكان أحمد قد سمح له بالبقاء فى المدينة عندما هرب أبوه منها اعتقاداً من السلطات أنه لا يشارك أباه آراءه الدينية، ولكنه كان فى حقيقة الأمر يعمل سراً لنصرة القضية الإسماعيلية، ويقول مؤرخ فارسى إنه تمكن من الحصول على عمل كمدرس لأبناء الجند فى حامية شاه ديز وهم أساساً من المرتزقة الديلميين، وبهذه الوسيلة استطاع أن يفوز بالحظوة لديهم ويكسبهم إلى العقيدة الإسماعيلية، وبهذا سيطر على القلعة، وتقول رواية أخرى أكثر واقعية إنه استطاع ببساطة أن يكسب ثقة القائد ويصبح ساعده الأيمن ثم خلفه بعد وفاته.

وبعد ذلك بقليل كسب الإسماعيليون حصناً آخر بالقرب من أصفهان يسمى حصن خالنكان، وليس واضحاً ما إذا كان ذلك نتيجة استيلاء أم تنازل، وتقول حكاية من ذلك النوع الذى أغرم المؤرخون بقصه عن الإسماعيلية إن نجاراً إسماعيلياً عقد صداقة مع قائد الحصن وأقام وليمة شرب فيها جميع جنود الحصن حتى ثملوا تماماً فقام الإسماعيليون بالاستيلاء على الحصن.

كان السلطان بركيارق الذى خلف ملكشاه فى عام ١٠٩٢ مشغولاً تماماً بالصراع ضد أخيه غير الشقيق محمد تابار الذى كان يؤيده أخوه الشقيق سانجار، وعلى أحسن الأحوال لم يكن لدى السلطان بركيارق سوى أدنى الاهتمام وأقل الجنود الممكن ادخارهم لمواجهة الإسماعيليين، وعلى أسوئها كان هو أو بعض قواده على استعداد للسماح بالعمليات الإسماعيلية ضد أعدائه، أو حتى ربما ـ فى بعض الحالات ـ على استعداد لأن يطلب مساعدتهم سراً، وهكذا كان ممثلو بركيارق فى خراسان يحصلون على تأييد الإسماعيليين فى كوهستان ضد الجناح المنافس. ونجد فى قائمة الشرف التى تحوى اغتيالات الحشاشين التى عثر عليها بقلعة ألموت حوالى ٥٠ حالة أثناء حكم حسن الصباح تبدأ بالوزير نظام الملك وأكثر من نصف هؤلاء الضحايا ينتمون إلى هذه الفترة وبعضهم من أنصار محمد تابار وخصوم بركيارق.

فى صيف ١١٠٠م أوقع بركيارق الهزيمة بمنافسه محمد تابار الذى انسحب إلى خراسان، وفى أعقاب هذا النصر أصبح الإسماعيليون أكثر جسارة وثقة بالذات بل وتمكنوا من التغلغل فى بلاط بركيارق وجيشه وحصلوا على تأييد الكثيرين من الأجناد وهددوا من يعارضهم بالاغتيال. يقول المؤرخ العربى ابن الأثير: «إن أى قائد أو ضابط لم يكن يجرؤ أن

يترك بيته دون حماية وكانوا يرتدون الدروع تحت ملابسهم، وحتى الوزير أبو الحسن كان يرتدى قميصاً من الزرد تحت ثيابه، وطلب كبار الضباط من السلطان بركيارق أن يسمح لهم بالظهور أمامه مسلحين خوفاً من أن يتعرضوا للهجوم فمنحهم الإذن بذلك».

ولكن بركيارق اضطر فى النهاية أن يتخذ إجراء ضد الإسماعيليين لتعاظم خطرهم ووقاحتهم وتزايد السخط بين مؤيدى السلطان بسبب لينه معهم وتسامحه إزاءهم، ويبدو أنه توصل فى عام ١١٠١ إلى اتفاق مع سانجار الذى كان لايزال يحكم خراسان على اتخاذ إجراء مشترك ضد ذلك العدو الذى يهددهما كليهما، وأرسل سانجار حملة كبيرة مسلحة جيداً ويقودها كبير أمرائه ضد المناطق الإسماعيلية فى كوهستان وخربت الحملة المنطقة ثم ألقت الحصار على طيس معقل الإسماعيليين الرئيسى، وتمكن جنود سانجار باستخدام المجانيق من تدمير أغلب جدران القلعة وكانوا على وشك الاستيلاء عليها ولكن الإسماعيليين رشوا الأمير ليرفع الحصار ويذهب إلى حال سبيله، وعندئذ استطاعوا إصلاح قلعة طيس وإعادة تحصينها وتقويتها استعدادا لمواجهة الهجوم التالى. وقد جاء هذا الهجوم بعد ثلاث سنوات عندما قاد الأمير جيشا جديداً إلى كوهستان وكان يضم ـ بالإضافة إلى جنوده النظاميين ـ عدداً من المتطوعين، وقد نجحت الحملة هذه المرة ولكنها للغرابة لم تكن حاسمة، لقد تمكنت قوات السلاجقة من هزيمة وتدمير طيس وغيرها من القلاع الإسماعيلية وسلب ونهب المستوطنات الإسماعيلية وأخذ بعض سكانها أرقاء، ثم انسحبوا بعد الحصول على وعد من الإسماعيليين بأنهم «لن يعيدوا بناء القلعة أو يشتروا أسلحة أو يدعوا أحدا إلى عقيدتهم» على حد تعبير ابن الأثير، وقد اعتبر الكثيرون هذه الشروط لينة جداً وانتقدوا

سانجار لقبولها، والمؤكد ـ على أى حال ـ أنه لم يمض وقت طويل حتى تمكن الإسماعيليون من تقوية أنفسهم فى كوهستان مرة أخرى.

ولم يبذل بركيارق جهداً حقيقياً لمهاجمة مراكز السلطة الإسماعيلية فى غرب فارس والعراق، وبدلا من ذلك حاول تهدئة غضب قواته وجماهيره بأن سمح ـ أو شجع ـ بإعداد مذبحة للمتعاطفين مع الإسماعيلية فى أصفهان، وهكذا اشترك الجند والمواطنون فى تصيد المشبوهين الذين كان يحاط بهم ويؤخذون إلى الميدان الكبير حيث يقتلون، وكان مجرد الاتهام البسيط كافياً للانتقام، يقول ابن الأثير إن كثيرين من الأبرياء فقدوا حياتهم فى ذلك اليوم نتيجة لأعمال الانتقام، ومن أصفهان امتدت الإجراءات ضد الإسماعيليين إلى العراق حيث قتلوا فى معسكر ببغداد وأحرقت كتبهم، وكان أحد الإسماعيليين البارزين ـ ويدعى أبو ابراهيم أسدبادى ـ قد أرسله السلطان نفسه فى مهمة رسمية إلى بغداد، فأرسل السلطان أوامره بالقبض عليه، وعندما جاء سجانوه لقتله، قال لهم أسد بادى: «حسناً، إنكم ستقتلوننى ولكن هل يمكنكم قتل هؤلاء الذين فى القلاع؟».

كانت سخرية أسدبادى فى محلها، لقد أصيب الاسماعيليون بنكسة ولم يعد فى إمكانهم الاعتماد على إذعان بركيارق لهم، وظل الفدائيون لفترة عاجزين نسبياً ولكن قلاعهم ظلت منيعة، وإرهابهم ـ وإن قل ـ لم ينته، فبين عامى ١١٠١ و١١٠٣ تسجل «قائمة الشرف» اغتيال مفتى أصفهان فى الجامع القديم بتلك المدينة، ووالى بيهق، ورئيس الكرمية Karramiyya وهى جماعة دينية متشددة ضد الإسماعيليين وقد لقى مصرعه فى جامع نيسابور أيضاً، وإذا كان اغتيال القادة والمسئولين السلاجقة قد بدا صعباً نسبياً فى ذلك الوقت فقد ظلت

المهمة الآن هى عقاب الشخصيات الدينية والمدنية التى تجرؤ على معارضة الإسماعيليين، وقد كان خلال هذه السنوات أن اتخذ حاكم ألموت خطوة أخرى مهمة هى إرسال مبعوثيه إلى سوريا.

إن الخطر الإسماعيلى على الإمبراطورية السلجوقية قد أمكن احتواؤه لا تدميره. وبعد وفاة بركيارق فى ١١٠٥ بذل خليفته محمد تابار جهداً حازماً جديداً للتغلب عليهم، يقول ابن الأثير: «عندما أصبحت السلطنة فى يدى محمد ولم يعد هناك خصم ينازعه لم يكن ثمة ما يشغل باله أكثر من الإحاطة بالإسماعيليين وقتالهم والانتقام للمسلمين من ظلمهم وسوء فعالهم، وقرر أن يبدأ بقلعة أصفهان التى كانت فى أيديهم لأنها كانت أكثر إيذاء وهيمنة على حاضرته؛ لذا فقد قاد جيشه بنفسه ضدهم وألقى عليهم الحصار فى ٦ شعبان عام ٥٠٠ هـ (٢ أبريل ١١٠٧).

وقد تأخر حصار القلعة وسقوطها نتيجة لسلسلة من الخدع والمناورات دبرها الإسماعيليون وأصدقاؤهم، فمنذ البداية تأجل رحيل الحملة خمسة أسابيع بسبب أنباء كاذبة عن وجود مخاطر فى كل مكان بثها المتعاطفون مع الإسماعيليين فى معسكر السلطان. وعندما وجد الزعيم الإسماعيلى المحلى أحمد بن عطاش نفسه فى مأزق استطاع أن يحصل على فرصة لالتقاط الأنفاس بإثارته خصومة دينية إذ بعث إلى السلطان برسالة ادعى فيها أن الإسماعيليين مسلمون جيدون يؤمنون بالله ورسوله ويتبعون الشريعة وأنهم يختلفون عن السنة فيما يتعلق بالإمامة فحسب، ولذا فإن من الأجدر بالسلطان أن يمنحهم هدنة وشروطاً ويقبل ولاءهم. وقد أشعل الخطاب مناقشة دينية بين المهاجمين والمدافعين، وبين مختلف مدارس الفكر فى معسكر المهاجمين، فقد مال عدد كبير من المستشارين الدينيين للسلطان إلى قبول الحجة

الإسماعيلية، ولكن قلة منهم اتخذوا موقفاً متشدداً، وقال أحدهم: «لندعهم يردون على هذا السؤال: اذا أحل لكم إمامكم ما تنهى عنه الشريعة أو حرم عليكم ما تحله الشريعة فهل تطيعونه؟ فإذا أجابوا بنعم فإن دماءهم تحل» وبفضل تصميم هؤلاء المتشددين انتهت المناقشة إلى لا شيء واستمر الحصار.

بعد ذلك، جرب الإسماعيليون تغيير سياستهم فاقترحوا حلاً وسطاً هو أن يسلموا قلعة شاه ديز فى مقابل إعطائهم قلعة أخرى مجاورة «من أجل حماية أرواحهم وممتلكاتهم من العامة» وامتدت المفاوضات بينما كان وزير السلطان يشرف بنفسه على إمداد القلعة بالمؤن الغذائية، ولكن هذه المرحلة انتهت عندما أصاب أحد الحشاشين الإسماعيليين أحد أمراء السلطان ولكنه فشل فى قتله، وكان هذا الأمير من أشد خصوم الإسماعيلية، عندئذ واصل السلطان الحصار مرة أخرى وأصبح الأمل الوحيد لدى المدافعين عن القلعة أن يفاوضوا على شروط التسليم.

ولم يمض وقت طويل حتى تم الاتفاق على الشروط فسمح لجزء من الحامية الإسماعيلية بمغادرة القلعة تحت حماية السلطان والذهاب إلى المراكز الإسماعيلية فى طبس وعرجان المجاورة وأن يتحرك الباقون إلى أحد أجنحة القلعة ويخلوا بقيتها للسلطان، وعندما ترد الأنباء بوصول المنصرفين إلى زملائهم بسلام على الباقين النزول من القلعة والسماح لهم بمغادرتها إلى «ألموت». ولكن عندما جاءت الأنباء فى حينها بوصول المغادرين إلى وجهتهم رفض أحمد بن عطاش أن ينفذ ما يفرضه عليه الاتفاق، وكان قد انتهز فرصة المهلة وقام بتدعيم أسلحته ورجاله وهم حوالى ثمانين رجلاً فى الجناح المتبقى من القلعة، واستعد للقتال حتى الموت، ولم يغلبوا إلا بفضل أحد الخونة الذى أبلغ معسكر

السلطان بأن أحد أسوار الجناح غير محمى وأن ما يبدو بأعلاه مجرد أسلحة ودروع صنعت فى هيئة رجال وما هى برجال، فهاجم عساكر السلطان من ناحية ذلك السور، وفى الهجوم الأخير تم قتل جميع المدافعين وألقت زوجة ابن عطاش بنفسها من فوق أسوار القلعة بعد أن تزينت بحليها وجواهرها فقتلت فى الحال، وأسر ابن عطاش وعرض فى موكب طاف شوارع أصفهان، ثم سلخ حياً وحشى جلده بالتبن وأرسل رأسه إلى بغداد.

وأصدر السلطان بياناً للاحتفال بهذا النصر كتب بأسلوب طنان رنان بعض الشيء ولكنه يعطى فكرة عن وجهة نظر السلاجقة فى عدوهم الذى تغلبوا عليه، جاء فيه: «فى قلعة شاه ديز.. باض الزيف وأفرخ.. هناك كان ابن عطاش الذى طار منه صوابه فى طريق الخطأ وضل، والذى قال لرجاله إن الصراط المستقيم طريق زائف، وجعل مرشداً له كتاباً مليئاً بالأكاذيب، وأباح سفك دماء المسلمين والاستيلاء على ممتلكاتهم.. وحتى إذا لم يكونوا قد فعلوا أكثر مما فعلوه عندما جاءوا أول الأمر إلى أصفهان حين اتبعوا أساليب الخيانة وأوقعوا فرائسهم فى حبالهم بالغدر والخديعة، وقتلوهم بوسائل التعذيب المريعة والموت الفظيع، وما قاموا به من اغتيالات عديدة بدأت بنبلاء البلاط ونخبة العلماء، وما سفكوه من دماء زكية لا تعد ولا تحصى، وغير ذلك من الجرائم البشعة فى حق الإسلام... إن لم يكن قد فعلوا أكثر من ذلك فقد كان من واجبنا أن نحارب دفاعاً عن الدين وأن نركب السهل والصعب فى حربنا المقدسة ضدهم حتى حدود الصين».

وبالطبع فإن ذكر الصين هنا ليس أكثر من بلاغة لغوية واستعارة من حديث شهير للنبى ﷺ، ولكن هجوم السلطان على الإسماعيليين امتد

إلى أقصى الجانبين الشرقى والغربى للإمبراطورية السلجوقية، وقد فشلت حملة أرسلت ضد الإسماعيليين فى تكريت بالعراق، وكان الإسماعيليون قد سيطروا عليها لمدة اثنى عشر عاماً، ولكن الحملة أرغمت القائد الإسماعيلى على تسليمها إلى الشيعة العرب المحليين، وفى الشرق تحمس سانجار لاتخاذ إجراء ضد القواعد الإسماعيلية فى كوهستان، ولكن نتائجه غير واضحة، وفى هذا الوقت نفسه تقريباً أو بعده بقليل سقطت قواعد الإسماعيليين القوية بالقرب من عرجان ولم نعد نسمع الكثير عن تلك القواعد فى منطقة خوزستان وفارس.

ولكن المركز الرئيسى للقوة الإسماعيلية لم يكن فى واحد من هذه الأمكنة بل كان فى الشمال، فى قلاع رودبار وغيردكوه وبخاصة قلعة ألموت العظيمة مقر حسن الصباح. وفى عام ١١٠٧ ـ ١١٠٨ أرسل السلطان حملة عسكرية إلى رودبار تحت قيادة وزيره أحمد بن نظام الملك وقد كان للوزير أسبابه القوية لكراهية الإسماعيليين فإن أباه الوزير الشهيد نظام الملك كان أول ضحاياهم البارزين، كما أن أخاه فخر الملك سقط تحت خنجر أحد الحشاشين فى نيسابور فى العام السابق.

وقد أحرزت الحملة بعض النجاح وأحدثت متاعب كبيرة للاسماعيليين ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو الاستيلاء على ألموت أو تدميرها. يقول المؤرخ الجوينى: «إنه (أحمد بن نظام الملك) حاصر ألموت وأوستفاند Usta Vand التى تجاورها على ضفاف نهر أنديج Andij وشنوا الحرب بعض الوقت ودمروا المحاصيل، ولما لم يستطيعوا تحقيق أكثر من ذلك انسحب الجيش من رودبار. وفى القلاع كانت هناك مجاعة كبيرة وعاش الناس على أكل الحشائش، ولهذا السبب فقد نقلوا زوجاتهم وأبناءهم إلى أماكن أخرى وأرسل (حسن الصباح) أيضاً زوجته وبناته إلى غيردكوه».

ولم يكتف السلطان تابار بإرسال قواته النظامية ضد القواعد الإسماعيلية وإنما حاول أيضاً أن يثير جيران الإسماعيليين ضدهم وأقنع أحد الحكام المحليين فى جيلان بأن ينضم إلى الهجوم ولكن دون جدوى، فقد سحب الحاكم المحلى فيما بعد تأييده زاعماً أن غطرسة السلطان قد آذته. ويصور الجوينى حيرة الحكام المحليين فى الديلم بين جيرانهم المفزعين القريبين من ناحية وبين أسيادهم الأقوياء البعيدين تصويراً حياً فيقول: «حول هذه المسألة كان الحكام المحليون القريبون والبعيدون معرضين للخطر سواء من أصدقائهم أو أعدائهم، وكانوا معرضين للوقوع فى دوامة الخراب، فقد كانوا بين شقى الرحى سواء من أصدقائهم وهم ملوك الإسلام وفى إمكانهم أن يخضعوهم ويدمروهم فيكونون بذلك قد خسروا الدنيا والآخرة أو من أعدائهم الإسماعيليين خوفاً من خداعهم وخيانتهم ولذا كانوا يلوذون بكهف الدفاع والاحتياط ورغم ذلك فقد قتل معظمهم».

لقد اتضح أن الاستيلاء على «ألموت» بالهجوم المباشر مستحيل، ولذا فقد حاول السلطان طريقة أخرى هى حرب الاستنزاف التى كان يرجو عن طريقها أن يضعف الإسماعيليين إلى حد لا يستطيعون معه الصمود للهجوم. يقول الجوينى: «لثمانى سنوات متوالية كانت القوات تأتى إلى رودبار وتدمر المحاصيل ويشترك الجانبان فى القتال، وعندما أصبح معروفاً أن حسن ورجاله لم تعد لديهم قوة أو طعام عين السلطان محمد (تابار) فى بداية عام ٥١١هـ (١١١٧ ـ ١١١٨م) الأتابك نوشتجين شيرجير قائداً للقوات وأمره بمحاصرة القلاع من الآن فصاعداً، وفى غرة صفر (٤ يونيو ١١١٧) حاصر العسكر لاماسار، وفى ١١ ربيع أول (١٣ يوليو) حاصروا «ألموت»، وأقاموا المجانيق وحاصروا بسالة، وما إن هلّ شهر ذى الحجة من تلك السنة (مارس ـ أبريل

١١١٨) حتى كانوا قد أوشكوا على الاستيلاء على القلاع وتخليص البشرية من كيدهم، ولكن وصلت الأنباء بوفاة السلطان محمد فى أصفهان فتفرق الجند وتركوا الملاحدة أحياء فأخذوا إلى قلاعهم كل المؤن والأسلحة ومعدات الحرب التى خلفها جيش السلطان وراءه».

كان انسحاب جيش شيرجير وهو على وشك الانتصار سبباً لخيبة الأمل الشديدة، وهناك ما يدل على أن أنباء وفاة السلطان لم تكن وحدها السبب فى هذا الانسحاب المتعجل، إذ ثمة دور شرير لعبة رجل يدعى قوام الدين نصير بن على الدرجازينى، وكان وزيراً فى خدمة السلاجقة ويقال إنه كان إسماعيلياً فى السر. هذا الرجل كان له تأثير كبير على السلطان الجديد محمود ابن السلطان المتوفى محمد وخليفته فى أصفهان، فقد لعب الدرجازينى دوراً له أهمية فى البلاط السلطانى، ويقال إنه هو الذى دبر انسحاب جيش شيرجير من «ألموت» وبذلك أنقذ الإسماعيليين فى آخر لحظة، كما أنه سمم ذهن السلطان الجديد محمود ضد شيرجير فألقى به فى السجن وقتله، وقد اتهم الدرجازينى بعد ذلك بالتآمر فى عدة اغتيالات أخرى مما يجعل أصابع الشك تتجه إلى أنه لعب دوراً فى وفاة السلطان محمد المفاجئة.

ولكن الحشاشين حتى أثناء حصار شيرجير لقلعتهم لم يكونوا خاملين، ففى عام ١١٠٨ ـ ١١٠٩م قتلوا عبيد الله الخطيب قاضى أصفهان وكان خصماً لدوداً لهم، ويقال إن هذا القاضى كان يشعر بما يتعرض له من الخطر فكان يرتدى دروعاً واقية تحت ملابسه، كما جعل لنفسه حارساً خاصاً يتبعه أينما ذهب واتخذ كل الاحتياطات الممكنة الأخرى، ولكن كل ذلك لم تكن له جدوى، فأثناء أدائه صلاة الجمعة بمسجد همدان استطاع أحد الفدائيين من الحشاشين أن ينفذ بينه وبين

حارسه ويرديه قتيلاً. وفى السنة نفسها اغتيل قاضى نيسابور أثناء الاحتفال بنهاية شهر رمضان، وفى بغداد هاجم أحد الحشاشين أحمد بن نظام الملك انتقاماً منه دون شك للحملة التى قادها ضد «ألموت»، وأصيب الوزير ولكنه نجا، وكان هناك ضحايا آخرون كذلك، منهم رجال دين سنيون وقضاة وشخصيات كبيرة مثل الأمير الكردى أحمديل أخ السلطان فى الرضاع.

أعقبت وفاة السلطان محمود فى عام ١١١٨ مرحلة أخرى من المنازعات الداخلية بين السلاجقة، استطاع الحشاشون استغلالها ليجددوا قواهم بعد الضربات التى منوا بها وأن يستعيدوا مركزهم فى كوهستان والشمال على السواء، وفى تلك الفترة تمكن سانجار ـ الذى كان يسيطر على الأقاليم الشرقية فى عهد أخويه بركيارق ومحمد تابار ـ أن يصنع لنفسه أولوية غير وطيدة بين الحكام السلاجقة، وفى هذه الفترة بدأت تتغير طبيعة العلاقات بين الإسماعيليين والدول السنية وتميل إلى المهادنة والتسامح، والواقع أن الحركة الاسماعيلية لم تنبذ أهدافها النهائية ولكن الاسماعيليين خففوا من حملة التخريب والإرهاب التى يقومون بها فى البلاد الرئيسية وركزوا بدلاً من ذلك على حماية الأقاليم التى يسيطرون عليها وتدعيمها، بل وحصلوا على قدر من الاعتراف السياسى بهم من الولايات والدول السنية، وعندما عاد التمزق يعمل فى جنبات الشرق الأوسط بعد مرحلة الانتصارات السلجوقية العظيمة المؤقتة ظهرت الولايات والإمارات الإسماعيلية فى شكل دول مستقلة صغيرة بل وشاركت فى التحالفات والمنافسات المحلية.

يحكى المؤرخ الجوينى قصة تفسر تسامح سانجار إزاء استقلال الإسماعيليين فيقول: «كان حسن الصباح يرسل السفارات فى طلب

السلام فلا يجيبه أحد، ولذا فإنه بشتى طرق الخداع والإغراء استطاع أن يرشو بعض رجال البلاط للدفاع عنه أمام السلطان، وحرض أحد طواشى السلطان بمبلغ كبير من المال، وأرسل اليه خنجراً قام الطواشى برشقه فى الأرض إلى جانب سرير السلطان بعد أن أوى ذات ليلة إلى فراشه وهو مخمور، وعندما استفاق السلطان فى الصباح ورأى الخنجر ملأه الذعر، ولكنه أمر بإبقاء الأمر سراً لأنه لم يكن يعرف من يتهمه بذلك، وبعد ذلك أرسل له حسن الصباح رسولاً يحمل الرسالة التالية: «ألا ترى أننى أردت بالسلطان خيرا إذ إن هذا الخنجر الذى غرس فى الأرض الصلبة لم يغرس فى صدره الطرى؟» فخاف السلطان، ومنذ ذلك الحين مال للسلام معهم، وباختصار امتنع السلطان بسبب هذه الحيلة عن مهاجمتهم مما أدى إلى ازدهار أحوالهم فى عهده، فسمح لهم بمنحة مقدارها ٣٠٠٠ دينار من الضرائب التى تحصل عن الأراضى التابعة لهم فى إقليم قميش Qumish كما سمح لهم بفرض رسم صغير على المسافرين الذين يمرون تحت قلعة غيردكوه وهى عادة مستمرة حتى هذا اليوم، وقد اطلعت على عدة فرمانات للسلطان فى خزانة كتبهم وفيها يخطب السلطان ودهم ويثنى عليهم، ومن ذلك استطعت أن أستنتج إلى أى مدى كان السلطان يتغاضى عن أفعالهم ويرغب فى أن يكون على علاقة سليمة معهم، وباختصار فإنهم تمتعوا خلال حكمه بالهدوء والسلام».

العلاقات مع القاهرة

كان للنزاريين فى «ألموت» عدو آخر إلى جانب الخلفاء العباسيين

والسلاجقة، ففى القاهرة كان الخليفة الفاطمى هو عدوهم الآخر، وبين أنصاره ونزاريى فارس ذلك العداء التقليدى الخاص الذى يقوم بين الفروع المتنافسة فى العقيدة نفسها، وفى عام ١١٢١ اغتيل فى القاهرةالوزير المهيب وقائد الجيوش الأفضل وانتشرت الشائعات تتهم الحشاشين بأنهم وراء الجريمة دون شك، ولكن المؤرخ الدمشقى المعاصر ابن القلانسى يصف هذا الاتهام بأنه «تظاهر فارغ وافتراء واهٍ» ويقول إن السبب الحقيقى لاغتياله وجود سخيمة بينه وبين الخليفة الفاطمى «الأمير» الذى خلف المستعلى فى عام ١١٠١ فقد كان الخليفة «الأمير» ينفر من وصاية وزيره القوى، ولذا فقد أعرب عن ابتهاجه علناً عند وفاته. أما الرواية الإسماعيلية التى يقصها رشيد الدين وكاشانى فتنسب اغتيال الأفضل إلى «ثلاثة رفاق من حلب» وعندما جاءت الأنباء بوفاته «أمر سيدنا بإقامة الاحتفالات سبعة أيام بلياليها وكرم الرفاق واحتفى بهم».

ويبدو أن إزاحة الأفضل التى أحدثت مثل هذا الحبور فى قلعة «ألموت» وقصر الخليفة الفاطمى بالقاهرة على السواء كانت مناسبة طيبة لمحاولة التقارب بين الفرعين الإسماعيليين، ففى عام ١١٢٢م عقد اجتماع عام فى القاهرة خصص لإبراز حق المستعلى ضد نزار، وفى الوقت نفسه تقريباً دافع الخليفة عن شرعيته فى الخلافة فى رسالة رعوية موجهة بصفة أساسية إلى الإخوة المنشقين، وأمر الوزير الجديد فى القاهرة ـ ويدعى المأمور ـ كاتم أسرار الدولة أن يكتب رسالة مطولة إلى حسن الصباح يحثه فيها على العودة إلى الحق ونبذ اعتقاده فى إمامة نزار، وكان الوزير المأمون يعبر بذلك عن رغبات الخليفة ودعاته أكثر مما يعبر عن آرائه الشخصية إذ إنه كان اثنى عشرياً وليس إسماعيلياً أصلاً،

وبالطبع لم تكن لدى الوزير أية نية فى دفع تعامله مع حسن الصباح أبعد من ذلك. ولم تلبث أن اكتشفت مؤامرة موجهة وممولة من «ألموت» تستهدف اغتيال الأمير والمأمون وأعقب ذلك اتخاذ تدابير أمن مشددة عند الحدود المصرية وفى داخل القاهرة لمنع تسلل عملاء الحشاشين.

يقول المؤرخ المصرى ابن ميسر: «عندما جاء المأمون إلى الحكم أبلغوه بأن ابن الصباح (حسن الصباح) والباطنية ابتهجوا لوفاة الأفضل وامتد أملهم إلى اغتيال الأمير والمأمون نفسه، وانهم أرسلوا بذلك رسائل إلى رفاقهم المقيمين فى القاهرة كما بعثوا إليهم مالاً يوزعونه بين أنفسهم، فجاء المأمون إلى والى عسقلان وعزله وعين آخر محله وأمر الوالى الجديد بأن يستعرض جميع أصحاب المناصب فى عسقلان والتفتيش عليهم وأن يبعد كل من ليس معروفاً للسكان المحليين، وأمره بأن يفحص بدقة كل التجار وغيرهم من الأشخاص الذين يصلون إلى المدينة ولا يصدق ما يقولونه بأنفسهم عن أسمائهم وألقابهم وبلادهم.. بل يستجوب كل واحد منهم عن زملائه الآخرين، وأن يتعامل معهم كلاً على انفراد، وأن يعطى كل ذلك أهمية بالغة، وإذا جاء أحد ليس من عادته المجيء فعليه أن يستوقفه عنه الحدود ويفحص أحواله والأمتعة التى يحملها، وعليه أن يفعل مثل ذلك مع الجمالين وأن يمنعهم من الدخول إلى البلاد ما لم يكونوا معروفين بأنهم زوار منتظمون، وعليه ألا يسمح لأية قافلة بالتقدم إلا بعد أن يرسل تقريراً مكتوباً إلى الديوان ذاكراً فيه عدد التجار وأسماءهم وأسماء خدمهم وأسماء الحمالين وقائمة بأمتعتهم حتى يجرى التحقق من ذلك فى مدينة بلبيس عند وصولهم إلى بوابتها، وفى الوقت نفسه عليه أن يكرم التجار ويمتنع عن مضايقتهم. ثم أصدر

المأمور أوامره إلى ولاة القاهرة القديمة والجديدة بأن يسجلوا أسماء جميع السكان شارعاً شارعاً، وحياً حياً، وعدم السماح لأى شخص بالانتقال من بيت إلى آخر دون الحصول على موافقته الصريحة، وعندما عرف كل شىء عن السجلات وأسماء الناس فى القاهرة القديمة والجديدة وألقابهم وظروفهم وطريقة معيشتهم وأى غرباء يترددون عليهم بعث بعد ذلك نسوة يغشين المنازل للتلصص على أخبار الناس والإبلاغ عن أى مشكوك فيه حتى لم يعد هناك شىء يخص أى واحد من سكان القاهرة القديمة والجديدة مخفيًا عنه.. وفى ذات يوم أرسل عدداً من الجنود ووزعهم بين الأحياء وأمرهم بالقبض على من يأمر باعتقاله» ا.هـ.

وهكذا أمكن اعتقال الكثيرين من عملاء الإسماعيلية، وكان من بينهم معلم أبناء السلطان! وعثر لدى بعض المعتقلين على أموال أرسلها إليهم حسن الصباح ليستخدموها فى أغراضه بمصر، ويقول المؤرخ ابن ميسر إن شرطة الوزير وجواسيسه بلغوا من النجاح أنه منذ لحظة خروج أحد الحشاشين من «ألموت» كانت ترصد كل حركاته وتبلغ إلى القاهرة، ويبدو أن خطاب العفو الذى كان يدعو زعماء النزاريين بالاسم إلى العودة إلى الحظيرة الفاطمية دون خوف من عقاب لم يرسل، وتدهورت سريعاً العلاقات بين القاهرة وألموت.

وفاة حسن الصباح

فى مايو ١١٢٤ مرض حسن الصباح وشعر أن نهايته تقترب فأعد العدة لمن يخلفه، ووقع اختياره على برزجميد الذى ظل عشرين عاماً

قائداً لقلعة لاماسار ليكون خليفة له. يقول المؤرخ الجوينى: «بعث إلى لاماسار لإحضار برزجميد وعينه خليفة له وجعل ديدار أبو على الأردستانى (يجلس) على يمينه وكلفه بشئون الدعوة، وحسن ابن آدم القسرانى (يجلس) على شماله ليتولى شئون الإدارة، وكيا باجعفر أمامه قائداً للقوات، وكلفهم بالعمل أربعتهم فى اتفاق وتعاون إلى أن يظهر الإمام المستتر ويتولى شئون المملكة، وفى ليلة الأربعاء ٦ ربيع الآخر عام ٥١٨ (٢٣ مايو ١١٢٤) انطلقت روحه عائدة إلى نار الله وجحيمه».

كانت تلك نهاية شخصية عظيمة، ويصف المؤرخ العربى ابن الأثير ـ الذى لم يكن صديقاً له بأى حال ـ حسن الصباح بأنه كان «حاد الذهن، ثاقب الفكر، قديراً، عليماً بالهندسة والحساب والفلك والسحر وأشياء أخرى» أما الترجمة الإسماعيلية لحياته والتى اقتبس منها المؤرخون الفرس أمثال الجوينى ورشيد الدين وكاشانى فإنها تركز على زهده وتقشفه فنقرأ فيها «طوال ٣٥ عاماً عاشها فى ألموت لم يجرؤ أحد على شرب الخمر علناً أو وضعه فى الجرار» ولم تكن شدته على خصومه فحسب وإنما على أقرب أقربائه كذلك. فقد أعدم أحد أبنائه لشربه خمراً، وأعدم ابناً آخر بتهمة ثبت بعد ذلك أنه برىء منها وأنها من تدبير الداعى حسين القينى، وقد اعتاد أن يشير إلى إعدامه لابنيه ليروع كل من تسول له نفسه الاعتقاد بأن حسن الصباح إنما يقول ما لا يفعل.

كان حسن الصباح مفكراً وكاتباً كما كان رجل عمل، وقد حفظ له المؤلفون السنيون نصين من تأليفه أحدهما شذرات من قصة حياته بقلمه، والآخر مختصر لمقال فى اللاهوت، وكان الإسماعيليون المتأخرون يشيرون إليه باحترام باعتباره أول محرك «للدعوة الجديدة» أى النظرية الإسماعيلية المعدلة التى برزت بعد الانشقاق عن القاهرة والتى حافظ عليها وطورها الإسماعيليون النزاريون، ونجد فى الكتابات النزارية

المتأخرة عدداً من الفقرات التى ربما كانت مقتبسة عن حسن الصباح أو لعلها تلخيصات لبعض أقواله، وهو لم يزعم قط أنه الإمام وإنما ممثل للإمام فحسب، وأنه بعد اختفاء الإمام أصبح هو الحجة أى البرهان أو نبع المعرفة للإمام المخبوء فى عصره والرابطة الحية بين خط الأئمة الظاهرين فى الماضى وفى المستقبل وزعيم الدعوة، والنظرية الإسماعيلية شمولية بصفة أساسية، والمؤمن فيها ليس له حق الاختيار، ولكن ينبغى عليه أن يتبع «التعليم»، والإمام هو المصدر النهائى للإرشاد، أما المصدر المباشر فهو ممثله المعتمد، والناس لا يختارون إمامهم كما يقول بذلك أهل السنة ولا يصدرون الأحكام فى صحة الشئون المتعلقة بالدين والشريعة، فالله هو الذى يعين الإمام، والإمام هو مستودع الحقيقة، وهو فقط الذى يشرع بالعقل والنقل، والإمام الإسماعيلى فحسب ـ بطبيعة منصبه وتعاليمه ـ هو الذى يستطيع أن يفعل ذلك، ولذا هو وحده الإمام الحق، ومنافسوه مغتصبون وأتباعهم خطاة وتعاليمهم مزيفة.

هذه النظرية بتركيزها على الولاء والطاعة ورفضها للعالم كما هو، أصبحت سلاحاً ماضياً فى يد المعارضة الثورية السرية بعد أن تكشفت المطاعن المؤلمة فى الخلافة الفاطمية، وهكذا أصبح الانشقاق عن القاهرة ونقل الولاء إلى إمام غامض مخبوء مطلقاً لعقال قوى التأجج والعاطفة لدى الإسماعيليين، وكانت مساهمة حسن الصباح أنه أطلق عقال هذه القوى وقام بتوجيهها.

الفصل الرابع

الدعوة فى فارس

كانت وفاة السلطان السلجوقى تعنى عادة التوقف العاجل عن كل عمل إيجابى، واستراحة فى الصراع، وحالة من عدم التيقن، وخلال هذه الفترة يحاول أعداء الدولة فى الداخل والخارج أن يجدوا الفرصة لتحقيق مآربهم. لابد أن الكثيرين ظنوا بعد وفاة حسن الصباح أن الإمارة الإسماعيلية التى أنشأها سوف تركن إلى هذا النموذج المعتاد نفسه للحكومات الإسلامية فى تلك الفترة. وفى عام ١١٢٦ أى بعد مرور سنتين على خلافة بزرجميد شن السلطان سانجار هجومًا على الإسماعيليين وضع هذا السؤال موضع الاختبار، والواقع أنه منذ الحملة على طبس Tabas فى عام ١١٠٣ لم يتخذ سانجار أى إجراء ضد الإسماعيليين، بل ربما يكون قد دخل فى نوع من الاتفاق معهم، ولا نعرف سببًا مباشرًا لهذا الهجوم ضد الإسماعيليين فى عام ١١٢٦، ولكن يبدو أن شعور السلطان بالثقة المتزايدة بقوته وظنه بضعف الإسماعيليين تحت حاكمهم الجديد يشكلان تفسيرًا كافيًا لقراره عدم المزيد من التسامح إزاء هذه القوة الخطرة المستقلة على حدوده، بل وفى داخل حدود إمبراطوريته، وقد لعب دورًا مهمًا فى هذا الشأن معين الدين كاشى وزير السلطان وكان من المتحمسين لاتخاذ إجراء عنيف ضد الخطر الإسماعيلى.

ويبدو أن الهجوم الأول قد وقع فى الشرق، ويتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير فيقول: «فى هذا العام أعطى الوزير أوامره بالحرب ضد الإسماعيليين لقتلهم حيث ثقفوا، وهزيمتهم ونهب حوائجهم واسترقاق نسائهم، وأرسل جيشًا ضد توراى ثيث Turaythith (فى كوهستان) التى كانت فى أيديهم وضد بيهق Bayhaq فى إقليم نيسابور.. وأرسل قواته ضد كل جزء من ممتلكاتهم بعد أن زودها بالأوامر بأن تقتل كل

من تجده من الإسماعيليين» وهذا يعنى - فيما يبدو - حرمان الإسماعيليين من الحقوق التى يتمتع بها الأسرى والمدنيون طبقا للشرع فى حالة الحرب بين المسلمين، ومعاملتهم كالكفار سواء بسواء؛ أى أنه يجوز قتلهم واسترقاقهم.

ويسجل المؤرخ العربى ابن الأثير انتصارين لقوات السلطان على أعدائهم الإسماعيليين، الأول هو الانتصار الذى أحرزته هذه القوات ضد قرية تارز Tarz الإسماعيلية بالقرب من بيهق حيث أعمل جند السلطان السيف فى سكان القرية الإسماعيلية وانتحر زعيمهم بأن ألقى بنفسه من فوق منارة المسجد، والثانى هو الانتصار الذى أحرزته الغارة على توراى ثيث حيث قام الجند «بقتل الكثيرين وأخذ غنائم جمة ثم عادوا» ومن الواضح أن نتائج الحملة كانت محدودة وغير حاسمة.

أما فى الشمال فقد كانت نتائج الهجوم أكثر سوءاً إذ فشلت حملة ضد رودبار قادها ابن أخ شيرجير وردت على أعقابها وغنم منها الإسماعيليون غنائم كثيرة، كما فشلت حملة أخرى قامت بمساعدة محلية وأسر أحد قوادها.

ولم يتأخر انتقام الإسماعيليين طويلاً، إذ تمكن اثنان من الفدائيين من شق طريقهم إلى قصر الوزير متخفيين فى زى سائسى الخيول واستطاعا بمهارتهما وإظهارهما الطاعة المطلقة أن يكسبا ثقة الوزير، ثم حانت لهما الفرصة عندما استدعاهما الوزير إلى مجلسه كى يختارا حصانين عربيين يقدمهما هدية للسلطان بمناسبة السنة الفارسية الجديدة فقتلاه طعناً بالخناجر فى ١٦ مارس ١١٢٧، ويقول عنه ابن الأثير: «إنه فعل أفعالاً حسنة وأظهر عزماً صادقاً فى الحرب ضدهم وقد منحه الله الشهادة» ويذكر المؤلف نفسه أن السلطان سنجار انتقم لمقتل وزيره بأن

شن حملة انتقامية ضد «ألموت» أهلك خلالها أكثر من عشرة آلاف إسماعيلى، ولكننا لا نجد ذكراً لهذه الحملة فى المصادر الإسماعيلية أو فى أى مصادر أخرى، ومن المحتمل أن تكون من نسج الاختلاق.

وقد خرج الإسماعيليون من هذه الحروب أكثر قوة مما كانوا قبلها، ففى رودبار دعموا قوتهم ببناء قلعة قوية جديدة أسموها ميمون ديز Maymundiz ووسعوا أملاكهم بالاستيلاء على طلقان Talqan. وفى الشرق أغارت قوات إسماعيلية من كوهستان على الأرجح ضد سيستان Sistan فى عام ١١٢٩، وفى العام نفسه وجد السلطان السلجوقى محمد المقيم فى أصفهان أن من الحكمة أن يحاول عقد صلح معهم، فدعا ممثلاً عن «ألموت» للمجىء إلى أصفهان لبحث شروط السلام، ولكن لسوء الحظ أحاطت الجماهير فى أصفهان بالمبعوث الإسماعيلى وأحد زملائه بعد خروجهما من لدى السلطان وقتلوهما، وقد اعتذر السلطان بشدة عن الحادث وحاول نفى مسئوليته عنه ولكنه رفض طلب بزرجميد معاقبة القتلة، فرد الإسماعيليون بمهاجمة قزوين، حيث تقول سجلاتهم إنهم قتلوا أربعمائة شخص وغنموا غنائم كثيرة، وحاول أهل قزوين أن يحاربوا الإسماعيليين ولكن -كما يقول المؤرخ الإسماعيلى رشيد الدين- لاذوا بالفرار عندما قتل الرفاق أميراً تركيًا، كما فشل هجوم على «ألموت» قام به السلطان محمود شخصياً فى ذاك الوقت فى إحراز أية نتيجة.

فى عام ١١٣١ توفى السلطان محمود وتلا ذلك نشوب النزاع المعتاد بين إخوته وابنه، وقد استطاع بعض الأمراء أن يورطوا الخليفة العباسى فى بغداد «المسترشد» فى تحالف ضد السلطان مسعود أحد المتنازعين على الحكم فى إيران، وفى عام ١١٣٩ وقع الخليفة ووزيره

وعدد من كبار رجاله فى أسر السلطان مسعود بالقرب من همدان، وساق السلطان مسعود أسيره الكبير إلى مراغة Maragha حيث عامله - كما يقال - باحترام، ولكن ذلك لم يمنع جماعة كبيرة من الإسماعيليين من اقتحام المعسكر واغتياله، وهكذا تعرض خليفة عباسي- الرمز الرئيسى للعالم السنى الإسلامى- لخناجر الحشاشين عندما سنحت الفرصة، ولكن الشائعات اتهمت السلطان مسعود بالمشاركة فى الجريمة أو الإهمال المتعمد بل، واتهمت سانجار - الذى كان لا يزال الرئيس الاسمى للحكام السلاجفة - بتدبير الجريمة، أما المؤرخ الجوينى فقد حاول قصارى جهده تبرئتهما من هذه الاتهامات فكتب يقول: «إن بعض قصارى النظر وكارهى بيت سانجار اتهموهما بالمسئولية عن هذا الفعل ولكن كذب المنجمون ورب الكعبة، فإن طيبة شخصية السلطان سانجار ونقاء سجيته كما يشهد بها أتباعه وتدعيمه للمذهب الحنفى والشريعة واحترامه لكل ما يتعلق بالخليفة، وكذلك رحمته وعطفه، كل ذلك برهان ساطع واضح على زيف وكذب اتهامات توجه إلى مثل هذا الشخص».

أما فى «ألموت» فقد استقبلت أنباء موت الخليفة العباسى بابتهاج فاحتفلوا بها سبعة أيام بلياليها وأكرموا الرفاق الذين ارتكبوا هذه الفعلة وسبوا ولعنوا اسم العباسيين وشعاراتهم.

وإذا كانت قائمة اغتيالات الإسماعيليين فى فارس أثناء حكم بزرجميد قصيرة نسبيًا إلا أنها تضم عددًا من الشخصيات المهمة الكبيرة، فإلى جانب الخليفة المسترشد تشمل قائمة ضحاياهم والى أصفهان وحاكم مراغة ووالى تبريز ومفتى قزوين.

لم يكن التوانى فى معدل الاغتيالات هو التغيير الوحيد الذى طرأ

على الإمارة الإسماعيلية بعد عهد حسن الصباح، وإنما كان هناك تغيير آخر يتمثل فى هدوء طبيعتها الثورية، فقد كان بزرجميد - خلافًا لحسن الصباح - من مواطنى رودبار المحليين ولم يكن أجنبيًا عن المنطقة، ولم يشارك فى تجربة حسن الصباح كداعية سرى وإنما أمضى حياته العملية كحاكم إدارى، وقد قبله غير الإسماعيليين بصفته حاكمًا إقليميًا، وهناك حادثة توضح ذلك تمامًا وهى هرب الأمير يارانكوش وأتباعه ولجوؤهم إلى «ألموت» مع أن هذا الأمير كان من أقدم وأشد أعداء الإسماعيليين وكان هربه من وجه شاه خورازم (خورازمشاه) الذى طلب من الإسماعيليين تسليمه إليه قائلاً إنه - أى الشاه - صديق للإسماعيليين فى حين أن يارانكوش عدو لهم، ولكن بزرجميد رفض تسليمه قائلاً: «إننى لا أستطيع أن أعده عدوًا من يضع نفسه تحت حمايتى» والواقع أن التأريخ الإسماعيلى لفترة حكم بزرجميد كثيرًا ما يفخر بقص مثل هذه الأفعال التى تدل على الشهامة أو بمعنى آخر تدل على دور الحاكم الشهم بأكثر مما تدل على دور الزعيم الثورى.

وقد نفذ الحاكم الاسماعيلى هذا الدور إلى حد التسامح فى عقيدته نفسها، إذ يحكى مؤرخ إسماعيلى انه فى عام ١١٣١ ظهر زعيم شيعى يدعى أبو هشام فى الديلم وبعث رسائل يدعو فيها لنفسه إلى كل المناطق المجاورة حتى خراسان «فأرسل بزرجميد رسالة إليه ينصحه ويلفت نظره إلى البراهين الإلهية» فأجاب أبو هشام قائلاً: «إن ما تقوله كفر وضلال وإذا أتيت لى وتناقشنا سوف يتضح فساد معتقداتك» فأرسل الإسماعيليون جيشًا إليه فهزمه»، «وأمسكوا بأبى هشام وأقاموا عليه حججًا كثيرة وأحرقوه».

وأخيرًا انتهى حكم بزرجميد الطويل بوفاته فى ٩ فبراير ١١٣٨، ويسجل الجوينى بأسلوبه الأنيق الحدث قائلاً: «ظل بزرجميد مستويًا على

عرش الجهل حاكمًا بالخطأ حتى ٢٦ جمادى الأولى عام ٥٣٢ (٩ فبراير ١١٣٨) عندما سحق تحت كعب الهلاك وحمى الجحيم بإعدام جثته.

***

حكم محمد بن بزرجميد

ومما له دلالة كذلك على تغير طبيعة الزعامة الإسماعيلية فى هذه الفترة أنه بعد وفاة بزرجميد خلفه ابنه محمد دون متاعب وكان قد عينه وريثًا له قبل وفاته بثلاثة أيام فقط.

ويقول المؤرخ الإسماعيلى إنه عندما مات بزرجميد «ابتهج الأعداء وأظهروا الوقاحة»، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا سراعًا أن آمالهم لم تكن فى محلها.

كان أول ضحايا الحكم الجديد عباسى آخر هو الخليفة السابق «الرشيد» ابن وخليفة «المسترشد» الذى اغتاله الإسماعيليون من قبل، وكان الرشيد مثل أبيه من قبل قد تورط فى منازعات السلاجقة وخلعته هيئة من القضاة والفقهاء جمعها السلطان، فغادر الرشيد العراق إلى فارس ليلحق بحلفائه، وبينما كان مقيمًا فى أصفهان للإبلال من مرض أصابه هاجمه مغتالوه يوم ٥ أو ٦ يونيو ١١٣٨ وكان قتلته خرسانيين يعملون فى خدمته، وابتهجت «ألموت» مرة أخرى بوفاة الخليفة. واعتبر ذلك أول «نصر» للحكم الجديد.

وتضم قائمة الشرف فى حكم محمد ١٤ حالة اغتيال، فإلى جانب الخليفة السابق الرشيد يعد أبرز ضحايا هذه الفترة السلطان السلجوقى داود الذى اغتاله أربعة فدائيين سوريين فى تبريز عام ١١٤٣، ويقال ان

القتلة أرسلهم زنكى حاكم الموصل الذى كان يبسط حكمه إلى سوريا، وقد خشى أن يكون داود يسعى ليحل محله، وهذا شيء غريب بالتأكيد أن يحدث اغتيال فى شمال غربى فارس بتدبير فى سوريا وليس من قلعة «ألموت» القريبة، ومن الضحايا الآخرين أحد الأمراء فى بلاط سانجار وأحد معاونيه وأمير من بيت خورازمشاه وحكام محليون فى جورجيا (؟) ومازندران ووزير وقضاة كوهستان وتفليس وهمدان كانوا قد سمحوا أو أفتوا بقتل الإسماعيليين.

كانت هذه حصيلة هزيلة إذا ما قورنت بأيام حسن الصباح العظيمة، وتعكس القلق المتزايد لدى الإسماعيليين إزاء المشكلات المحلية والإقليمية، وتهتم سجلات الإسماعيليين فى هذه الفترة بهذه الحوادث الصغيرة بينما لا تكاد تذكر شيئًا عن الشئون الكبرى التى كانت تحدث فى الإمبراطورية حينذاك، فبدلاً من ذلك تبرز هذه السجلات المنازعات المحلية مع الحكام المجاورين مقرونة بقوائم عن الأبقار والماشية والحمير وغيرها من الغنائم، وقام الإسماعيليون بسلسلة من الغارات المضادة بين رودبار وقزوين، وفى عام ١١٤٣ صدوا هجومًا قام به السلطان محمد ضد قلعة «ألموت» واستطاعوا الحصول على- أو بناء- بعض القلاع الجديدة فى بعض أقاليم قزوين بل وقيل إنهم مدوا نشاطهم إلى منطقتين جديدتين هما جورجيا حيث أغاروا عليها ونشروا فيها دعايتهم، وما يسمى اليوم بأفغانستان حيث طلب حاكمها- لأسباب خاصة به- أن يرسلوا إليه بعثة من الدعاة الإسماعيليين، ولكن عند وفاته فى ١١٦١ قام خليفته بقتل الدعاة والذين حولوهم إلى عقيدتهم على السواء.

كان أكبر عدوين للإسماعيليين فى ذلك الوقت هما حاكم مازندران وحاكم الرى من قبل السلاجقة ويدعى عباساً، ويقال إن الاثنين بنيا أبراجًا من جماجم الإسماعيليين، وقد دبر عباس مذبحة للإسماعيليين

فى المدينة وهاجم الأقاليم الإسماعيلية، وفى عام ١١٤٦و١١٤٧ اغتيل عباس بواسطة السلطان مسعود بينما كان فى زيارة لبغداد، ويقول مؤرخ إسماعيلى إن رأسه أرسل «بإشارة من السلطان سانجار» إلى خراسان وهناك دلائل تفيد أن سانجار والإسماعيليين كانوا فى ذلك الوقت فى جانب واحد بالرغم من أنهم أحيانًا كانوا يتنازعون مثلما حدث عندما أيد سانجار محاولة لإقامة العقيدة السنية فى أحد مراكز الإسماعيليين فى كوهستان، وهناك ـ كما فى كل مكان ـ كانت المنازعات محلية وإقليمية، ومما يستحق الانتباه أن الزعامة فى القلاع والإمارات الإسماعيلية الأخرى بالإضافة إلى ألموت كانت تنتقل من الأب إلى الابن، وغالبًا ما تكون المنازعات الناشبة منازعات أسرية.

وبدا كما لو أن الجذوة قد انطفأت لدى الإسماعيليين فقد وصل الموقف بين الإمارات الإسماعيلية والسلطنات السنية إلى تجمد فعلى وقبول ضمنى متبادل بين الفريقين، أما الكفاح العظيم للقضاء على النظام القديم وإنشاء عصر جديد باسم الإمام الإسماعيلى المستور فقد خبا وتحول إلى مجرد مناوشات على الحدود وإغارات للاستيلاء على الماشية، أما القلاع المنيعة التى قصد بها فى الأصل أن تكون رءوس رماح لهجوم عظيم على الإمبراطورية السنية فقد تحولت إلى مراكز لأسر إسماعيلية محلية من طراز ليس بغير الشائع فى التاريخ الإسلامى، وكان لدى الإسماعيليين مصانعهم الخاصة بسك العملة وكانوا يسكون عملتهم الخاصة بهم، حقًا كان الفدائيون ما زالوا يزاولون الاغتيال ولكن ذلك -على أية حال- لم يكن بالمسلك الغريب أو غير المألوف بالنسبة لهم، ولم يكن كافيًا لإذكاء آمال أبناء الطائفة.

وكان بينهم من لا يزالون يحنون إلى أيام حسن الصباح العظيمة والى التفانى والمغامرة اللذين ميزا كفاحه المبكر والعقيدة الدينية التى

أذكتهما، وهؤلاء وجدوا ضالتهم فى زعيم جديد هو حسن ابن سيد قلعة «ألموت» محمد وخليفته المنتظر، وقد أبدى حسن اهتمامًا كبيرًا بشئون الدعوة منذ صباه المبكر. يقول مؤرخ إسماعيلى إنه «عندما اقترب من سن الحلم أبدى رغبة فى دراسة وبحث تعاليم حسن الصباح وآبائه (آباء حسن) وأصبح متفوقًا فى عرض عقيدتهم، وبسبب بلاغة كلماته استطاع أن يكسب الشطر الأكبر من هؤلاء، ولما كان أبوه (محمد) يفتقر تمامًا إلى هذا الفن فقد بدا ابنه كأستاذ كبير بالنسبة له مما دفع العامة إلى اتباعه وإذ لم يكونوا قد سمعوا بمثل أقواله من أبيه فقد بدأوا يعتقدون أنه الإمام الذى وعد به حسن الصباح، وزاد ارتباط الناس به وسارعوا إلى اتباعه كزعيم لهم».

ولكن محمدًا لم يحب شيئًا من ذلك كله، فقد كان محافظًا فى عقيدته الإسماعيلية «وكان متشددًا فى اتباع المبادئ التى أرساها أبوه وحسن (الصباح) فيما يتعلق بأسلوب الدعاية للإمام والاحترام الخارجى للفرائض الإسلامية واعتبر أن سلوك ابنه لا يتطابق مع هذه المبادئ، ولذا فإنه استنكره بشدة ودعا الناس وتحدث فيهم قائلاً: هذا الحسن ابنى وأنا لست الإمام ولكنى واحد من دعاته، وكل من يستمع إلى هذه الأقوال ويعتقد فيها كافر وملحد» وعلى هذا الأساس عاقب بعض الذين اعتقدوا فى إمامة ابنه بكل وسائل التعذيب والإيذاء، ففى إحدى الحالات أعدم ٢٥٠ شخصًا فى «ألموت» ثم ربط جثثهم فوق ظهور ٢٥٠ شخصًا آخرين اتهموا بنفس التهمة وطرد هؤلاء من القلعة، وبهذه الطريقة أثبطت هممهم، وأخمدت حركتهم. وتحمل حسن هذه المضايقات انتظارًا لفرصته الملائمة واستطاع أن يبدد شكوك أبيه، وعند وفاة محمد فى عام ١١٦٢ خلفه دون معارضة، وكان حينئذ فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر.

حكم حسن بن محمد بن بزرجميد

كان حكم حسن فى بداية الأمر خاليًا من الأحداث المهمة لم يميزه سوى بعض التخفف من الاتباع الحازم للشريعة الذى كان سائدًا من قبل فى (ألموت)، ولكنه فجأة بعد عامين ونصف العام من ولايته وفى منتصف شهر الصوم رمضان أعلن قيام «العهد الألفى السعيد».

وقد حفظ لنا الأدب الإسماعيلى اللاحق ذكر ما حدث كما تسرب ذكره ببعض التعديل إلى السجلات الفارسية التى كتبت بعد سقوط «ألموت» وتتفق المصادر جميعًا على سرد قصة غريبة، ففى اليوم السابع عشر من شهر رمضان من عام ٥٥٩ هـ (٨ أغسطس ١١٦٤) تحت صعود العذراء وعندما كانت الشمس فى برج السرطان أمر حسن بإقامة منبر فى فناء « ألموت» يواجه الغرب ترفرف على أركانه الأربعة رايات أربع كبيرة بيضاء وحمراء وصفراء وخضراء.. وجاء الناس من مختلف الجهات- وكان قد استدعاهم من قبل إلى «ألموت»- وتجمعوا فى الفناء، فالذين أقبلوا من الشرق لزموا الجانب الأيمن والذين جاءوا من الغرب وقفوا على الجانب الأيسر والذين جاءوا من الشمال، من رودبار والديلم، وقفوا فى مواجهة المنبر، ولما كان المنبر يواجه الغرب لذلك كانت ظهور المجتمعين نحو مكة، وتقول نبذة إسماعيلية فى وصف ما حدث: «وبعد قرابة الظهر نزل السيد حسن على ذكره السلام من القلعة مرتديًا ثوبًا أبيض وعمامة بيضاء، وتقدم نحو المنبر من الجانب الأيمن، وارتقاه فى خطى وئيدة، وتوجه بالتحية ثلاث مرات: الأولى إلى أهل الديلم ثم إلى الذين على اليمن ثم إلى الذين على اليسار، وظل جالسًا برهة ثم وقف مرة أخرى وهو ممسك بسيفه وتحدث بصوت جهورى مخاطبًا سكان

العوالم الثلاثة: عالم الجن وعالم الإنس وعالم الملائكة، فأعلن أنه قد وصلته رسالة من الإمام المختفى تحمل تعليمات جديدة تقول: إن إمام عصرنا يبعث إليكم تحياته وسلامه ويبلغكم أنه دعاكم خدمه الخصوصيين المختارين، وأنه حرركم من أعباء قواعد الشريعة وأحضركم إلى القيامة»، وبالإضافة إلى ذلك فقد قضى الإمام بتعيين حسن بن محمد بن بزرجميد وكيلاً له وداعية وحجة، وعلى حزبنا أن يطيعوه ويتبعوه فى شئونهم الدينية والدنيوية وأن يعتبروا أوامره ملزمة ويعرفوا أن كلمته هى كلمتنا» وعندما أتم حسن خطبته نزل من على المنبر وصلى ركعتين أسماهما صلاة الاحتفال، ثم أمر بالمائدة فمدت ودعا الناس إلى قطع صيامهم والمشاركة فى الطعام والابتهاج، وبعث الرسل يحملون هذه التعاليم السعيدة شرقًا وغربًا، ففى كوهستان كرر رئيس قلعة مؤمن أباد نفس حفلة «ألموت» وأعلن نفسه وكيلاً لحسن من فوق منبر يواجه الاتجاه الخاطئ كذلك. وتلقى الإسماعيليون فى سوريا الرسالة أيضًا واحتفلوا بانتهاء الشريعة!

إن انتهاك الشريعة الدينية على هذا النحو الشعائرى المهيب- بما فى ذلك اتجاه المصلين بظهورهم إلى مكة والإفطار ظهرًا فى منتصف الصوم- يمثل الحد المتطرف من اتجاه الإيمان بالعصر الألفى السعيد بما ينطوى عليه ذلك من مخالفة صريحة لمبادئ الدين، وهذا الاتجاه تواتر فى تاريخ بعض المذاهب الإسلامية وله مشابهات واضحة فى الفكر المسيحى، ومنطوقه أن الدين قد استوفى غرضه وبذلك انتهى حكمه، فالأسرار قد كشفت، والإمام قد أظهر رحمته وعفوه، فهو إذ جعل المؤمنين خدمه المختارين الخصوصيين قد حفظهم من الخطيئة وبإعلانه القيامة قد وقاهم من الموت ونقلهم أحياء إلى الفردوس الروحى وهو

معرفة الحقيقة والتأمل فى جوهر الله المقدس، وقد علق الجوينى، الفقيه المؤرخ، على ذلك قائلاً: «إن جوهر هذه العقيدة الضالة يكمن فى اتباع أقوال الفلاسفة الذين يقولون بأن العالم غير مخلوق والدهر غير محدود والقيامة روحية، وهم يفسرون الجنة والنار تفسيراً رمزياً على نحو يعطى هذه المفاهيم معنى روحيًا فحسب، فيقولون إن القيامة تكون عندما يصل الخلق إلى الخالق وتكشف كل أسرار الخليقة وحقائقها، فتلغى أفعال الطاعة، لأنه فى هذه الدنيا توجد أفعال ولا يوجد حساب أما فى الآخرة فيوجد حساب ولا توجد أفعال، وهذه هى القيامة الروحية الموعودة والمنتظرة فى كل الأديان والمعتقدات، وقد كشف عنها حسن بن محمد بن بزرجميد وكنتيجة لها أعفى الناس من الواجبات التى تفرضها عليهم الشريعة لأنهم فى فترة القيامة هذه يجب أن يتجهوا بكل جوارحهم إلى الله ويتخلوا عن شعائر الدين وما اعتادوه من عبادات، إن الشريعة تقول إن على الناس أن يقيموا خمس صلوات فى اليوم كى يكونوا مع الله، ولكن هذا التكليف رسمى فحسب، ففى القيامة الروحية ينبغى على الناس أن يكونوا دائمًا مع الله فى قلوبهم ويتجهوا بأرواحهم دومًا نحو حضرته القدسية لأن هذه هى الصلاة الحقة».

هذا النظام الدينى الجديد أحدث تغيراً مهماً فى وضع سيد «ألموت»، ففى الحفل الذى أقامه فى ساحة القلعة أعلن نفسه وكيلاً للإمام المخبوء والحجة الحية له، وباعتباره معلن القيامة أصبح هو «القائم»- وهذه شخصية بارزة فى الفكر الدينى الإسماعيلى- ويقول رشيد الدين إنه بعد أن أعلن حسن قيامته وزع مكاتيب يقول فيها إنه وإن كان من الناحية الظاهرية يعرف كحفيد لبزرجميد إلا أنه فى الحقيقة الخفية إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار، ومن المحتمل- كما يقول البعض- أن

حسن لم يدع انحداراً طبيعيًا من صلب نزار، فلم تعد لذلك أهمية فى عصر القيامة، ولكنه زعم نوعاً من النبوة الروحية، والواقع أن ثمة سوابق فى الحركات التبشيرية الإسلامية المبكرة ادعى فيها أشخاص أنهم ينحدرون روحيًا أو بالتبنى عن أهل البيت، وعلى أية حال فإننا نجد فى التراث الإسماعيلى اللاحق إجماعًا على تأكيد أن حسن ونسله جاءوا من الخط الحقيقى لنزار بالرغم من وجود تفسيرات مختلفة لكيفية حدوث ذلك، أما حسن نفسه فهو يحتل مركزاً مرموقًا فى هذا التراث ويشار إليه دائما بعبارة «حسن على ذكره السلام»!

وقد قبل معظم الإسماعيليين هذا النظام الدينى الجديد ولكن كان هناك البعض ممن رفضوا التحرر من التزامات الشريعة، وقد استخدم حسن إزاءهم أشد العقوبات «لتحريرهم». يقول رشيد الدين: «إن حسن أوضح ضمنًا وصراحة أنه كما أن فى زمن الشريعة إذا لم يبد إنسان ما طاعة وعبادة واتبع قاعدة القيامة بأن الطاعة والعبادة روحيتان فإنه يعاقب ويرجم ويقتل، كذلك فإن فى زمن القيامة إذا التزم إنسان بحرفية الشريعة وأصر على الطقوس والعبادة البدنية فإنه يعاقب ويرجم ويقتل».

وكان من بين هؤلاء العصاة الذين رفضوا الانصياع للأوامر الجديدة صهو حسن وهو سليل أسرة ديلمية نبيلة ويصفه الجوينى بأنه كان واحداً ممن بقى فى قلوبهم ظل من الطاعة والدين، هذا الرجل لم يستطع أن يتحمل انتشار هذه الأخطاء المخزية، فليرحمه الله ويجازيه بحسن قصده، وفى يوم الأحد ٦ ربيع الأول عام ٥٦١ (٩ يناير ١١٦٦) طعن المارق حسن بخنجر أثناء وجوده فى قلعة لاماسار فرحل عن هذا العالم إلى نار الله الموقدة».

وخلف حسناً ابنه محمد وكان شاباً فى التاسعة عشرة من العمر، واستمر محمد فى تأكيده بأن أباه - وبالتالى هو شخصياً - أئمة من نسل نزار، ويقال إنه كان كاتباً مجيداً وخلال فترة حكمه الطويل استطاع أن يطور نظرية القيامة ويرسخها، ولكن يبدو أن هذه النظرية لم يكن لها تأثير ملحوظ على العالم الخارجى، فمما له دلالة خاصة أن كل فترة القيامة فى قلعة «ألموت» مرت دون أن يذكرها أحد من مؤرخى السنة المعاصرين ولم تعرف وتذع إلا بعد دمار «ألموت» ووقوع كتابات الإسماعيليين فى أيدى فقهاء السنة.

وقد مرت كذلك فترة حكم محمد الثانى بلا أحداث بارزة من الناحية السياسية، وفيما عدا أن ساكنى «ألموت» واصلوا الإغارة على جيرانهم وقتل الفدائيين لأحد وزراء الخليفة فى بغداد لم يحدث شىء بارز آخر، غير أن هناك قصة يحكيها رشيد الدين وغيره من المؤلفين عن الفقيه السنى الكبير فخر الدين الرازى، فيقال إن فخر الدين الرازى هاجم فى محاضراته لطلبة أصول الدين فى الرى النظرية الإسماعيلية وأعلن رفضه لها ولعنها، ولما سمع سيد «ألموت» بذلك قرر أن يضع حداً للأمر، فأرسل فدائياً إلى الرى، وهناك انضم الفدائى إلى طلبة الرازى وواظب على محاضراته سبعة أشهر كاملة لم ينقطع خلالها يوماً واحداً، كما أبدى نجابة كبيرة، وأخيراً حانت له فرصة للقاء أستاذه فى حجرته بحجة بحث مشكلة معقدة، وفجأة شهر الفدائى سكيناً وهدد به الفقيه الكبير، فقفز فخر الدين بعيداً وصاح: «ماذا تريد أيها الرجل؟» فأجاب الفدائى: «أريد أن أبقر بطن فضيلتك من الصدر إلى السرة لأنك

لعنتنا فوق المنبر» وبعد عراك بينهما تمكن الفدائى من إلقاء فخر الدين أرضاً وجثم فوق صدره فارتعب الفقيه ووعد بالتوبة والامتناع عن مثل هذه الهجمات فى المستقبل، فتظاهر الفدائى بالاقتناع وقبل تعهداً صادقاً من فخر الدين بإصلاح وسائله، وعندئذ أخرج الفدائى صرة بها ٣٦٥ ديناراً ذهبياً أعطاها للفقيه وقال له: إننا سنعطيك فى كل عام مبلغاً مماثلاً مقابل امتناعك عن مهاجمتنا، ومنذئذ تحاشى فخر الدين الرازى فى محاضراته عن الفرق فى الإسلام أن يذكر الإسماعيليين بسوء، ولاحظ أحد تلاميذه هذا التغيير وسأل عن السبب فقال الأستاذ: «إننى لا أنصح بلعن الإسماعيليين فإن لهم حججاً ثقيلة وأخرى حادة!» هذه القصة يبدو أنها خرافة ولكن مما يلاحظ أن فخر الدين الرازى فى كتاباته- وإن كان لا يقبل نظريات الإسماعيليين- فإنه يستنكر فى بعض المواضع محاولات أحد فقهاء السنة رفض النظريات الإسماعيلية بطريقة متعصبة وغير مؤيدة بأدلة صحيحة من كتاباتهم وأثنى على فقيه آخر لأنه اقتبس نصاً إسماعيلياً اقتباساً صحيحاً، وبالطبع فإن وجهة نظر الرازى ليست بالضبط أن الإسماعيليين على صواب ولكنه يريد أن يقول إنه ينبغى فى الخصومات الدينية أن تكون مؤسسة على معلومات صحيحة وفهم ذكى لوجهة نظر الخصم.

وفى تلك الأثناء كانت هناك تغيرات سياسية كبرى تأخذ مجراها فى بلاد الإسلام الشرقية، فقد أخذت فى الانحلال السلطنة السلجوقية الكبرى التى استطاعت لفترة أن تحافظ على وحدة الإسلام السنى وتأكيد هدفه، وبدأ يظهر محلها نظام جديد من الإمارات التى أسسها أمراء أو قواد سلاجقة، وأيضاً وبدرجة متزايدة رؤساء القبائل التركمانية البدوية الذين دفعتهم الموجات المتتالية من الهجرة التركية إلى الانحدار

من آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط، وبدا التوسع التركى لفترة كأنه وصل إلى حدوده الإقليمية القصوى، فقد تحطم وانهار النظام الإمبراطورى السلجوقى ولكن استمر التغلغل التركى فى تعميق وتدعيم الانتصار الذى تحقق بالفعل ولم يؤد تغيير النظام إلى أى تغيير فى الجوهر، فقد وجد الأمراء المتتابعون -سواء كانوا من العناصر المحلية أو التركمانية- أنه من الأيسر لهم أن يحتفظوا بالممارسات السياسية والعسكرية والإدارية التى كان يسير عليها السلاجقة بما فى ذلك الالتزام القوى بالإسلام السنى السلفى، وهنا وهناك حيث يقل عدد الأتراك كانت الجماعات المحلية ذات الأصل الفارسى أو التركى أو العربى ترفع رءوسها وتحقق قدراً من الاستقلال، ولكن الرؤساء الترك رغم انقسامهم السياسى واصلوا انتهاج هدفهم المشترك وهو انتزاع القيادات المحلية القديمة والحلول محلها، وحققوا فى ذلك نجاحاً كبيراً.

وقرابة نهاية القرن الثانى عشر ظهرت فى الشرق قوة جديدة، فإلى الجنوب من بحر أرال Aral توجد بلاد خوارزم Khorazm وهى موطن حضارة مزدهرة قديمة يحميها سياج من الصحارى من أن تتأثر بالتقلبات التى كانت تهز البلاد المجاورة، وكان الأتراك قد هزموا خوارزم واستعمروها كما فعلوا بمعظم آسيا الوسطى، وكانت أسرتها المالكة تنحدر من مملوك تركى بعث به السلطان السلجوقى الكبير ملكشاه إلى هناك حاكماً على خوارزم، ولكن حكام هذا الإقليم استقلوا بمصالحهم وارتبطوا بشخصيته المحلية واستخدموا لأنفسهم اللقب المحلى القديم خوارزمشاه «أى شاه خوارزم» كتابعين فى أول الأمر لدول كبرى ثم كحكام مستقلين، وكانت مملكة خوارزم- بين الفوضى العامة السائدة فى المنطقة- تبدو برخائها وقوتها العسكرية بلد أمن واستقرار، ولم يمض

وقت طويل حتى أحس شاه خوارزم بأن عليه أن يبسط بركات حكمه إلى بلاد وشعوب أخرى، وهكذا ما إن حل عام ١١٩٠ حتى كان تكيش Tekish شاه خوارزم قد احتل خراسان وأصبح بذلك سيداً على إيران الشرقية وقوة كبيرة فى عالم الإسلام، ولما كان الخليفة الناصر فى بغداد قد تأذى كثيراً من أفعال آخر سلاجقة إيران طغرل الثالث Tughrul III لذا ناشد تكيش أن يهب إلى مساعدته، وهكذا تهيأت الفرصة للجيوش الخوارزمية للتقدم غرباً واحتلال الرى وهمدان، وقد لقى آخر السلاجقة هزيمته ومصرعه فى الرى عام ١١٩٤ .

لقد ظل السلاجقة طوال قرن ونصف القرن منذ ظهورهم يعتبرون سلطنتهم العظيمة التى أنشأوها جزءاً مقبولاً من السلطة الإسلامية، ولكن بوفاة آخر السلاجقة ظهر فراغ سياسى فى المنطقة التى كانوا يحكمونها وأصبح واضحاً أن الشخص الذى يمكن أن يملأ هذا الفراغ هو تيكيش شاه خوارزم المنتصر. وبعث تيكيش برسالة إلى الخليفة الناصر فى بغداد يطلب فيها أن يعترف به سلطاناً على إيران مكافأة له على خدماته الجليلة، ولكن الناصر كانت لديه أفكار أخرى، وهكذا فإن تيكيش الذى كان يأمل أن يتحول من حليف للخليفة إلى حام له وجد نفسه بدلاً من ذلك خصماً للخليفة يناصبه العداء.

والواقع أنه منذ ولاية الناصر الخلافة فى عام ١١٨٠ أحرزت الخلافة العباسية صحوة بارزة ودفعة إلى الأمام، فقد ظل الخلفاء قرابة ثلاثة قرون مجرد دمى متحركة كرءوس رمزيين للإسلام السنى فى أيدى الحكام العسكريين والأمراء ثم السلاطين، ولكن انهيار سلطة السلاجقة فى العراق أتاح فرصة للناصر سرعان ما استغلها، وكان له هدفان: أن يستعيد الوحدة الدينية للإسلام وعلى رأسها السلطة الروحية للخليفة

وأن ينشئ «إمارة خليفية» فى العراق تحت سيطرته الفعالة حتى يستخدمها كقاعدة لسياساته الدينية، أى تكون بمثابة «دولة كنيسة» محررة من أى سيطرة أو نفوذ من الخارج. وقد استطاع الناصر أن يحقق الهدف الثانى- وهو الهدف المحدود- عن طريق العمل السياسى والعسكرى ضد طغرل ثم تيكيش. أما الهدف الأول- وربما الأساسى- وهو استعادة الوحدة الإسلامية، فقد سعى له بسلسلة من المبادرات الدينية والاجتماعية والتعليمية بما فى ذلك التقرب إلى الشيعة الاثنى عشرية والإسماعيلية، وأحرز مع الآخرين قدراً مدهشاً من النجاح.

حكم جلال الدين حسن

فى أول سبتمبر ١٢١٠ مات سيد ألموت محمد الثانى- ربما مسموماً- وخلفه ابنه جلال الدين حسن، وكان الابن حتى فى حياة أبيه قد أبدى علامات على عدم رضاه عن نظريات وممارسات «القيامة»، كما أبدى رغبة فى قبول الأخوة الإسلامية بمعناها الواسع. يقول الجوينى: «إنه منذ صغره عينه أبوه كخليفة له، ولما شب ظهرت عليه دلائل النجابة ورفض عقائد أبيه وشعر بالاستياء من عادات الكفر والانحلال، ولما أحس أبوه بمشاعره دبت بينهما العداوة وأصبح كل منهما يكره الآخر ولا يثق فيه.. والآن أقدم جلال الدين حسن- سواء بدافع من عقائده السلفية أو بدافع من كراهيته لأبيه- على التآمر ضد أبيه (محمد الثانى) وبعث سراً برسائل إلى الخليفة فى بغداد وسلاطين وحكام البلاد الأخرى يبلغهم فيها أنه على العكس من أبيه يؤمن بالإسلام وعندما يأتى دوره فى الحكم سوف يلغى الكفر ويعيد اعتناق الإسلام.. ومنذ أول

لحظة له فى الحكم جاهر جلال الدين بإسلامه ووبخ شعبه وحزبه بشدة على إلحادهم، وحظر عليهم مواصلة ما هم فيه، وحثهم على اعتناق قواعد الدين واتباع تعاليم الشريعة، وأرسل مبعوثين إلى الخليفة فى بغداد ومحمد خورازمشاه والملوك والأمراء فى العراق وفى كل مكان يبلغهم بهذه التغييرات، ولما كان قد مهد الطريق أثناء حياة أبيه بإعلانه موقفه لهم جميعاً لذلك فقد صدقوا كلمته، خاصة فى بغداد حيث صدر مرسوم يؤكد اعتناقه الإسلام وعومل بكل تقدير واحترام وخوطب فى المراسلات بألقاب الشرف وأصبح يعرف باسم جلال الدين المسلم الجديد، وأصبح أتباعه يعرفون فى عصره «بالمسلمين الجدد». وقد يستطيع المحلل النفسانى هنا أن يلاحظ أنه فى الوقت الذى كان فيه جلال الدين حسن مختلفاً عن أبيه كان شديد الارتباط بأمه التى كانت امرأة سنية مؤمنة.

وكان من الطبيعى أن يبدى أهل قزوين شيئاً من الشك فى حقيقة هذا التحول إلى الإيمان من جانب جيرانهم وأعدائهم القدامى، وتحمل جلال الدين حسن مشاق عظيمة من أجل إقناعهم بإخلاصه، فقد بعث مباشرة إلى أعيان المدينة محرضاً لهم على إرسال وفد إلى «ألموت» لفحص ما تحتويه مكتبتها من مؤلفات وإبعاد ما لا يروق لهم من الكتب، وقد كان منها مؤلفات وضعها حسن الصباح وغيره من أئمة الإسماعيلية من أجداد وأسلاف جلال الدين، يقول الجوينى: «إن جلال الدين أمر بهذه الكتب فأحرقت فى حضور أهل قزوين وبإرشادهم وصب الشتائم واللعنات على آبائه ومؤلفى هذه الكتب، وقد شاهدت بنفسى خطاباً فى أيدى أعيان قزوين وقضاتها كان قد أملاه جلال الدين حسن وأعلن فيه اعتناق الإسلام وقبوله فرائض الشريعة وبراءته من كفر

آبائه وأسلافه ومعتقداتهم، وقد كتب عليه جلال الدين بخط يده بضع كلمات تؤكد تخليه عن ديانتهم، وعندما كان يذكر أسماء آبائه وأسلافه يضيف قائلاً: «فليملأ الله قبورهم بالنار» أو «فلينزلهم الله منازل الجحيم»!

وقامت أم جلال الدين بالحج فى عام ٦٠٩ (١٢١٢ - ١٢١٣م) حيث عوملت بتقدير واحترام بالغين فى بغداد، ولكن كان من سوء الحظ أن زيارتها لمكة اقترنت باغتيال ابن عم شريف مكة، ولما كان الشريف يشبه ابن عمه المقتول شبهاً كبيراً، لذلك فقد اقتنع الشريف بأنه هو الذى كان مقصوداً بالقتل، وأن القاتل فدائى إسماعيلى أرسله الخليفة لهذا الغرض، فاستبد به الغضب وهاجم ونهب قوافل الحجاج العراقيين وفرض عليهم غرامات ثقيلة دفعت معظمها السيدة القادمة من «ألموت»، ولكن بالرغم من هذا الحادث المؤسف استطاع جلال الدين أن يحتفظ بمحالفاته الإسلامية وعقد أواصر صداقة وثيقة مع حاكم أران Arran وأذربيجان Azerbayjan وتبادل معه الهدايا ومختلف المساعدات واشتركا معًا فى قتال عدوهما المشترك حاكم غرب إيران وقد وجدا فى ذلك تأييداً من الخليفة العباسى فى بغداد عندما طلبا مساعدته.

وقدم الخليفة مساعدة أخرى من نوع مختلف لجلال الدين حسن.. «فإن جلال الدين بعد أن أقام عامًا ونصف العام فى العراق وأران وأذربيجان عاد إلى ألموت، وخلال رحلاته وإقامته فى هذه البلاد ازداد قبول المسلمين له كمسلم وأصبح فى مكنته أن يختلط بهم بحرية وشجعه هذا أن يطلب من أمراء جيلان Gilan أيدى بناتهم للزواج» وكان من الطبيعى أن يتردد الأمراء فى قبول أو رفض عرض هذا

الخطيب المشكوك فيه، فتظاهروا بأن علقوا رضاهم على موافقة الخليفة، فقام على الفور مبعوث من «ألموت» إلى بغداد، ورد الخليفة بالموافقة على زواج بنات الأمراء من جلال الدين «على سنة الله ورسوله» واستطاع جلال الدين بهذا المرسوم أن يحصل على أربع أميرات جيلانيات كزوجات له، ولإحداهن حق إنجاب الإمام اللاحق.

من هذه المغامرات الدينية والعسكرية والزواجية نستدل على قوة مركز جلال الدين حسن، لقد ألغى «القيامة» وأعاد «الشريعة» بمرسوم لا يقل فجاءة واكتساحًا عن المرسوم الذى أعلنت به، وأطاعه أتباعه فى ذلك سواء فى كوهستان أو سوريا أو رودبار، وغادر ألموت كما لم يفعل أحد من سابقيه حيث أقام عامًا ونصف عام بالخارج دون أن يقع له حادث مؤسف واحد، وبدلاً من أن يبعث بالفدائيين لقتل القواد وعلماء الدين كان يبعث بالجيوش لفتح المدن والأقاليم، ثم أقام المساجد والحمامات فى القرى ليكمل تحويل أرضه من وكر للقتلة إلى مملكة محترمة تربطها روابط التحالف والمصاهرة بجيرانها.

وقد بدل جلال الدين من تحالفاته شأن غيره من الحكام المحليين، إذ يبدو أنه فى أول الأمر كان يؤيد خورازمشاه بل ودعا باسمه فى صلاة الجمعة بمساجد رودبار، ثم حول ولاءه إلى الخليفة العباسى فى بغداد وقدم له خدمات عديدة بما فى ذلك اغتيال أمير متمرد دخل فى خدمة خورازمشاه وشريف مكة، وأخيراً سارع إلى الاعتراف والاحتماء بقوة رهيبة جديدة تنبثق فى الشرق إذ يقول الجوينى: « ويقول الإسماعيليون إنه قبل أن يخرج الخان الأكبر جنكيز خان من تركستان إلى ديار الإسلام أوفد إليه جلال الدين سراً مبعوثين يحملون خطابات مكتوبة تعبر عن خضوعه له وولائه، هذا ما يقوله الملاحدة ولا أعرف مدى

صحته، ولكن من الواضح أنه عندما دخلت جيوش جنكيز خان بلاد المسلمين كان أول حاكم يرسل إليه السفراء ويقدم الهدايا ويقبل الولاء هو جلال الدين».

وفى نوفمبر ١٢٢١ بعد حكم دام عشر سنوات مات جلال الدين حسن. «وكان المرض الذى أودى بحياة جلال الدين حسن هو «الدوسنتاريا» وقامت الشبهات بأنه سمم بواسطة زوجاته وبالاتفاق مع أخته وبعض أقاربه، ولذلك فإن وزيره الذى يشرف على المملكة - وكان وصياً على ابنه علاء الدين - أقدم على قتل عدد كبير من أقارب جلال الدين ومنهم أخته وزوجاته بهذه الشبهة وأحرق بعضهم».

وهناك تفسيرات مختلفة لعودة جلال الدين إلى احترام الشعائر الدينية وتصالحه مع السنة والخلافة، فالجوينى وغيره من مؤرخى السنة الفرس يعتقدون بصدق تحوله الدينى رغبة منه فى نبذ معتقدات أسلافه الفاسدة وطرقهم وإعادة قومه إلى طريق الإسلام الصحيح الذى نبوا عنه، ويبدو أن الخليفة نفسه كان مقتنعاً بحسن نية جلال الدين حسن، فإنه بتدخله لتأييد زواجه من أميرات جيلان وتكريمه لأمه أثناء قيامها بالحج قد أعرب عن محاباة له أكثر مما تقتضيه ضرورة التحالف، وحتى أهل قزوين الذين أعربوا عن شكوكهم فيه أول الأمر عادوا فسلموا بإخلاصه. ولكن المؤرخ النمسوى جوزيف فون هامر الذى عاش بعد ذلك بستة قرون فى ڤيينا أثناء حكم مترنيخ كان أقل اقتناعاً بإخلاص جلال الدين فى تحوله من الإسماعيلية إلى الإسلام، وكان يعتقد أن ذلك لم يكن أكثر من نفاق وسياسة مرسومة لإعادة الثقة فى نظامه الذى عراه رجال الدين وقاطعه الأمراء، وللحصول على لقب أمير بدلاً من لقب الشيخ، ويعتقد فون هامر أن جلال الدين فعل مثلما فعله

الجيزويت الذين أقدموا -حين هددوا بالطرد من البرلمان والحرمان من الفاتيكان- على إنكار معتقداتهم ولعنها علناً وقت أن كانوا يضمرونها سراً.

إن هذه التحولات تحتاج كذلك إلى تفسير من وجهة نظر الإسماعيليين، فالإسماعيلية لم تكن مجرد إمارة إقليمية تخضع لرئيس مخلص حتى لو كانت تلك هى صورتهم فى العالم الخارجى، كما أنهم لم يكونوا مجرد عصابة من المتآمرين والقتلة وإنما كانوا أتباعاً مؤمنين بدين معين له ماض يفخرون به ورسالة عالمية يدعونها، وهم -ككل المؤمنين الأتقياء - كانوا يشعرون بالحاجة إلى المحافظة على قلعة عقيدتهم سليمة، وهذا يتطلب إعطاء دلالة وتفسير دينيين لكل هذه التحولات من الشريعة إلى القيامة، ومن القيامة إلى اتباع السنة ثم العودة إلى الإسماعيلية المقيدة بالدين.

إن الإجابة على ذلك تكمن فى مبدأين: نظرية التقية أى إخفاء المعتقدات الحقيقية للفرد فى مواجهة الخطر، والفكرة الإسماعيلية القديمة عن تتابع فترات الاستتار والسفر والتى تتجاوب مع فترات الالتزام بالقانون الخارجى أو الحقيقة الباطنة، وكل من هذه الفترات يعلنها إمام يأتى بتعليمات جديدة، يقول مؤلف إسماعيلى من القرن الثالث عشر: «إن فترة كل نبى يلتزم بالأشكال الخارجية للقانون القدسى تسمى فترة احتجاب، أما فترة كل قائم يظهر الحقائق الباطنة لتعاليم الأنبياء فتسمى القيامة» وهكذا فإن فترة احتجاب جديدة تكون قد بدأت فى عام ١٢١٠ باعتلاء جلال الدين حسن حكم الإسماعيليين، وفى ذلك الحين لم يكن الأئمة وحدهم هم المستترين كما حدث فى فترات الاحتجاب السابقة وإنما أيضاً الطبيعة الحقيقية للدعوة الإسماعيلية ذاتها،

وعندما تستر الحقيقة الباطنة لا يهم كثيراً شكل الولاء الخارجى الذى يتبناه معتنقو الدعوة.

حكم علاء الدين محمود

عند وفاة جلال الدين خلفه ابنه الوحيد علاء الدين محمود، وكان صبيًا فى التاسعة، وظل وزير أبيه جلال الدين هو الحاكم الفعلى لألموت مدة من الزمن، ويبدو أنه حافظ على سياسة الوفاق مع العالم السنى، ولكن بدأت تتجمع فى الأفق رياح رد الفعل، فلم يعد احترام الشريعة يفرض بالقوة فى الممتلكات الإسماعيلية، بل وهناك ما يدل على أنهم كانوا يشجعون على عكسه، وقد عزا الجوينى وغيره من المؤرخين الفرس هذه التغيرات إلى الإمام الجديد «والآن كان علاء الدين صبيًا لم يتلق قدراً من التعليم، وهم -طبقًا لمعتقداتهم الفاسدة- يرون أن الإمام معصوم سواء كان طفلاً أو شابًا أو شيخًا وكل ما يقوله أو يفعله صحيح.. وطبقًا لذلك فإن أحداً لم يكن يجرؤ أن يعترض على أى طريق يسلكه علاء الدين ولم يسمحوا لأحد بأن يؤدبه أو ينصحه أو يهديه إلى الصواب... فوقعت مقاليد الأمور فى أيدى النساء، وأطيح بالأسس التى أرساها أبوه، وهؤلاء الذين كانوا خوفًا من أبيه يظهرون احترام الشريعة والإسلام ولكنهم يضمرون فى قلوبهم الغافية وأذهانهم المظلمة الإيمان بالعقيدة المألوفة التى جاء بها جده.. هؤلاء وقد رأوا الآن أن أحداً لا يمنعهم ولا يحول دونهم وارتكاب الخطايا الممنوعة.. عادوا مرة أخرى إلى إلحادهم واستعادوا قوتهم، أما الآخرون الذين قبلوا الإسلام عن اقتناع فقد خافوا وعادوا إلى إخفاء حقيقة أنهم مسلمون»!

«وبعد أن حكم هذا الصبى زهاء خمس أو ست سنوات أصابته لوثة عقلية، ولكن أحداً لم يجرؤ على معارضته، وأخفيت عنه كل شئون مملكته فى الداخل والخارج، ولم يجرؤ مستشار واحد أن ينطق بكلمة أمامه، وأصبحت السرقة وقطع الطريق والاعتداءات حوادث يومية شائعة فى مملكته سواء بعلمه أو بغير علمه، وقد ظن أن فى إمكانه أن يصفح عن هذا السلوك مقابل كلمات زائفة أو منح المال، وعندما تجاوزت هذه الأشياء كل الحدود خسر حياته وزوجاته وأبناءه وبيته ومملكته وثروته بسبب هذا الخبل والجنون».

ولكن على الرغم من هذه المتاعب كان لا يزال هناك زعماء قادرون على تسيير شئون الفرقة، ويعتبر حكم علاء الدين فترة نشاط ذهنى وسياسى على السواء، فالمعروف أن من واجبات الحاكم المسلم وأمجاده أن يرعى العلوم والمعرفة، ولم يكن الأئمة الإسماعيليون بالذين يتخلفون فى هذا المضمار، ولقد كانت مكتبة «ألموت» عامرة بالكتب ومشهورة فى عصرها- حتى إن الجوينى على عدائه الشديد للإسماعيليين يعترف بإعجابه بها- وفى تلك الفترة اجتذبت المكتبة عدداً من الدارسين القادمين من الخارج ومن أبرزهم الفيلسوف والفقيه والفلكى نصر الدين الطوسى (١٢٠١- ١٢٧٤) الذى مكث هناك عدداً من السنين، وفى ذلك الوقت كان يؤخذ على أنه إسماعيلى، وقد كتب فى الواقع عدة رسائل إسماعيلية لا تزال مقبولة لدى الفرقة، ثم ادعى فيما بعد أنه من الشيعة الاثنى عشرية وأن اتصاله بالإسماعيليين كان على غير إرادته، ولا ندرى أيًا من الزعمين كان من باب «التقية»!

خلال السنوات الأولى من حكم علاء الدين كان الوضع فى ايران مناسباً لمزيد من التوسع الإسماعيلى، فالإمبراطورية الخورازمية كانت قد

تحطمت لتوها تحت ضغط الغزو المغولى، وبينما كان السلطان جلال الدين آخر ملوك خوارزم يحاول عبثًا ترميم مملكته المحطمة تمكن الإسماعيليون بنجاح من توسيع رقعة ممتلكاتهم، فاحتلوا فى هذا الوقت تقريبًا مدينة دمغان بالقرب من قلعة غيردكوه، ويبدو أنهم حاولوا الاستيلاء على الرى، ولكن فى عام ١٢٢٢ قام الخوارزميون بمذبحة ضد دعاة الإسماعيلية فى المدينة.

فى عام ١٢٢٧ أرغم السلطان جلال الدين الإسماعيليين على قبول هدنة وأن يدفعوا له جزية عن مدينة دمغان، وكان قد حدث قبل ذلك بقليل أن اغتيل قائد خورازمى يدعى أورخان Orkhan انتقامًا لغارات شنت على مستوطنات الإسماعيليين فى كوهستان، ويقدم النسوى واضع ترجمة جلال الدين خورازمشاه صورة حية لما حدث قائلا: «هاجم ثلاثة فدائيين أورخان وقتلوه خارج المدينة ثم دخلوا المدينة شاهرين خناجرهم فى أيديهم وهم يهتفون باسم علاء الدين حتى وصلوا إلى بوابة (الوزير) شرف الملك يريدون قتله، ودخلوا إلى مبنى الإدارة ولكنهم لم يجدوه إذ كان فى هذه اللحظة فى قصر السلطان، فأصابوا خادما واندفعوا خارجين مرة أخرى وهم يصيحون ويتبجحون بنجاحهم، فأخذت العامة تقذفهم بالطوب من أسطح المنازل حتى قتلوهم رجمًا وهم يصيحون حتى النفس الأخير: «نموت فداء لسيدنا علاء الدين».

وفى تلك الأثناء كان بدر الدين أحمد مبعوث «ألموت» فى طريقه لرؤية السلطان، ولما سمع بما حدث شعر بالقلق إزاء احتمالات استقبال السلطان له فكتب إلى الوزير شرف الملك يسأله النصيحة فيما إذا كان يواصل رحلته أو يقفل عائدًا، أما الوزير فقد خاف بدوره على حياته فأعرب عن سعادته باستقبال المبعوث الاسماعيلى على أمل أن يقيه

وجوده معه «من المصير المشئوم والميتة المخيفة التى تعرض لها أورخان» ولذا فإنه حث المبعوث الإسماعيلى على الالتحاق به ووعده أن يفعل كل ما فى جهده لمساعدته فى مهمته.

وسافر الاثنان معًا، والوزير يبذل كل جهده ليفوز بالحظوة لدى ضيفه المروع، ولكن صداقتهما على أية حال شابها حادث غير سعيد فـ «عندما وصلا إلى سهل سيرات Serat وبينما كانا يشربان وقد لعبت الخمر برأسيهما قال بدر الدين: إن لنا فدائيين فى كل مكان حتى هنا فى جيشك الخاص، إنهم مدربون جيدًا، وأنت تعتقد أنهم من أخلص رجالك، بعضهم فى إسطبلات خيلك وبعضهم فى خدمة أكبر مرافقى السلطان»، فأصر شرف الملك على معرفتهم وأعطاه منديله كإشارة أمان، وعندئذ استدعى بدر الدين خمسة فدائيين كانوا متخفين بين رجال شرف الملك، وعندما قدموا قال أحدهم- وهو هندى وقح- لشرف الملك: لقد كان فى استطاعتى أن أقتلك يوم كذا وكيت وفى مكان كذا وكيت ولكنى لم أفعل لأننى لم أكن قد تلقيت بعد الأمر بذلك» وعندما سمع شرف الملك هذه الكلمات ألقى بعباءته وجلس أمامهم فى قميصه، وقال: «لماذا هذا؟ ماذا يريد علاء الدين منى؟ لأى ذنب أو تقصير من جانبى يتعطش لدمى؟ إننى عبده كما أنا عبد السلطان وهأنذا أمامكم، افعلوا بى ما تشاءون!» ووصل خبر ما حدث إلى السلطان فشعر بالغضب لخسة شرف الملك ودناءته فبعث إليه على الفور يأمره بأن يحرق الفدائيين الخمسة أحياء، فاستشفع فيهم الوزير عبثًا ولم يكن هناك بد من تنفيذ أوامر السلطان «فأشعلت نار عظيمة أمام مدخل خيمته وجىء بالرجال الخمسة وألقوا فيها، وفيما هم يحترقون كانوا يصيحون: «نموت فداء لسيدنا علاء الدين!» ثم غادرت أرواحهم أجسادهم التى

تحولت إلى رماد تذروه الرياح» وكاحتياط إضافى أعدم السلطان كبير مرافقيه عقاباً له على إهماله.

وقد شاهد النسوى ما حدث شخصيًا بعد ذلك، فيقول فى كتابه «تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتى».. «وذات يوم كنت مع شرف الملك فى برذعة Bardha'a عندما جاء إليه مبعوث من «ألموت» يدعى صلاح الدين وقال: «إنك أحرقت خمسة من فدائيينا، فإذا أردت السلامة فعليك أن تدفع دية دمائهم ١٠ آلاف دينار عن كل منهم» هذه الكلمات أرعبت وأزعجت شرف الملك حتى عجز عن كل فكر وعمل، وبعد ذلك أغرق المبعوث بالهدايا الثمينة وأوسمة الشرف ثم أمرنى أن أكتب خطابا رسميا يخول فيه للإسماعيليين أن يقتطعوا ١٠ آلاف دينار سنويا من الجزية التى يدفعونها لخزينة السلطان والتى تبلغ ٣٠ ألف دينار كل عام ومهر شرف الملك الوثيقة بخاتمه».

لم يستمر الاتفاق بين خورازمشاه والإسماعيليين طويلا إذ سرعان ما استمرت المنازعات المتقطعة مع السلطان جلال الدين فى الوقت الذى أنشأ فيه الإسماعيليون علاقات ودية مع العدوين الرئيسيين للخورازميين وهما الخليفة فى الغرب والمغول فى الشرق، وفى عام ١٢٢٨ كان المبعوث الاسماعيلى بدر الدين يسافر شرقا نحو بلاط المغول حين أوقف الخورازميون قافلة اسماعيلية متجهة غربًا وتضم ٧٠ رجلا فذبحوهم عن بكرة أبيهم بدعوى أن مبعوثًا مغوليًا إلى الأناضول يسافر معهم متخفيًا، واستمرت المشاحنات بين الإسماعيليين والخورازميين سنين طويلة تزيد من اشتعالها -بين حين وحين- الحروب والاغتيالات والمفاوضات.

وفى إحدى المناسبات أرسل النسوى كمبعوث إلى «ألموت» ليطلب دفع الباقى عليهم من الجزية التى يدفعونها عن دمغان، وهو يصف

مهمته ببعض الرضا فيقول: «إن علاء الدين فضلنى على كل مبعوثى السلطان الآخرين وعاملنى بتقدير واحترام بالغين وأكرمنى غاية الكرم فضاعف لى من الهدايا وأثواب الشرف وكان يقول: «هذا رجل فاضل والكرم مع أمثاله لا يضيع» إن قيمة الأشياء التى منحنى إياها نقداً وعيناً تبلغ حوالى ثلاثة آلاف دينار ومنها حلتا شرف كل منهما تتكون من عباءة حريرية وقلنسوة وفراء ورداء خارجى، إحداهما موشاة بالحرير والأخرى بالكريب الصينى، وحزامان ثمنهما ٢٠٠ دينار و ٧٠ قطعة من الملابس وحصانان بكامل عدة ركوبهما من سرج وعنان وطاقم، وألف دينار ذهبا وأربعة خيول مزركشة، ومجموعة من الجمال البكتيرية، وثلاثون رداء شرف لمعيتى»... وحتى إذا افترضنا فى هذه الهدايا شيئاً من المبالغة فإنها تدل بوضوح على أن سيد «ألموت» كان يتمتع بالكثير من الأشياء الجميلة فى هذا العالم.

لم يكن الصراع مع خورازمشاه هو ما يشغل فقط بال الإسماعيليين، بل دخلوا أيضًا فى منازعات مع جيرانهم الأقربين حكام جيلان الذين ساءت العلاقات معهم إثر أحكام الإعدام المتسرعة التى نفذت فى الأميرات الجيلانيات بعد وفاة جلال الدين حسن، وقد استطاع الإسماعيليون لبعض الوقت اكتساب بعض الأراضى الإضافية من جيلان حول تاريم Tarim، ولكن من ناحية أخرى كانت العلاقة مع أعدائهم القدامى فى قزوين مسالمة إلى حد كبير، ومما يدعو إلى شىء من الدهشة أن علاء الدين محمد كان تلميذاً مخلصًا لشيخ يقيم فى قزوين وكان يرسل إليه سنوياً منحة مقدارها ٥٠٠ دينار ذهبى ينفقها الشيخ على مأكله ومشربه، وعندما أنب أهل قزوين الشيخ لمعيشته على مال الملاحدة رد هذا قائلا: «إن الأئمة أحلوا دماء الكفار وأموالهم وبالتأكيد

فإنها تصبح أكثر حلالا إذا دفعوها من تلقاء أنفسهم» وكان علاء الدين يقول لأهل قزوين إنه يبقى على مدينتهم فقط لخاطر الشيخ «ولولاه لكنت قد حملت تراب قزوين إلى قلعة ألموت فى السلال».

وبالرغم من الحروب والإغارات والاغتيالات لم ينس الإسماعيليون هدفهم الأول وهو التبشير بعقيدتهم وتحويل المزيد من الناس إليها، وفى ذاك الوقت تقريبًا أحرزوا نجاحًا مهمًا بزرع عقيدتهم فى الهند، لقد كانت «الدعوة القديمة» للإسماعيلية المستعلية وطيدة الأركان فى الهند وخاصة على شواطئ «جوجيرات» منذ أجيال، ولكن بعثة تبشيرية وصلت من إيران تدعو إلى «الدعوة الجديدة» النزارية فى شبه القارة الهندية التى أصبحت فيما بعد المركز الرئيسى لفرقتهم.

يصور الجوينى وغيره من مؤرخى السنة الفرس علاء الدين فى صورة عدائية للغاية، فيظهرونه كشخص دنىء سكير تهاجمه نوبات من العته والجنون، وفى سنواته الأخيرة دخل فى صراع مع ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه الذى كان قد عينه وهو طفل ليخلفه فى الإمامة، وقد حاول علاء الدين فيما بعد أن يلغى تعيينه ويعين واحدًا آخر من أبنائه ولكن الإسماعيليين «تمسكا بمعتقداتهم رفضوا أن يقبلوا ذلك وقالوا إن التعيين الأول وحده هو الصحيح».

وتفجر الصراع بين الأب والابن فى عام ١٢٥٥، ففى هذا العام «ازداد جنون علاء الدين سوءًا وزاد سخطه على ركن الدين... وشعر ركن الدين أن حياته غير آمنة... وعلى هذا الأساس دبر أن يهرب من وجهه ويذهب إلى قلاع سوريا ويستولى عليها، أو أن يستولى على «ألموت» ومايمونديز وغيرهما من قلاع رودبار المليئة بالكنوز والمؤن... ويثور على أبيه... وكان معظم الوزراء والكبراء يترقبون منه الشر ولم يكن أحدهم آمنًا على حياته».

«واستطاع ركن الدين أن يجد حجة يستخدمها كطعم للحصول على مناصريه فكان يقول: إنه بسبب السلوك الشرير لأبى فإن جيش المغول ينوى مهاجمة هذه المملكة، وأبى لا يهتم بشىء، ولذلك فإننى سوف أنشق عليه وأرسل المبعوثين إلى إمبراطور وجه الأرض (خان المغول) وإلى خدام بلاطه وأعلن له الخضوع والولاء، وسوف لا أسمح لأحد فى مملكتى بأن يرتكب عملا شريرًا وبذلك أضمن سلامة الأرض والناس».

وأمام هذه الورطة وافق زعماء الإسماعيلية على تأييد ركن الدين حتى ضد أبيه. ولكن تحفظهم الوحيد كان ألا يمس علاء الدين نفسه فالإمام -حتى إذا كان مخبولاً- يعد بالغ القداسة - ومجرد المساس به يعد قمة أعمال الدنس والخيانة.

ولحسن الحظ لم يثر هذا الخيار الرهيب أمام الإسماعيليين أو معظمهم على الأقل، فلم يكد يمضى شهر على هذا الاتفاق حي مرض ركن الدين ولزم الفراش، وبينما كان ظاهر العجز على هذا النحو اغتيل والده علاء الدين أثناء نومه مخمورا بواسطة قتلة مجهولين، حدث ذلك- طبقًا للجونى- فى أول ديسمبر ١٢٥٥ وأثار اغتيال رئيس الحشاشين فى عقر داره اتهامات وشبهات جامحة وتم إعدام عدد من تابعى الإمام القتيل الذين وجدوا على مقربة من مكان الحادث، بل قيل إن مجموعة من أوثق خلصائه تآمروا على قتله وأحضروا أناسًا خارجيين من أهل قزوين إلى ألموت لتنفيذ الجريمة. ولكنهم فى النهاية اتفقوا على من هو القاتل «إذ بعد مضى أسبوع اتضحت العلامات والشبهات، واتفق بالإجماع على أن حسن المازندارينى - الذى كان أوثق المقربين إلى علاء

الدين ورفيقه الذى لا يفارقه ليلا أو نهارا وكاتم أسراره- هو الشخص الذى قتله، وقيل كذلك إن زوجة حسن- التى كانت عشيقة لعلاء الدين والتى لم يخف عنها حسن سر قتله لعلاء الدين- هى التى كشفت السر لركن الدين، ومهما يكن من أمر فلم يمض أسبوع حتى أعدم حسن وأحرقت جثته كما أحرقت عدد من أبنائه- ابنتان وولد- وحكم ركن الدين مكان أبيه».

المغول وركن الدين

خلال السنوات الأخيرة من حكم علاء الدين محمد اقترب الإسماعيليون أكثر فأكثر من المواجهة النهائية مع أخطر الأعداء طرا وأكثرهم إرهابا ورعبا... المغول. ففى عام ١٢١٨ وصلت جيوش جنكيز خان حاكم الإمبراطورية الجديدة التى ظهرت فى شرق آسيا إلى نهر Jaxartes وأصبحوا الجيران المباشرين لخورازمشاه ولم يلبث أن وقع حادث حدود يعطى الذريعة للمغول للتقدم غربا من جديد، وهكذا، فى عام ١٢١٩، عبر جنكيز خان بجيوشه نهر Jaxartes إلى أراضى الإسلام، وفى عام ١٢٢٠ استولى على المدن الإسلامية القديمة فى سمرقند وبخارى ووصل إلى نهر Oxus، وفى العام التالى اجتاز Oxus واستولى على بلخ ومرو ونيسابور، وجعل من نفسه سيدا على كل شرق إيران، وعندما مات جنكيز خان فى ١٢٢٧ حدثت هدنة صغيرة لم يلبث أن قطعها خليفته فى عام ١٢٣٠ بشن هجوم جديد على الدولة الخورازمية المتداعية، وما إن حل عام ١٢٤٠ حتى كان المغول قد أخضعوا غرب إيران وأخذوا يغزون جورجيا وأرمينيا وشمال العراق.

وجاء الهجوم الأخير فى منتصف القرن الثالث عشر، فقد أرسل الخان الأكبر- الذى كان يحكم حينئذ من بكين- حملة جديدة تحت قيادة الأمير المغولى هولاكو حفيد جنكيز خان مزودة بأوامر أن تخضع كل بلاد المسلمين حتى مصر، وخلال شهور قليلة كان فرسان المغول بشعورهم الطويلة يجتاحون كالعاصفة عبر إيران مدمرين كل ما فى طريقهم. وفى يناير ١٢٥٨ انقضوا على مدينة بغداد، وبعد محاولة يائسة قصيرة للمقاومة طلب آخر الخلفاء الرحمة عبثًا، فقد اندفع محاربو المغول ينهبون ويحرقون المدينة، وفى يوم ٢٠ فبراير جرى إعدام الخليفة وكل من عثر عليهم من أقاربه، وبهذا سقط البيت العباسى الذى حكم العالم الإسلامى السنى زهاء خمسمائة عام.

لم يكن أئمة ألموت - مثلهم فى ذلك كل الحكام المسلمين الآخرين فى ذلك العهد- مخلصين فى مقاومتهم للخطر الوثنى الهمجى الذى يمثله الغزاة المغول بالنسبة للإسلام، فالخليفة الناصر الذى كان فى حرب مع خورازمشاه سره ظهور ذلك العدو الجديد الخطير على الجانب الآخر من الإمبراطورية الخورازمية، وكذلك حليفه الإمام جلال الدين حسن كان من بين أوائل من بعثوا الرسائل إلى الخان معلنين حسن نيتهم وصداقتهم، ولكن فى بعض الأحيان كان الإسماعيليون فى الواقع يظهرون بعض التضامن مع جيرانهم السنة ضد الخطر الجديد. فعندما كان جنكيز خان يغزو شرق إيران أبدى الحاكم الإسماعيلى فى كوهستان ترحيبًا كريمًا باللاجئين السنيين فى معقله الجبلى الفسيح، كتب عنه زائر مسلم يقول: «لقد وجدته- أى حاكم كوهستان الإسماعيلى- رجلاً ذا علم واسع... ضليعًا فى الحكمة والعلم والفلسفة على نحو يندر وجوده فى إقليم خراسان، وقد تعود أن يبدى عطفًا كبيرًا

على أبناء السبيل والغرباء والمساكين ويحمى مسلمى خراسان الذين يلوذون به، وكان قصره يضم عدداً من أشهر علماء خراسان... وكان يعاملهم جميعًا باحترام وتوقير ويبدى لهم كثيراً من العطف، وخلال العامين أو الثلاثة أعوام من الفوضى فى خراسان أخرج من خزائنه وإسطبلاته ألف حلة شرقية وسبعمائة حصان بعدتها كاملة ووزعها على العلماء والغرباء المساكين» ومن الواضح أن قدرته على أن يفعل ذلك تدل على أن المراكز الإسماعيلية كانت تبدو آمنة من خطر الهجوم، ولكن سخاءه هذا جعل رعاياه يشكون إلى «ألموت» تبديد ثرائهم ويطلبون حاكماً آخر أقل تبذيراً فى أموال الإسماعيليين للأجانب وأجيبوا إلى طلبهم.

وعلى أية حال لم يستمر التفاهم بين الإسماعيليين والمغول طويلا، فالأسياد الجدد الذين ظهروا فى آسيا لم يكن فى استطاعتهم التسامح إزاء استمرار استقلال هذه الجماعة الخطرة الجهادية من ذوى العقيدة، كما لم يعدموا من بين أصدقائهم ومعارفهم مسلمين أتقياء يحذرونهم من الخطر الذى يمثله الإسماعيليون إذ يقال مثلا إن قاضى القضاة فى قزوين كشف أمام الخان عن قميص من الزرد وشرح له كيف أنه يرتديه طول الوقت تحت ملابسه توقيًا لخطر الاغتيال الماثل دائماً.

ولم تضع مثل هذه التحذيرات عبثاً، إذ سرعان ما ردت على أعقابها سفارة إسماعيلية كانت فى طريقها إلى البلاط الكبير فى منغوليا، ونصح قائد القوات المغولية فى إيران رئيسه الخان بأن أخطر عدوين له هما الخليفة والإسماعيليون، وفى كاراكوروم اتخذت احتياطات لحماية الخان ضد هجوم المبعوثين الإسماعيليين، وعندما قاد هولاكو حملته فى إيران عام ١٢٥٦ كانت القلاع الإسماعيلية أول أهدافه.

وقد شنت الجيوش المغولية فى إيران- بتشجيع من بعض المسلمين- هجمات على القواعد الإسماعيلية فى رودبار وكوهستان ولكنها لم تحرز فى البداية سوى نجاح محدود فقد صد الإسماعيليون بهجوم مضاد تقدم المغول فى كوهستان، كما فشل هجومهم على قلعة غيردكوه العظيمة فشلاً ذريعاً، والواقع أنه كان فى مقدور الإسماعيليين داخل حصونهم أن يبدوا مقاومة فعالة ضد هجمات المغول، ولكن الإمام الجديد قرر عكس ذلك.

كانت مسألة مقاومة المغول أو التعاون معهم واحدة من مسائل الخلاف الرئيسية بين ركن الدين خورشاه وأبيه علاء الدين محمد، وعندما تولى ركن الدين الحكم حاول أن يقر السلام مع جيرانه المسلمين «فأقدم – ضد نزعة أبيه – على إرساء أسس الصداقة مع هؤلاء الناس، وأرسل المبعوثين إلى كل أقاليمه يأمر الناس أن يتصرفوا كمسلمين ويبقوا الطرق مأمونة» وبعد أن أمن موقفه فى الداخل على هذا النحو أرسل مبعوثًا إلى يساعور نويان Yasa'ur Noyan قائد المغول فى همدان وأمره أن يبلغه «بأنه وقد جاء إلى الحكم يريد أن يتبع طريق الخضوع ويزيل غبار النفور عن ملامح الولاء».

ونصح يساعور ركن الدين أن يقدم خضوعه وولاءه إلى هولاكو شخصيًا، ولكن الإمام الإسماعيلى اقترح – كحل وسط – أن يبعث بأخيه شاهنشاه، وفى الوقت نفسه قام المغول بمحاولة فجة للتقدم فى رودبار ولكن الإسماعيليين استطاعوا من مواقعهم الحصينة أن يردوهم على أعقابهم فانسحبوا بعد أن دمروا المحاصيل، وفى الوقت نفسه قامت القوات المغولية بغزو كوهستان مرة أخرى واستولت على عدة مراكز إسماعيلية.

ثم وصلت رسالة من هولاكو تقول إن الخان غير مكتف بسفارة شاهنشاه، وهو يبلغ ركن الدين بأنه- أى الأخير- لم يرتكب جرماً ما وأنه إذا دمر قلاعه وقدم بنفسه ليقدم ولاءه شخصياً فإن الجيوش المغولية سوف تعفى أراضيه من الدمار. فحاول الإمام أن يساير التيار فهدم بعض قلاعه، ولكنه أحدث بعض الدمار الرمزى فى ألموت ومايمونديز ولامسار، وسأل أن يمنحه الخان مهلة سنة قبل أن يمثل أمامه شخصيًا، وفى الوقت نفسه أرسل أوامره إلى قواده فى غيردكوه وكوهستان «أن يقدموا أنفسهم إلى الملك ويعبروا له عن ولائهم وخضوعهم» ففعلوا ذلك ولكن قلعة غير دكوه ظلت فى أيدى الإسماعيليين ووصلت رسالة من هولاكو إلى ركن الدين يأمره أن يمثل أمامه فوراً فى داماڤند Damavand وإذا لم يستطع الوصول إلى هناك خلال خمسة أيام فعليه أن يرسل ابنه مقدماً.

وأرسل ركن الدين ابنه – وهو صبى فى السابعة – إلى خان المغول، ولكن هولاكو- وربما شك فى أن الولد هو ابن ركن الدين حقًا- أعاد الصبى بحجة أنه صغير جداً واقترح أن يرسل ركن الدين أحد إخوته الآخرين كى يفرج عن شاهنشاه، وفى الوقت نفسه كان المغول يتقدمون أكثر فأكثر صوب رودبار حتى إن رسل ركن الدين حين وصلوا إلى هولاكو وجدوه على مسيرة ثلاثة أيام فقط من «ألموت». وكان رد المغول بمثابة إنذار أخير: إذا دمر ركن الدين حصن مايمونديز وأتى ليقدم نفسه أمام الملك فإن الملك – طبقًا لما جرى عليه جلالته من كريم الخلال- سوف يستقبله بعطف واحترام، أما إذا لم يتدبر عاقبة أمره فإن الله وحده يعلم ما سوف يحل به». وفى تلك الأثناء كانت جيوش المغول تدخل رودبار بالفعل وتتخذ مواقع لها حول القلاع، وأشرف هولاكو بنفسه على فرض الحصار حول قلعة مايمونديز التى يقيم فيها ركن الدين.

ويبدو أنه قد وقع خلاف فى الرأى بين الإسماعيليين: بين هؤلاء الذين وجدوا أن من الأحكم الاستسلام والحصول على أحسن الشروط الممكنة من هولاكو، وهؤلاء الذين فضلوا القتال حتى النهاية، وكان من الواضح أن ركن الدين نفسه من الفريق الأول، ولا شك أنه قد شجعه على هذه السياسة مستشارون من أمثال الفلكى نصر الدين الطوسى الذى كان يأمل- وله بعض الحق- أنه بعد الاستسلام يستطيع أن يرتب أموره مع المغول ويبدأ مستقبلا جديداً تحت حمايتهم، وقد كان الطوسى- كما يقال- هو الذى نصح الإمام بالتسليم على أساس أن النجوم ليست فى صالحه، ثم كان الطوسى مرة أخرى هو الذى قام بالسفارة الأخيرة لركن الدين من قلعة مايمونديز إلى معسكر المغول لبحث شروط التسليم، ووافق هولاكو على أن يستقبل ركن الدين وأسرته ومعيته وكنوزه، وكما يقول الجوينى: «قدم ركن الدين كنوزه كرمز للولاء، ولم تكن هذه الكنوز بعظمة الشهرة التى شاعت عنها، ولكنها -بالغة ما بلغت – جىء بها من القلعة وقام هولاكو بتوزيع الجزء الأكبر منها بين جنوده».

واستقبل هولاكو ركن الدين استقبالا حسنا وسمح له بالزواج من فتاة مغولية وقع فى حبها وتنازل فى مقابل ذلك عن مملكته.

والواقع أن اهتمام هولاكو بركن الدين كان له ما يبرره، فالإسماعيليون كانوا لا يزالون مسيطرين على قلاع قوية وفى إمكانهم إحداث كثير من المتاعب، ولذلك فإن وجود الإمام الإسماعيلى فى البلاط المغولى ليحث رعاياه على التسليم شىء له قيمته. وقد أمر هولاكو بأن تستقر أسرة ركن الدين ومعيته وخدمه وممتلكاته الشخصية وأنعامه فى قزوين (تعليقات أهل قزوين على ذلك غير مسجلة) وأن يصحب ركن الدين هولاكو فى حملاته القادمة.

وأوفى ركن الدين بما وعد، فقد استسلمت طبقًا لأوامره معظم القلاع فى رودبار وبالقرب من غيردكوه وفى كوهستان مما وفر على المغول مشاق كبيرة ونفقات باهظة كان لابد أن يبذلوها فى الحصار والهجوم، وذكر المؤرخون أن عدد هذه القلاع بلغ حوالى المائة، ولكن هذا تقدير مبالغ فيه بالتأكيد، وعلى أية حال فقد رفض قواد قلعتين الاستسلام خلافًا لأوامر إمامهم، وربما كان ذلك اعتقادًا منهم أنه يتصرف طبقًا لمبدأ التقية، وهاتان القلعتان هما قلعتا رودبار المنيعتان «ألموت» و «لاماسار» فهاجمت قوات المغول القلعتين، وبعد أيام قليلة غير قائد ألموت رأيه «وبعث برسول يطلب الصلح ويرجو حسن المعاملة، وتدخل ركن الدين لصالحهم مما جعل الملك يغتفر جرائمهم، وفى نهاية ذى القعدة من العام نفسه (الذى يبدأ فى ديسمبر ١٢٥٦) خرج كل نزلاء بؤرة الشر ووكر الشيطان من القلعة حاملين حوائجهم وأشياءهم، وبعد ثلاثة أيام تسلق الجنود القلعة واستولوا على كل ما لم يستطع هؤلاء الناس حمله، ثم أضرموا النار فى المبانى المختلفة لتتحول إلى رماد تذروه الرياح وتسوى بالأرض» واستطاعت «لاماسار» المقاومة لمدة عام آخر ثم استسلمت أخيرًا للمغول فى عام ١٢٥٨ . أما فى غيردكوه فقد استطاع الإسماعيليون– الذين رفضوا أوامر ركن الدين– أن يحتفظوا بسيطرتهم على القلعة عدة سنوات قبل أن يهزموا نهائيًا.

بعد استسلام معظم القلاع الإسماعيلية على هذا النحو أصبح ركن الدين غير مفيد للمغول، كما أن مقاومة لاماسار وغيردكوه دلت على عجزه وعدم جدواه، وهكذا أرسلت الأوامر إلى قواد المغول فى قزوين بقتل كل أعضاء أسرة الإمام وأتباعه، أما هو فقد قام بناء على طلبه وإلحافه بالرحلة الطويلة إلى «كراكوروم» عاصمة المغول استجداء لرضا الخان، ولكن الخان رفض أن يقابله وقال: «لم يكن هناك داع لأن يقوم بهذه الرحلة الطويلة لأن قوانيننا معروفة جيدًا» وأضاف الخان: «فليرجع

ركن الدين ويقوم بتسليم وتخزين القلاع الباقية وعندئذ قد يسمح بالصفح عنه». وفى الواقع لم تكن هذه فرصة حقيقية أعطيت له، ففى طريق عودته إلى فارس وعند حد مراعى خانجاى Khangay أخذوه بعيدا عن الطريق الرئيسى بحجة الذهاب إلى وليمة، واغتالوه. يقول الجوينى: «لقد أحيط به وبأتباعه وأعمل فيهم السيف ولم يتخلف عنهم أى أثر وأصبحوا حكاية على ألسنة الناس وعبرة فى فم الزمن».

غير أن استئصال شأفة الإسماعيليين فى فارس لم يكن كاملاً كما يعتقد الجوينى، ففى أنظار أعضاء الفرقة استطاع ابن ركن الدين الصغير أن ينجو كالمعتاد من الإبادة ويخلفه كإمام بعد وفاته، وعاش لينجب سلسلة من الأئمة كان من عقبهم فى القرن التاسع عشر أسرة أغاخان، وقد ظل الإسماعيليون نشطين بعض الوقت، وفى عام ١٢٧٥ استطاعوا أن يستولوا على «ألموت» مرة أخرى لفترة قصيرة، ولكنهم – على أية حال – كانوا قد خسروا قضيتهم وتحولوا منذ ذلك الوقت إلى فرقة صغيرة ضئيلة الأهمية فى البلاد المتكلمة بالفارسية مشتتين فى شرق فارس وأفغانستان وما يعرف الآن بآسيا الوسطى السوفييتية، أما فى رودبار فقد اختفوا كلية.

ويصور الجوينى دمار ألموت وذل الإسماعيلية تصويرًا قويًا فيقول: «فى أرض الكفر حيث قلعة ألموت برودبار التى عاش فيها زمنًا أنصار حسن الصباح الأشرار لم تتخلف من منازلهم طوبة فوق طوبة، لقد خطت يد القدر بقلم الدمار على واجهة بيوتهم الآية الكريمة «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون» (النمل: ٥٢) وفى خرائب سوق تلك المملكة البائسة ارتفع صوت المؤذن صائحًا: «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعدًا للقوم الظالمين» (المؤمنون: ٤١).

الفصل الخامس

شيخ الجبل

فيما كان حسن الصباح ما زال يحكم بقلعة «ألموت» وكانت كلماته وأسلحة مبعوثيه تحمل رسالته إلى سكان إيران وأمرائها، قامت ثلة صغيرة من أتباعه برحلة طويلة خطرة عبر أراضى العدو نحو الغرب. كانت سوريا هى وجهتهم، وكان عرضهم نقل «الدعوة الجديدة» إلى الإسماعيليين القدامى فى تلك البلاد، ومد الحرب ضد السلطة السلجوقية التى أصبحت مؤخراً تفرض ظلها على كل المنطقة من آسيا الصغرى إلى حدود مصر.

لقد ظهرت «الدعوة الجديدة» فى إيران، وأحرز دعاتها أول نجاح كبير لهم فى الأقاليم ذات الثقافة واللغة الإيرانيتين وبالتحديد فى غرب فارس وشرقها وأجزاء من آسيا الوسطى، ولكنهم عندما فكروا فى التوسع غرباً برزت سوريا كأوضح اختيار أمامهم، فقد كانت أفضل بالنسبة لهم من العراق رغم أن الأخيرة تقع إلى الغرب من فارس مباشرة، حقًا كان يوجد فى المدن العراقية عدد من المتعاطفين مع الإسماعيلية ولكن طبيعة الوديان النهرية المسطحة لم تكن لتتيح سوى مجال ضئيل للاستراتيجية الإسماعيلية القائمة على التغلغل والتحصن والهجوم. أما سوريا فكانت شيئًا آخر إذ تمتد فيما بين جبال طوروس شمالاً وصحراء سيناء جنوباً أرض شاسعة تتخللها الجبال والوديان والصحارى التى تؤوى سكاناً يتباينون فيما بينهم تباينًا شاسعًا ولديهم نزعة محلية قوية للاستقلال، وخلافًا للمجتمعات النهرية المجاورة فى العراق ومصر لم تعرف سوريا الوحدة السياسية إلا نادراً، كان نظامها السائد يقوم على التشذر الطائفى والإقليمى والصراع المتواصل والتغير، وبالرغم من أن السوريين كانوا يتحدثون العربية كلسان سائد إلا أنهم كانوا منقسمين إلى عديد من العقائد والفرق وبعضها ذات نزعة شيعية متطرفة. والواقع أن أول داعية

شيعى ظهر فى سوريا كان فى القرن الثامن الميلادى، ومع انتهاء القرن التاسع وابتداء القرن العاشر كان فى استطاعة الأئمة الإسماعيليين المختبئين أن يعتمدوا على تأييد محلى كاف ليجعل من سوريا مركزاً لمقرهم السرى ومسرحًا لأول محاولة يبذلونها للوصول إلى السلطة، وبعد إنشاء الخلافة الفاطمية فى مصر وامتدادها إلى آسيا دخلت سوريا تحت حكم إسماعيلى متقطع فى أواخر القرن العاشر وخلال القرن الحادى عشر وفتحت البلاد أمام دعاية الإسماعيليين وتعاليمهم.

وإلى جانب الإسماعيليين الصرحاء كانت هناك فى سوريا طوائف أخرى شديدة القرب من الإسماعيليين فى النظرية والمظهر مما جعل من تلك البلاد أرضًا خصبة لدعاية المبعوثين من ألموت، ومنها مثلاً طائفة الدروز فى جبل لبنان والمناطق المجاورة وهى طائفة إسماعيلية منشقة انفصلت مؤخراً عن الفرقة الأم ولم تكن قد وصلت بعد إلى حالة التحجر الذاتى التى بلغتها فى الأزمة المتأخرة، ومنها طائفة العلويين، وهم فى الأصل شيعة اثنى عشرية ولكنهم أكثر تأثراً بالأفكار المتطرفة وكانوا يقيمون فى المناطق الجبلية بشرقى وشمال شرقى اللاذقية وربما كانوا فى ذلك الوقت يقيمون أيضاً فى طبرية ووادى الأردن.

وهكذا كان الزمان والمكان مناسبين للدعوة الإسماعيلية ومبشرين بالخير لها.

وفى الوقت نفسه كانت أولى فصائل التركمان قد دخلت سوريا فى عام ١٠٦٤، فخلال سبعينيات القرن الحادى عشر غزا المرتزقة الأتراك ثم الجيوش السلجوقية النظامية البلاد وسرعان ما خضعت سوريا بأكملها- فيما عدا الشريط الساحلى الذى بقى فى أيدى الفاطميين- لحكم السلاجقة، وكان أمير السلاجقة هو ططش Tush شقيق السلطان الأكبر ملكشاه.

وفى عام ١٠٩٥ لقى ططش مصرعه فى معركة بفارس خلال صراعه مع أخيه على رئاسة السلطنة، وتضافرت نزعة التمزق الإقليمى السورية مع تقاليد صراع الأشقاء السلجوقية على تمزيق المملكة السورية وتحطيمها إربًا فانقسمت مرة أخرى إلى دويلات صغيرة يحكمها أمراء وقواد سلاجقة كان من أبرزهم ابنا ططش: رضوان ودوقاق اللذان يحكمان المدينتين المنافستين حلب ودمشق.

وفى هذه الفترة من الفوضى والصراع المتزايد دخلت قوة جديدة إلى البلاد هى قوة الصليبيين وهؤلاء قدموا من أنطاكية فى الشمال وتقدموا سراعًا على الشاطئ السورى حيث لم تكن ثمة قوة فى استطاعتها الصمود لهم وأنشأوا أربع ولايات لاتينية فى أديسا وأنطاكية وطرابلس والقدس.

أدى دخول السلاجقة فى سوريا إلى استجلاب كثير من مشاكل التغير الاجتماعى والتوترات المألوفة فى الشرق، كما أن صدمة الغزو اللاتينى (الصليبى) ضاعفت من هموم السوريين وشعورهم بالإحباط وجعلهم كل ذلك أكثر استعداداً للترحيب بحملة رسالة تبشر بالأمل لاسيما هؤلاء الذين أعدتهم معتقداتهم القائمة لقبول مثل هذه الرسالة.

وكان الفاطميون فى القاهرة لا يزال لهم أنصار فى سوريا يعتنقون «الدعوة القديمة» للإسماعيلية ولكن الضعف المخزى والشائن للنظام القائم فى القاهرة وفشله فى مقاومة الخطر التركى والغزو اللاتينى على السواء دفع الكثيرين من أنصاره فى سوريا إلى تحويل ولائهم إلى الفرع الإسماعيلى الآخر الذى كان أكثر نشاطاً وأكثر ميلاً للجهاد وبالتالى بدا أكثر قدرة على النجاح، حقاً لقد حافظ بعض الشيعة ومعظم السنة على ولاءاتهم القديمة، ولكن كان هناك الكثيرون ممن التفوا حول القوة

الجديدة التى بدا أنها وحدها القادرة على تهيئة التصدى الفعال للغزاة القادمين من الخارج والحكام القابعين فى الداخل.

القلاع والإرهاب

ومنذ البداية حاول عملاء «ألموت» فى سوريا استخدام الوسائل نفسها وتحقيق النتائج نفسها كما فعل رفاقهم فى فارس، كان هدفهم الاستيلاء على القلاع أو الحصول عليها لاستخدامها كقواعد لحملة الإرهاب، وتحقيقًا لهذا الهدف حاولوا إثارة حمية المؤمنين خاصة فى المناطق الجبلية، وفى الوقت نفسه لم يكونوا ليأنفوا عن أى تعاون مع الأمراء المحليين حيث كانت التحالفات المحدودة والمؤقتة تبدو مفيدة للطرفين.

ولكن بالرغم من هذه المساعدة وبالرغم من النجاح المؤقت الذى حققوه فقد وجد الإسماعيليون مهمتهم فى سوريا أصعب منها فى فارس وربما كان بعض السبب أن دعاة الإسماعيلية فى سوريا كانوا فرسًا يعملون فى وسط غريب عنهم، وهكذا مضى نصف قرن تقريبًا من الجهد الشاق قبل أن يحققوا أول هدف لهم وهو الحصول على مجموعة من المراكز القوية بوسط سوريا فى المنطقة الجبلية التى كانت تعرف وقتئذ بجبل البهرة وتعرف الآن بجبل الأنصارية. وكان زعماؤهم جميعًا- بالقدر الذى نعرف- من الفرس الذين أرسلوا من «ألموت» ويعملون تحت أوامر حسن الصباح وخلفائه، وقد مر كفاحهم لتدعيم أنفسهم فى ثلاث مراحل، وقد استطاعوا خلال المرحلتين الأوليتين -وتنتهيان فى عامى ١١١٣ و ١١٣٠ - أن يعملوا بنجاح فى حلب

ودمشق برضا حكام المدينتين، كما حاولوا تدعيم أنفسهم فى المناطق المجاوره، ولكن المرحلتين انتهتا فى آخر الأمر بالفشل والكارثة. وخلال المرحلة الثالثة التى بدأت فى ١١٣١ تمكنوا فى النهاية من الحصول على القواعد التى يحتاجون إليها وتحصينها.

وتاريخ الإسماعيليين السوريين- كما سجله المؤرخون السوريون- يعد فى معظمه تاريخًا للاغتيالات التى قاموا بها، وتبدأ القصة فى أول مايو ١١٠٣ باغتيال مثير لجناح الدولة حاكم حمص فى المسجد الجامع بالمدينة أثناء صلاة الجمعة، وكان قتلته فارسيين متخفين فى زى الصوفية وقد هاجموه لدى إشارة من شيخ كان يصحبهم وقام عراك دام قتل فيه عدد من حراس جناح الدولة وقاتلوه، ومما له دلالة خاصة أن معظم الأتراك فى حمص فروا إلى دمشق عقب الحادث.

كان جناح الدولة عدوًا لرضوان الحاكم السلجوقى لحلب ويتفق معظم المؤرخين على أن رضوان كانت له يد فى اغتياله، كما نجد لديهم بعض التفاصيل الأخرى فيقولون إن زعيم الحشاشية - كما كانوا يسمونه فى سوريا -كان يدعى «الحكيم المنجم»، وقد كان هو وأصدقاؤه من فارس واستقروا فى حلب حيث سمح لهم رضوان بممارسة شعائرهم والدعوة لديانتهم واستخدام المدينة بالتالى قاعدة لمزيد من النشاط، وكانت حلب لها مزايا واضحة بالنسبة للحشاشين، فالمدينة يسكنها عدد كبير من الشيعة الاثنى عشرية وهى مجاورة لمناطق الشيعة المتطرفين فى جبل السماق وجبل البهرة، ولما كان رضوان ضعيف العقيدة الدينية لذا فقد وجد فى الحشاشين فرصة لتجنيد مزيد من العناصر الجديدة لتأييده مما يعوضه عن ضعفه العسكرى بين منافسيه فى سوريا.

لم يبق الحكيم المنجم على قيد الحياة بعد جناح الدولة بأكثر من

أسبوعين أو ثلاثة. ثم خلفه فارسى آخر كزعيم للحشاشين يدعى أبو طاهر الصائغ، وكان يعمل صائغًا فى الأصل، واحتفظ أبو طاهر برضا رضوان وحرية الحركة فى حلب، ثم بدأ فى سلسلة من المحاولات للاستيلاء على نقط استراتيجية فى الجبال الواقعة إلى الجنوب من المدينة، ويبدو أنه استطاع الحصول على مساعدة محلية كما يبدو أنه استطاع الاحتفاظ ببعض الأماكن وإن يكن ذلك لفترة قصيرة.

وشن الإسماعيليون أول هجوم مسجل لهم فى سوريا ضد أفاميا Afamiya فى عام ١١٠٦، وكان حاكم هذه المدينة يدعى خلف بن ملاعب وهو شيعى وربما كان إسماعيليًا من أنصار القاهرة لا ألموت، وفى عام ١٠٩٦ استولى على أفاميا من رضوان واستغل موقع المكان فى استخدامه كقاعدة لحملات ناجحة واسعة النطاق لقطع الطريق، وقرر الإسماعيليون أن أفاميا تخدم أغراضهم جيدًا ودبر أبو طاهر خطة لقتل خلف والاستيلاء على قلعته واشترك فى المؤامرة بعض سكان أفاميا وكانوا من الإسماعيليين المحليين وزعيمهم يدعى أبو الفتح وهو قاض من سارمين Sarmin المجاورة، وقدمت مجموعة تضم ستة حشاشين من حلب لتنفيذ الهجوم «فاستولوا على حصان وبغل وتجهيزات للإفرنج بما فيها درع وسلاح وقدموا بها من حلب إلى أفاميا وقالوا لخلف: «لقد جئنا إلى هنا لندخل فى خدمتك لقد عثرنا بفارس من الإفرنج وقتلناه وجئنا لك بحصانه وبغله وتجهيزاته» فرحب بهم خلف ترحيبًا كبيرًا وسمح لهم بالإقامة فى قلعة أفاميا بمنزل ملاصق للسور واستطاعوا أن ينقبوا ثغرة فى السور نفذ خلالها أنصارهم فى أفاميا وقتلوا «خلف» واستولوا على الحصن» حدث ذلك يوم ٣ فبراير ١١٠٦ ولم يلبث أن وصل أبو طاهر بنفسه من حلب لتولى القيادة.

ولكن الهجوم على أفاميا لم ينجح بالرغم من بدايته، فإن تانكريد Tancred الأمير الصليبى فى أنطاكية المجاورة استغل الفرصة لمهاجمة أفاميا ويبدو أنه كانت لديه معلومات كافية عن الموقف وأحضر معه سجينًا شقيق أبى الفتح من سارمين وقد قنع فى أول الأمر بفرض الجزية على الحشاشين وتركهم حيث هم ولكنه عاد فى سبتمبر من العام نفسه وحاصر المدينة وأرغمها على الاستسلام وأسر أبا الفتح السارمينى وعذبه حتى القتل، وأخذ أبا طاهر وزملاءه كسجناء ثم سمح لهم بافتداء أنفسهم والعودة إلى حلب.

هذا الصدام الأول بين الحشاشين والصليبيين وإحباط خطتهم المتقنة على يد أمير صليبى لم يؤد إلى تحويل انتباه الحشاشين من الأهداف الاسلامية إلى الأهداف المسيحية، بل ظل صراعهم الأساسى موجهًا ضد رؤساء الإسلام وليس ضد أعداء الاسلام، كان هدفهم المباشر الاستيلاء على قاعدة مهما يكن أصحابها، وكان غرضهم الأكبر ضرب السلطة السلجوقية أينما ظهرت.

وفى عام ١١١٣ أحرز الإسماعيليون أكثر ضرباتهم طموحًا حتى ذلك الحين بقتلهم الأمير مودود فى دمشق، وكان الأمير مودود هو الحاكم السلجوقى للموصل وجاء على رأس بعثة عسكرية من الشرق إلى سوريا بحجة مساعدة المسلمين السوريين فى حربهم ضد الصليبيين، ولكن الحشاشين رأوا فى هذه البعثة خطرًا واضحًا عليهم، ولم يكونوا وحدهم فى مخاوفهم تلك، فعندما وصل مودود وقواته إلى حلب عام ١١١١ أغلق رضوان أبواب المدينة فى وجههم وتجمع الحشاشون حوله لمساعدته ويقال إن حاكم دمشق المسلم هو الذى أوصى باغتيال مودود، وهى شائعة انتشرت فى ذلك الوقت وسجلتها المصادر المسيحية والإسلامية على السواء.

واتضح خطر الحشاشين على نفوذ السلاجقة فى الشرق بعد وفاة حاميهم رضوان فى ١٠ ديسمبر ١١١٣ فإن نشاط الحشاشين فى حلب جعلهم مكروهين لدى سكان المدينة. وفى عام ١١١١ وقعت محاولة فاشلة لاغتيال ثرى فارسى مقيم بالمدينة ومن خصوم الإسماعيليين الأقوياء، وأدت إلى انفجار حملة من السخط الشعبى عليهم، والواقع أنه بعد وفاة رضوان خلفه ابنه ألب أرسلان Alp Arslan واتبع فى أول الأمر سياسة أبيه بل وتنازل للإسماعيليين عن حصن على الطريق إلى بغداد، ولكن لم يلبث أن حدث رد الفعل فقد وصل خطاب من السلطان السلجوقى الأكبر محمد إلى ألب أرسلان يحذره فيه من خطر الإسماعيليين ويحثه على تدميرهم. وقام ابن البديع زعيم سكان المدينة وقائد حرسها الوطنى بالتقاط المبادرة وحث الحاكم على اتخاذ تدابير عنيفة ضدهم «فاعتقل أبو طاهر الصائغ وقتله، كما قتل إسماعيل الداعى وأخ الحكيم المنجم وزعماء هذه الطائفة فى حلب واعتقل حوالى ٢٠٠ منهم وسجن بعضهم واستولى على ممتلكاتهم، وقد سمح فيما بعد بإطلاق سراح البعض نتيجة لشفاعات وألقى بالآخرين من سطح القلعة فقتلوا، بينما تمكن البعض من الهرب والتفرق فى أنحاء البلاد».

ولكن بالرغم من هذه النكسة والفشل فى الحصول على حصن منيع دائم حتى الآن لم تضع البعثة الاسماعيلية الفارسية وقتها سدى خلال ولاية أبى طاهر، فقد استطاعت إنشاء اتصالات مع العناصر المحلية الموالية وأن تكسب ولاء الإسماعيليين المنتمين إلى فروع أخرى وغيرهم من الشيعة المتطرفين فى مختلف الفرق السورية المحلية كما استطاعت أن تعتمد على تأييد محلى مهم فى جبل السماق وجزر Jazr وبلاد بنى

عليم Banu ulaym التى تحتل إقليمًا استراتيجيًا مهمًا بين شيزار Shay-zar وسارمين وحصلوا على نواة تأييد فى مناطق أخرى فى سوريا وخاصة على خط اتصالهم شرقًا مع «ألموت»، وكانت أقاليم الفرات شرقى حلب معروفة كمراكز للتطرف الشيعى فى الأزمنة القديمة واللاحقة. ومن المؤكد- رغم عدم وجود أدلة مباشرة عن هذه السنوات- أن أبا طاهر لم يهمل هذه الفرص، فمما يلاحظ أنه فى وقت مبكر يرجع إلى ربيع عام ١١١٤ قامت قوة من حوالى مائة إسماعيلى من أفاميا وسارمين وغيرهما من المناطق بالاستيلاء على معقل شيزار الإسلامى بعد هجوم مفاجئ بينما كان حاكم المعقل وجنوده فى مكان بعيد يشاهدون احتفالات المسيحيين بعيد الفصح، وقد تعرض المهاجمون فور ذلك لهجوم مضاد أوقع بهم الهزيمة والدمار.

وحتى فى حلب استطاع الإسماعيليون بالرغم من كارثة عام ١١١٣ أن يحتفظوا لأنفسم بموضع قدم، وفى عام ١١١٩ تم طرد عدوهم ابن البديع من المدينة وهرب إلى ماردين Mardin وكان الحشاشون فى انتظاره وهو يعبر الفرات فقتلوه هو وابنيه، وفى العام التالى طلبوا من حاكم حلب أن يمنحهم إحدى القلاع ولكن الحاكم كان غير راغب فى ذلك وخائفًا من أن يرفض طلبهم فلجأ إلى الحيلة بأن دمر القلعة بسرعة متظاهرًا بأن أوامر سابقة قد صدرت بذلك، وقد اغتيل القائد الذى أشرف على تدمير القلعة بعد ذلك بعدة سنوات. ولكن نهاية نفوذ الإسماعيليين فى حلب جاءت فى عام ١١٢٤ عندما اعتقل الحاكم الجديد للمدينة العميل الإسماعيلى المحلى لكبير الدعاة وطرد أنصاره الذين باعوا ممتلكاتهم ورحلوا.

كان الذى يرأس الإسماعيليين فى حلب فى ذلك الوقت عميلا محليا وليس كبير الدعاة نفسه، وبعد إعدام أبى طاهر نقل خليفته بهرام مركز النشاط الرئيسى للفرقة إلى الجنوب وسرعان ما بدأ يلعب دوراً نشطاً فى شئون دمشق، وكان بهرام كأسلافه فارسيًا وهو ابن أخ الأزربادى الذى أعدم فى بغداد عام ١١٠١ وقد ظل لفترة من الوقت «يعيش متخفياً فى سرية تامة مخفياً شخصيته باستمرار مما كان يمكنه من الانتقال من مدينة إلى مدينة ومن قلعة إلى قلعة دون أن يعرف أحد شخصيته» ويكاد يكون من المؤكد أنه قد كانت له يد فى اغتيال البرزقى حاكم الموصل فى المسجد الجامع بالمدينة فى ٢٦ نوفمبر ١١٢٦، وقد كان بعض قتلته الثمانية على الأقل الذين تخفوا فى زى الصوفية وطعنوه سوريين، ويحكى المؤرخ الحلبى كمال الدين بن العديم قصة غريبة فيقول: «إن كل الذين هاجموه قد قتلوا فيما عدا شاب واحد جاء من كفر ناصح من إقليم أزاز Azaz (شمال حلب) وقد استطاع أن يهرب دون أن يصاب بأذى وكانت له أم مسنة عندما سمعت بأن البرزقى قد قتل وأن ابنها من بين قتلته ابتهجت وكحلت عينيها وامتلأت حبوراً، وبعد أيام عاد ابنها سليماً فحزنت ومزقت شعرها وسودت وجهها».

وفى العام نفسه ١١٢٦ تأتينا أول أنباء مؤكدة عن التعاون بين الحشاشين والحاكم التركى لدمشق توتيجين Tughtigin فطبقًا للمؤرخ الدمشقى ابن القلانيسى قامت فى شهر يناير من ذلك العام عصابات من الإسماعيلية من حمص وكل مكان «مشهود لها بالشجاعة والإقدام» بالاشتراك مع قوات توتيجين فى هجوم فاشل على الصليبيين، وقرابة انتهاء العام ظهر بهرام علناً فى دمشق ومعه خطاب توصية من «الغازى»

حاكم حلب الجديد، وقد أحسن استقباله فى دمشق وسرعان ما اكتسب مركز قوة بفضل الحماية الرسمية التى حصل عليها، وكان أول طلب له- طبقًا لاستراتيجية الفرقة- الحصول على قلعة، ومنحه توتيجين قلعة بانياس على الحدود مع مملكة القدس الصليبية، ولكن ذلك لم يكن كل شيء، فقد حصل الإسماعيليون فى دمشق نفسها على بناية أسموها «القصر» و«بيت الدعوة» واتخذوها كمقر لهم، ويلقى المؤرخ الدمشقى باللائمة الأساسية عن هذه الأحداث على عاتق الوزير المزدجانى الذى وإن لم يكن إسماعيليًا فى حد ذاته إلا أنه كان شريكاً فى خططهم وكان بمثابة النفوذ الشرير وراء العرش، ويعتقد المؤرخ أن توتيجين لم يكن يحب الحشاشين وإنما كان يتمشى معهم فحسب لأسباب تكتيكية حتى يحين الوقت كى يوجه اليهم ضربة حاسمة، أما المؤرخون الآخرون فإنهم -مع اعترافهم بدور الوزير - يلقون بالمسئولية الأساسية على الحاكم ويعزون ما فعل إلى تأثير «الغازى» الذى أنشأ معه بهرام علاقات حميمة عندما كان لا يزال فى حلب.

وفى بانياس أعاد بهرام بناء القلعة وتحصينها، وبدأ فى سلسلة من العمليات الحربية والدعائية فى المناطق المجاورة، يقول ابن القلانيسى إنه «بعث بمرسليه فى كل الاتجاهات لإثارة جمهور كبير من الجهلاء من الأقاليم والفلاحين الحمقى فى القرى والرعاع وحثالة المجتمع» كما استطاع بهرام وأتباعه اتخاذ بانياس قاعدة لإغارات واسعة يشنونها على الأنحاء المجاورة ومن المحتمل أن يكونوا قد تمكنوا من احتلال مناطق أخرى، ولكن لم تلبث أن تلبدت حولهم الغيوم، فقد كان وادى التيم فى إقليم الحصبية يسكنه خليط من الدروز والنصارى والملاحدة وكان يبدو ملائمًا للتوسع الإسماعيلى، وقد لقى براق بن جندل أحد الرؤساء

المحلين فى المنطقة مصرعه على أيدى الإسماعيليين الذين أسروه وقتلوه غيلة وخيانة، وبعد قليل شرع بهرام وقواته فى احتلال الوادى ولكنهم لقوا مقاومة عنيفة من دهاق بن جندل شقيق القتيل والمطالب بدمه، وحدث اشتباك حاد هزم فيه الحشاشون ولقى بهرام نفسه مصرعه.

وتولى قيادة بانياس بعد مقتل بهرام فارسى آخر يدعى إسماعيل وقد سار على سياسة سلفه وأعماله، واستمر الوزير المزرجانى فى تأييده، ولكن سرعان ما جاءت النهاية فقد توفى توتيجين فى عام ١١٢٨ وأعقبت وفاته حملة من رد الفعل ضد الإسماعيليين تشبه تلك التى حدثت بعد وفاة رضوان فى حلب. وجاءت المبادرة هنا أيضًا من حاكم المدينة مفرج بن الحسن بن الصوفى وكان خصمًا متحمسًا للفرقة وعدوًا للوزير، فقد تكاتف هذا الحاكم مع قائد الجند فى المدينة يوسف ابن فيروز على تحريض بورى Buri ابن توتيجين وخليفته على توجيه ضربة قاضية للإسماعيليين، وفى يوم الأربعاء ٤ سبتمبر ١١٢٩ حدثت هذه الضربة فقد اغتيل الوزير- بأوامر من بورى- وهو جالس فى الديوان لاستقبال الزائرين وفصل رأسه عن جسده وطيف به فى الشوارع وما إن انتشر النبأ حتى قام العسكر فى المدينة ومعهم الرعاع على الحشاشين قتلاً ونهبًا «وما إن جاء الصباح حتى كانت أحياء المدينة وطرقاتها قد طهرت من الباطنية (الإسماعيلية) والكلاب تلغ وتتشاجر فوق أشلائهم وجثثهم، وقدر أحد المؤرخين عدد الحشاشين الذين قتلوا فى هذه الأحداث بستة آلاف بينما قدره آخر بعشرة آلاف، وثالث بعشرين ألفًا، وتحقق إسماعيل فى بانياس أن موقفه يائس فسلم القلعة إلى الفرنج وفر هاربًا هو نفسه إلى أراضى الفرنج حيث مات فى بداية عام ١١٣٠، أما القصة التى تكررت كثيرًا عن وجود مؤامرة من الوزير والحشاشين لتسليم دمشق إلى الإفرنج فإنها تعتمد على مصدر

واحد غير وثيق ويمكن رفضها تمامًا كشائعة كاذبة معادية.

وقد اتخذ بورى ومساعدوه احتياطات واسعة لحماية أنفسهم من انتقام الحشاشين فارتدوا شباكًا من الزرد وأحاطوا أنفسهم بحراس مدججين بالسلاح، ولكن بلا جدوى، إذ لم تلبث أن جاءت الضربة من مركز الفرقة فى ألموت، ففى ٧ مايو ١١٣١ تمكن فارسيان متخفيان فى زى جنديين تركيين من الدخول فى خدمة بورى وطعنه بالخناجر، وقد سجل اسماهما فى قائمة الشرف بألموت، وفورًا مزق الحراس جسدى القاتلين، ولكن بورى نفسه توفى متأثرًا بجراحه فى العام التالى، ولكن بالرغم من هذه الضربة الناجحة فإن الحشاشين لم يستردوا أبدًا مراكزهم فى دمشق، وكان من العسير عليهم فى الواقع أن يأملوا فى ذلك فى مدينة سنية محافظة كدمشق.

فى مواجهة الفاطميين والصليبيين

وخلال تلك الفترة كان الحشاشون يكافحون عدوًا آخر إلى جانب الترك، ففى نظرهم كانت الخلافة الفاطمية التى لا تزال تحكم فى القاهرة غاصبة، ومن الواجب المقدس العمل على طردها وإنشاء إمامة من خط نزار محلها، وخلال النصف الأول من القرن الثانى عشر نشبت فى القاهرة أكثر من ثورة موالية للنزاريين وأمكن إخمادها، وبذل الحكم فى القاهرة اهتمامًا كبيرًا فى مواجهة دعاية النزاريين بين المواطنين، وأصدر الخليفة «الأمير» مرسومًا خاصًا دافع فيه عن حقوق خطه الخاص فى الخلافة ورفض دعاوى النزاريين، وهناك قصة طريفة تلحق بهذه الوثيقة، فيقال إن بعثة فاطمية قرأتها على الحشاشين فى دمشق فأحدثت

هرجًا ومرجًا وأخذها أحدهم وقدمها إلى رئيسه الذى أضاف فى المكان الخالى بأسفلها عبارة ترفض هذه الأقوال، وقرأ النزارى هذا الرفض فى اجتماع لمؤيدى الخلافة الفاطمية فى دمشق فطلبت البعثة القادمة من القاهرة مساعدة الخليفة فى الرد على الرفض وتلقت بالتالى بيانًا آخر فى تثبيت الحجج المستعلية، ومن الممكن الربط بين هذه الأحداث وقيام الحشاشين فى دمشق فى عام ١١٢٠ باغتيال رجل قيل إنه كان يتجسس على الحشاشين لحساب الحكومة الفاطمية.

واستخدم الحشاشون حججًا أكثر حدة ضد خصومهم الفاطميين، ففى عام ١١٢١ اغتيل الأفضل قائد الجيوش فى مصر والرجل المسئول بصفة أولية عن خلع الخط النزارى وقام باغتياله ثلاثة من الحشاشين قدموا من حلب، وفى عام ١١٣٠ اغتيل الخليفة «الأمير» نفسه بوساطة عشرة حشاشين فى القاهرة وكانت كراهيته للنزاريين مشهورة تمامًا، ويقال إنه بعد وفاة بهرام حمل رأسه ويداه وخاتمه بوساطة مواطن من وادى التيم إلى القاهرة حيث تلقى ذلك المواطن مكافآت وحلة شرف جزاء خدمته.

أما عن علاقات الحشاشين مع الإفرنج فى ذلك الوقت فلا نعرف عنها الكثير، ويبدو أن القصص التى ذكرتها المصادر الإسلامية فيما بعد عن التعاون الوثيق بين الإسماعيليين والأعداء الصليبيين كانت مجرد انعكاس لذهنية عصر تال عندما أصبحت حرب الإسلام المقدسة تملأ أذهان معظم مسلمى الشرق الأدنى، أما فى الحقبة التى نتحدث عنها فإن أقصى ما يمكن أن يقال أن الحشاشين كانوا يشاركون فى حالة عدم المبالاة العامة التى كان يبديها المسلمون فى سوريا إزاء الانقسامات الدينية، ولا نعرف حالة واحدة سقط فيها ضحية من الأفرنج تحت خناجر

الفدائيين ولكننا نعرف عن حالتين على الأقل حدث فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين والجيوش الصليبية، ولكن من ناحية أخرى كان لاجئو الحشاشين من حلب وبانياس يلجأون إلى جانب الإفرنج كما أن تسليم قلعة بانياس إلى الإفرنج وليس إلى الحكام المسلمين عندما هجرها الإسماعيليون كان على أرجح تقدير مجرد مسألة جغرافية.

فى السنوات العشرين التالية حدثت المرحلة الثالثة والناجحة التى استطاع فيها الحشاشون الحصول على قواعد قلاعية لهم فى سوريا وكانت هذه المرة فى جبل البهرة إلى الجنوب الغربى من موقع محاولتهم الأولى فى جبل السماق، وقد تمكنوا من ذلك بعد محاولة فاشلة قام بها الإفرنج للسيطرة على المنطقة، ففى عام ١١٣٢-١١٣٣ باع السيد المسلم فى منطقة الكهف قلعة قدموس Qadmus الجبلية للحشاشين وكان قد استعادها من أيدى الإفرنج فى العام السابق وبعد سنوات قليلة تنازل ابنه لهم عن منطقة الكهف كلها فى سياق صراع مع أبناء عمومته على التملك، وفى عام ١١٣٦-١١٣٧ طردت حامية للإفرنج فى الخريبة Khariba بواسطةجماعة من الحشاشين تمكنوا من إعادة سيطرتهم بعد أن طردوا مؤقتًا بواسطة حاكم حماة، أما مصيف Mas-yaf وهى أهم معقل للحشاشين فقد استولوا عليها فى ١١٤٠-١١٤١ من حاكم عينه عليها بنو منقذ BanuMunquidh الذين اشتروا القلعة فى عام ١١٢٧-١١٢٨ أما القلاع الأخرى للحشاشين وهى الخوابى Khawabi والرصافة Rusafa والقليعة Qu Lay'a والمنيقة Maniqa فأغلب الاحتمال أنهم حصلوا عليها فى نفس الفترة تقريبًا ولكننا لا نعرف الكثير عن تاريخ وكيفية الحصول على كل منها.

خلال هذه الفترة التى قام فيها الحشاشون بتدعيم أقدامهم فى هدوء

لم يكن لهم تأثير كبير على العالم الخارجى ولا نعرف سوى القليل من أسمائهم، فنعرف مثلاً أن اسم الذى اشترى قدموس هو أبو الفتح، وأن آخر كبير للدعاة قبل سنان يدعى أبا محمد، وأن زعيماً كردياً من زعماء الحشاشين يدعى على بن وفا تعاون مع ريموند حاكم أنطاكية فى حملته ضد نور الدين وقتل معه فى معركة عناب Inab فى عام ١١٤٩، ولم تسجل سوى حادثى اغتيال فقط خلال هذه السنوات ففى عام ١١٤٩ قتل دهاق بن جندل رئيس وادى التيم انتقامًا من الحشاشين لمقاومته الناجحة لبهرام فى ١١٢٨ وبعد ذلك بعام أو عامين اغتيل الكونت ريموند الثانى حاكم طرابلس على أبواب تلك المدينة، وكان بذلك أول ضحاياهم من الإفرنج.

أوفى مكاننا أن نرى فقط الخيوط العريضة لسياسة الحشاشين فى تلك الفترة، فنعرف مثلاً أنهم كانوا يشعرون بالعداء تجاه بيت زنكى حاكم الموصل، فحكام الموصل كانوا دائمًا من أقوى الأمراء الأتراك وكانوا يسيطرون على خطوط المواصلات بين سوريا وفارس ولهم علاقات ودية من الحكام السلاجقة فى الشرق، وبذلك كانوا يمثلون خطراً دائمًا على وضع الحشاشين، وقد تفاقم هذا الخطر بميل الزنكيين إلى التوسع فى سوريا، وكان مودود والبرزقى قد اغتيلا بالفعل، وتعرض الزنكيون للخطر أكثر من مرة، وعندما احتلوا حلب فى ١١٢٨ أصبح الخطر الذى يمثلونه بالنسبة للإسماعيليين مباشراً أكثر من ذى قبل، وفى عام ١١٤٨ ألغى نور الدين بن زنكى الأذان الشيعى الذى ينادى به للصلاة فى حلب، وأدت هذه الخطوة إلى إثارة مشاعر سخط حادة ولكنها غير فعالة بين الإسماعيليين وغيرهم من طوائف الشيعة فى المدينة، وتصاعد الموقف إلى إعلان الحرب على الملاحدة، وفى هذه

الظروف ليس مما يدعو إلى الدهشة بالطبع أن نرى كتيبة من الحشاشين تحارب إلى جانب بريموند حاكم أنطاكية حيث إنه كان الزعيم الوحيد فى سوريا الذى يمكنه أن يقدم مقاومة فعالة ضد الزنكيين فى ذلك الوقت.

سنان..شيخ الجبل

فى هذه الأثناء وصل إلى القيادة أعظم رؤساء الحشاشين فى سوريا وهو سنان بن سلمان بن محمد المعروف برشيد الدين، وكان مواطنًا من عقر السودان Aqr Al-Sudan وهى قرية بالقرب من البصرة على الطريق إلى واسط Wasit ويوصف أحيانًا بأنه كيماوى وأحيانًا بأنه معلم مدرسة، ويقول- على عهدته- إنه كان ابن مواطن بارز فى البصرة، إذ يذكر كاتب سورى معاصر له أنه قام بزيارة سنان وأجرى محادثة معه، وفى مجرى الحديث بينهما تحدث سنان عن سنوات طفولته وتدريبه وظروف بعثته إلى سوريا فقال: «نشأت فى البصرة وكان أبى أحد نبلائها، وقد دخلت هذه الدعوة إلى قلبى، ثم حدث شىء بينى وبين إخوتى أجبرنى على تركهم وخرجت على وجهى بدون ذخيرة أو وسيلة ركوب، وظللت أسير حتى وصلت إلى «ألموت» ودخلتها، كان حاكمها هو كيا محمد وكان له ولدان يدعيان حسناً وحسيناً، وقد وضعنى فى المدرسة معهما، وأولانى تمامًا نفس العناية التى أولاهما بها فى كل ما يحتاج إليه الأولاد من مساعدة وتعليم وملابس، وبقيت هناك حتى مات كيا محمد وخلفه ابنه حسن، فأمرنى أن أذهب إلى سوريا، فانطلقت إلى هناك كما انطلقت من البصرة، وكنت لا أدخل أية مدينة إلا نادراً، وكان

قد زودنى بأوامر وخطابات، ودخلت الموصل ونزلت بمسجد النجارين حيث قضيت الليلة هناك ثم واصلت طريقى لا أدخل أية مدينة حتى بلغت الرقة Raqqa وكنت أحمل خطاباً لواحد من رفاقنا هناك فسلمته إليه، وأعطانى الرجل مؤناً وأتاح لى وسيلة ركوب حتى حلب، وهناك التقيت برفيق آخر وسلمته رسالة أخرى فأجر لى أيضاً وسيلة ركوب وأرسلنى إلى كهف، وكانت الأوامر التى معى أن أقيم فى هذه القلعة، وبقيت هناك حتى مات فى الجبل الشيخ أبو محمد رئيس البعثة، وخلفه خواجا على بن مسعود بدون تعيين (من ألموت) ولكن باتفاق الجماعة، ولكن الرئيس أبا منصور ابن أخ الشيخ أبى محمد والرئيس فهد تآمرا وأرسلا شخصاً طعنه حتى الموت بينما كان يغادر حمامه، وظلت الزعامة شورى بينهم وتم اعتقال القتلة وسجنوا، وبعد ذلك جاءت الأوامر من «ألموت» بإعدام القاتل وإطلاق سراح الرئيس فهد، وجاءت معها رسالة وأمر بقراءتها أمام الجماعة».

إن النقاط الأساسية فى هذه الرواية تؤكدها مصادر أخرى كما تضخمها الأساطير التى نسجت حول حياة سنان والتى تقول إنه قضى سبع سنوات فى «كهف»، ومن الواضح أن سنان كان محمياً من حسن علاء ذخر الإسلام، وقد كشف عن نفسه لأفراد الفرقة فى سوريا فى عام ١١٦٢ وهو عام ارتقاء حسن الحكم فى ألموت. وقصة التنازع على الحكم فى سوريا ربما كانت تعكس الخلاف بين حسن وأبيه فى هذه الفترة.

فى أغسطس ١١٦٤ أعلن حسن القيامة فى ألموت وبعث برسله يحملون التعليمات الجديدة إلى الإسماعيليين فى الجهات الأخرى، وكان على سنان أن يفتتح الشريعة الجديدة فى سوريا، وإننا لنلحظ تناقضاً

غريبًا بين تسجيل هذه الأحداث فى كل من فارس وسوريا، ففى فارس سجلت القيامة بأمانة بواسطة الإسماعيليين أنفسهم ويبدو أنها مرت دون أن تلحظ من جانب أهل السنة المعاصرين، أما فى سوريا فيبدو كأن الإسماعيليين قد تناسوها فى حين أن المؤرخين من أهل السنة قد رددوا فى فزع وتلذذ الشائعات التى بلغتهم عن إعلان انتهاء الشريعة، كتب أحدهم يقول: «إنه– أى سنان– سمح لهم بتدنيس أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم وأعفاهم من صيام شهر رمضان».

وإذا كانت هذه الأخبار وشبيهاتها فيها بعض المبالغة بدون شك إلا أنه من الواضح أن انتهاء الشريعة قد أعلن فى سوريا بالفعل وأدى إلى بعض التجاوزات بالفعل مما دفع سنان إلى التدخل لوقف تدهور الأمور. يقول المؤرخ كمال الدين بن العديم فى كتابه «زبدة الطلب من تاريخ حلب»: «فى عام ٥٧٢ (١١٧٦–١١٧٧ م) انخرط سكان جبل السماق فى الآثام والفسوق وأسموا أنفسهم «المتطهرين» واختلط الرجال والنساء فى حفلات الشراب، ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته، وارتدت النساء ملابس الرجال، وأعلن أحدهم أن سنان هو ربه» فأرسل حاكم حلب جيشًا ضدهم وهربوا هم إلى الجبال حيث حصنوا أنفسهم، أما سنان فقد أجرى تحقيقًا ونصّل نفسه من المسئولية وأقنع جيش حلب بالانسحاب ثم هاجم بنفسه هؤلاء «المتطهرين» ودمرهم. وتتحدث مصادر أخرى عن جماعات مماثلة من هؤلاء المنجذبين فى تلك السنوات، ومن المحتمل أن تكون هذه الأخبار والشائعات الغامضة عن هذه الأحداث هى التى أدت فيما بعد إلى ظهور أسطورة حدائق الفردوس لدى الحشاشين.

بعد أن فرض سنان نفسه كحاكم للإسماعيليين كان أول ما اهتم به

أن يدعم مملكته الجديدة فأعاد بناء قلعتى الرصافة والخوابى وتوج مملكته بالاستيلاء على قلعة «العليقة» وإعادة تحصينها. يقول المؤرخ السورى كمال الدين: «إنه بنى قلاعًا فى سوريا للفرقة وقد كان بعضها جديدًا وبعضها قلاعًا قديمة حصل عليها بالخديعة ثم حصنها وجعلها منيعة، وغفل عنه الزمان ولم يهتم الملوك بمهاجمة ممتلكاته خوفًا من الانتقام باغتيالهم، وقد حكم فى سوريا ثلاثين عامًا، وبعث كبير دعاتهم فى ألموت مبعوثين لقتله عدة مرات خوفًا من أن يغتصب الرئاسة، ولكنهم كانوا يقعون فى قبضة سنان فيقتلهم أو يخدعهم ويقنعهم بعدم تنفيذ ما لديهم من الأوامر» وهذا يدل على أن «سنان» مع غيره من زعماء الحشاشين فى سوريا قد تخلصوا من سلطة ألموت وانتهجوا سياسة مستقلة تمامًا، ونجد تأييدًا لهذا الرأى فيما حفظه الزمن من كتابات تحمل اسمه لا تزال بين أيدى الإسماعيليين السوريين فى العصور الحديثة إذ لا تحوى هذه الكتابات أية إشارة إلى «ألموت» أو رؤسائها أو الأئمة النزاريين وإنما تدعى أن سنان هو الزعيم المقدس الأعلى.

وفى استطاعتنا أن نستمد معلوماتنا عن سياسة الحشاشين فى عهد سنان من سلسلة من الأحداث المعينة تورطوا فيها فى تلك الفترة، وهى محاولتان لاغتيال صلاح الدين أعقبهما هجوم فاشل قام به صلاح الدين على «مصيف» ثم اغتيال وحريق فى حلب، واغتيال الزعيم الصليبى كونراد أوف مونتفرات Conrad of Montferrat وإلى جانب ذلك هناك بعض الأنباء الغامضة عن خطابات تهديد إلى نور الدين وصلاح الدين وإشارة من رحالة يهودى من إسبانيا يدعى بنيامين أوف تـوديـلا Benjamin of Tudela إلى وجود حالة حرب بين الحشاشين ودولة طرابلس فى عام ١١٦٧ .

والواقع أن ظهور صلاح الدين كمهندس للوحدة الإسلامية وحام للعقيدة السلفية وبطل للحرب المقدسة قد أدى إلى جعله فى أول الأمر فى موقف العدو الرئيسى للحشاشين الذين مالوا- كأمر حتمى- إلى تحسين علاقاتهم مع الزنكيين فى الموصل وحلب باعتبارهم الخصوم الرئيسيين لصلاح الدين، ونجد فى خطابات بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد فى عام ١١٨١-١١٨٢ أنه يتهم حكام الموصل بالتحالف مع الحشاشين الملاحدة ويستخدمون وساطتهم للاتصال بالفرنجة الكفار، ويتحدث صلاح الدين فى هذه الخطابات عن أن الزنكيين وعدوا الحشاشين بإعطائهم قلاعًا وأراضى وبيتًا لنشر دعايتهم فى حلب وأنهم أرسلوا مبعوثين إلى سنان وإلى الصليبيين، ويؤكد صلاح الدين على دوره كمدافع عن الإسلام ضد خطر ذى ثلاث شعب: كفر الفرنجة، وإلحاد الحشاشين، وخيانة الزنكيين، ولكن من جهة أخرى فإننا نجد المؤرخ الإسماعيلى الذى كتب سيرة سنان- ولا شك أنه يتمثل الحرب المقدسة فى العصور التالية- يصور بطله على أنه متعاون مع صلاح الدين فى كفاحه ضد الصليبيين.

ويبدو أن الأمرين صحيحان مع اختلاف الأزمنة.. فبالرغم من احتمال أن يكون صلاح الدين قد بالغ فى درجة التعاون بين خصومه حتى يشوه صورة الزنكيين، إلا أن من الطبيعى تمامًا أن يركز خصومه المختلفون فى أول الأمر هجماتهم ضده بدلاً من أن يتنازعوا فيما بينهم، كما أن القصة الغريبة التى يحكيها ويليام الصورى William of Tyre عن اقتراح للحشاشين باعتناق المسيحية قد تعكس تقاربًا حقيقيًا بين سنان ومملكة بيت المقدس الصليبية.

وقعت أول محاولة للحشاشين لاغتيال صلاح الدين فى ديسمبر

١١٧٤ أو يناير ١١٧٥ بينما كان يحاصر حلب، فيقول مؤرخو صلاح الدين إن قمشطجين Gumushtigin الذى كان يحكم المدينة نيابة عن حاكمها الرسمى وهو طفل من أسرة زنكى أرسل إلى سنان يعرض عليه مالاً وأراضى مقابل اغتيال صلاح الدين، وبعث سنان رجالاً دخلوا معسكر صلاح الدين فى يوم من أيام الشتاء القارس ولكن اكتشفهم الأمير أبو قبيس Abu Qubais الذى كان جاراً لهم، فاستجوبهم، فقتلوه على الفور، وتلا ذلك عراك قتل فيه عدد كبير من الناس ولكن صلاح الدين نفسه لم يصب بسوء، وفى العام التالى قرر سنان أن يقوم بمحاولة أخرى فبعث فى ٢٢ مايو ١١٧٦ فريقًا من الحشاشين تخفوا فى زى جنود جيش صلاح الدين وهاجموه بالمدى بينما كان يحاصر عزز Azaz ولكن صلاح الدين لم يصب سوى بجروح يسيرة بفضل الدروع التى كان يرتديها، وتولى أمراؤه التصرف مع المهاجمين، وقتل فى الاشتباك عدد من الأمراء، وتعزو بعض المصادر هذه المحاولة الثانية أيضًا إلى تحريض قمشطجين. وقد اتخذ صلاح الدين بعد هذه الأحداث احتياطات واسعة للحفاظ على حياته، فكان ينام فى برج خشبى أقيم خصيصًا لحمايته، ولم يكن يسمح لأحد لا يعرفه شخصيًا بالاقتراب منه.

ولكن من المؤكد أن تحريض قمشطجين لم يكن السبب الوحيد الذى دعا سنان إلى محاولة اغتيال صلاح الدين، والأكثر احتمالاً أن سنان كان يتصرف بناء على أسبابه الخاصة وقبل مساعدة قمشطجين ليحقق بذلك منافع مادية وتكتيكية وهذه الاعتبارات نفسها تنطبق على ما جاء فى خطاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة بينما كان فى القاهرة فى عام ١١٧٤ وجاء فيه أن زعماء المؤامرة الفاطمية الفاشلة فى مصر

فى ذلك العام (وكان صلاح الدين قد أسقط الخلافة الفاطمية) قد كتبوا إلى سنان يؤكدون له اشتراكهم فى عقيدة واحدة ويحثونه على اتخاذ إجراء ضد صلاح الدين، فالمعروف أن الاسماعيليين النزاريين فى سوريا وفارس لم يكونوا على ولاء لآخر الفاطميين فى القاهرة وكانوا يعتبرونهم مغتصبين للخلافة، غير أنه من المحتمل أن تكون هناك عناصر فاطمية قد طلبت مساعدة حشاشى سوريا، فقد رأينا أنه منذ نصف قرن مضى حاول الخليفة الفاطمى «الأمير» أن يقنع الحشاشين بقبول زعامته ولكن النزاريين رفضوا وسقط «الأمير» نفسه تحت طعنات خناجرهم، وليس من المستبعد أن يكون سنان قد قبل مرة أخرى ولأسباب تكتيكية أن يتعاون مع المتآمرين المصريين، ولكن من غير المحتمل أن يكون قد استمر فى العمل لحسابهم بعد سحق مؤامرتهم فى مصر، وقد نجد تفسيراً أكثر معقولية لتصرف سنان إزاء صلاح الدين فى قصة حكاها مؤرخ لاحق– رغم أنها ليست مذكورة لدى المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة– وطبقًا لهذه القصة فقد قام عشرة آلاف فارس من «النبوية» –وهى طائفة دينية معادية للشيعة فى العراق – بالإغارة فى عام ١١٧٤-١١٧٥ على المراكز الإسماعيلية فى «الباب» و «البوزعة» Buza'a حيث ذبحوا ١٣ ألف إسماعيلى وغنموا منهم أسرى وغنائم كثيرة، وانتهز صلاح الدين فرصة ارتباك الإسماعيليين وأرسل جيشه عليهم يغزو سارمين Sarmin ومعرة ماسرين Ma'arrat Masrin وقتل معظم سكانهما، ولا يذكر المؤرخ للأسف فى أى الشهور وقعت هذه الأحداث، ولكن إذا كانت هذه الغارة كما هو محتمل قد حدثت عندما كان جيش صلاح الدين فى طريقه شمالاً إلى حلب، فإن ذلك قد يفسر عداء الحشاشين له، وعلى أية حال فحتى بدون هذه التفسيرات من الواضح أن ظهور صلاح الدين كقوة كبرى فى سوريا السنية المسلمة

وانتهاجه سياسة توحيد المسلمين قد جعل منه خصماً خطيراً للحشاشين.

وفى أغسطس ١١٧٦ تقدم صلاح الدين فى أراضى الحشاشين تحدوه الرغبة فى الانتقام، وحاصر مصيف ولكنه لم يلبث أن فك الحصار وانصرف. وهناك روايات مختلفة عن الظروف التى انسحب فيها، فيعزى سكرتيره ومؤرخه عماد الدين- وتتبعه فى قوله معظم المصادر العربية الأخرى- سبب الانسحاب إلى وساطة أمير حماة خال صلاح الدين الذى ناشده جيرانه الحشاشون التدخل لصالحهم لدى ابن أخته، بينما يقدم مؤرخ آخر سبباً أكثر إقناعاً وهو هجوم الفرنجة على وادى البقاع وما ترتب على ذلك من حاجة عاجلة إلى تواجد صلاح الدين هناك، أما كمال الدين بن العديم فيذكر فى تاريخه عن حلب أن صلاح الدين هو الذى طلب وساطة أمير حماة مناشدتهم السلام نتيجة - فيما يبدو- لهلع أصابه من أساليب الحشاشين، أما الرواية الإسماعيلية فتقول إن صلاح الدين أصابه الرعب من القوى الخارقة للطبيعة التى يتمتع بها سنان، فتدخل أمير حماة لصالحه ورجا سنان أن يسمح له بأن يرحل فى سلام، ووافق صلاح الدين على الانسحاب ومنحه سنان الأمن والسلام وأصبح الاثنان من أحسن الأصدقاء، ومن الواضح أن الرواية الإسماعيلية مشحونة بالأساطير، ولكن يبدو أنها تحوى عنصراً من الصدق وهو التوصل إلى نوع من الاتفاق بين الرجلين، ومن المؤكد أننا لن نسمع فيما بعد عن أية أعمال عدائية صريحة قام بها الحشاشون ضد صلاح الدين بعد انسحابه من مصيف، بل وتوجد لمحات تدل على التعاون فيما بينهما.

ويقص المؤرخون عديداً من القصص بغرض تفسير- وربما تبرير-

تسامح صلاح الدين إزاء الحشاشين فيقال إن صلاح الدين بعث ذات مرة برسالة تهديد إلى رئيس الحشاشين فكان رده كالتالى: «قرأنا خطابك وفهمنا نصه وفحواه ولاحظنا ما يحتوى عليه من تهديدات لنا بالكلمات والأفعال، ووالله إنه لشىء يدعو إلى الدهشة أن نجد ذبابة تطن فى أذن فيل وبعوضة تلدغ تمثالاً، كثيرون قبلك قالوا مثل هذه الأشياء ودمرناهم دون أن يشفع لهم شفيع، فهل تبطل الحق وتؤيد الباطل؟ «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» إذا كنت حقّاً قد أصدرت أوامرك بقطع رأسى وتمزيق قلاعى فى الجبال الصلدة فإن هذه آمال كاذبة وخيالات واهمة لأن الأساسيات لا تدمرها العارضات كما أن الأرواح لا تدمرها الأمراض، أما إذا عدنا إلى المحسوسات التى تدركها الحواس وتركنا جانباً المعنويات التى تدركها الأذهان فإن لدينا أسوة حسنة برسول الله الذى قال: «لم يقاس نبى مثلما قاسيت» وأنت تعرف ماذا حدث لدعوته وأهل بيته وحزبه، ولكن الموقف لم يتغير والرسالة لم تفشل وحمد الله لا يزال أولاً وأخيراً. إننا مضطهدون ولسنا طغاة، محرومون ولسنا حارمين «قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» وأنت تعرف ظاهر أحوالنا وقدر رجالنا، وما يمكن أن يحققوه فى لحظة واحدة وكيف يحبون الموت «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» والمثل الشائع يقول إنك لا تستطيع أن تهدد بطة بإلقائها فى النهر! فخذ كل ما فى استطاعتك اتخاذه من احتياطات دون الكوارث والفواجع فإننى هازمك من داخل صفوفك، ومنتقم منك فى مكانك، وستكون كمن يدمر نفسه بنفسه «وما ذلك على الله بعسير» عندما تقرأ خطابنا هذا فارتقبنا وترحم على

نفسك واقرأ أول «النحل»[١] وآخر «صاد»[٢]!

وهناك قصة أكثر إثارة يحيكها كمال الدين نقلاً عن أخيه فيقول: «أخبرنى أخى –عليه رحمة الله– أن سنان أرسل مبعوثاً إلى صلاح الدين –رحمة الله عليه– وأمره أن يسلم رسالته إليه دون حضور أحد فأمر صلاح الدين بتفتيشه وعندما لم يجدوا معه شيئاً خطيراً أمر صلاح الدين بالمجلس فانفض ولم يعد ثمة سوى عدد قليل من الناس، وأمر المبعوث أن يأتى برسالته، ولكن المبعوث قال: «أمرنى سيدى ألا أقدم الرسالة إلا فى عدم حضور أحد» فأمر صلاح الدين بإخلاء القاعة تماماً إلا من اثنين من المماليك يقفان عند رأسه وقال: ائت برسالتك، ولكن مبعوث سنان أجاب: «لقد أمرت بألا أقدم الرسالة فى حضور أحد على الإطلاق» فقال صلاح الدين: «هذان المملوكان لا يفترقان عنى، فإذا أردت فقدم رسالتك وإلا فارحل» فقال المبعوث: «لماذا لا تصرف هذين الاثنين كما صرفت الآخرين؟» فأجاب صلاح الدين: «إننى أعتبرهما فى منزلة أبنائى وهم وأنا واحد» عندئذ التفت المبعوث إلى المملوكين وسألهما: «إذا أمرتكما باسم سيدى أن تقتلا هذا السلطان فهل تفعلان؟» فردا قائلين: نعم، وجردا سيفيهما وقالا: «أأمرنا بما شئت» فدهش السلطان صلاح الدين –عليه رحمة الله– وغادر المبعوث المكان وأخذ معه المملوكين، ومنذ ذلك الحين مال صلاح الدين –عليه رحمة الله– إلى مسالمة سنان والدخول معه فى علاقات ودية، والله أعلم».

وفى ٣١ أغسطس ١١٧٧ اغتال الحشاشون شهاب الدين ابن العجمى وزير الملك الصالح الزنكى فى حلب والوزير السابق لنور الدين

(١) «أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون».

(٢) «ولتعلمن نبأه بعد حين».

ابن زنكى، ولكنهم فشلوا فى اغتيال اثنين من كبار أصحاب الوزير معه، ويعزو المؤرخون السوريون هذا الاغتيال إلى تحريض قمشطجين الذى قيل أنه زور توقيع الملك الصالح على خطاب إلى سنان يطلب فيه إرسال حشاشين لاغتيال شهاب الدين ومصدر هذه القصة اعترافات الحشاشين أنفسهم الذين زعموا فى التحقيق أنهم يعملون بأوامر الملك الصالح نفسه، ويقال إن الخدعة اكتشفت خلال المراسلات التالية بين الملك الصالح وسنان، وقد استغل أعداء قمشطجين الفرصة لإسقاطه، ومهما كان نصيب هذه القصة من الصدق فإن موت الوزير شهاب الدين وما تلاه من اضطراب وسوء ظن بين الزنكيين والحشاشين لا بد أن يكون قد لقى ترحيباً من صلاح الدين.

واستمر النزاع بين حلب وسنان ففى عام ١١٧٩–١١٨٠ استولى الملك الصالح على الهجيرة من الحشاشين، ولم تؤد احتجاجات سنان إلى أية نتيجة فأرسل عملاءه إلى حلب حيث أشعلوا النار فى سوق المدينة مما أسفر عن خسائر كبيرة، ولم يتم القبض على أحد ممن أشعلوا الحريق، وهى حقيقة تدل على أن الحشاشين كانوا ما يزالون يتمتعون بتأييد محلى فى المدينة.

فى ٢٨ أبريل ١١٩٢ تمكن الحشاشون من توجيه ضربتهم الكبرى باغتيال المركيز كونراد أوف مونتفيرات Conrad of Montferrat ملك بيت المقدس بينما كان فى صور، وتتفق معظم المصادر على أن مغتاليه تخفوا فى زى رهبان مسيحيين وشقوا طريقهم إلى خلوة الأسقف والمركيز، وعندما سنحت لهم الفرصة طعنوه حتى الموت، وقرر مبعوث صلاح الدين فى صور أن القاتلين عندما استجوبا اعترفا بأن ملك إنجلترا هو الذى دبر عملية الاغتيال، وتسجل معظم المصادر الشرقية وبعض

المصادر الغربية أن مثل هذا الاعتراف قد تم حقا، ومما يعطى تأييداً لهذه القصة أن ريتشارد قلب الأسد (ملك إنجلترا) كانت له مصلحة واضحة فى اختفاء المركيز وكذلك السرعة المريبة التى تم بها زواج الكونت هنرى أوف شمبانيا Henry of Champagne من أرملة كونراد وارتقاؤه عرش مملكة بيت المقدس، وفى مقدور الإنسان أن يفهم كيف أن هذه القصة وجدت انتشاراً واسعًا فى ذلك الوقت، ولكن سواء كان القاتلان قد ذكرا الحقيقة فى اعترافهما أم لا فمسألة أخرى، فمن ناحية أخرى نجد مؤرخ الزنكيين ابن الأثير- ولا بد هنا من الإشارة إلى كراهيته لصلاح الدين- يذكر أن هذه الرواية كانت شائعة فقط بين الإفرنج، أما هو فيؤكد أن صلاح الدين نفسه كان مدبر هذا الاغتيال بل ويذكر كمية المال التى دفعها إلى سنان للقيام بهذا العمل، ويقول ابن الأثير إن خطة صلاح الدين كانت تقضى بقتل ريتشارد نفسه وكونراد، ولكن كان من المستحيل قتل ريتشارد. أما السيرة الإسماعيلية فتعزو المبادرة إلى سنان بعد حصوله على موافقة صلاح الدين المسبقة وتعاونه، ولكن هذا الإقرار أيضاً من جانب الكاتب الإسماعيلى ينبغى أن ينظر إليه فى ضوء رغبته الواضحة فى الإيحاء بأن سنان كان على تعاون وثيق مع صلاح الدين فى الحرب المقدسة، ولذلك فقد أضاف معلومات غير محتملة تقول إن صلاح الدين كافأه على هذا العمل بأن منح الحشاشين كثيرا من الامتيازات بما فيها الحق فى اقامة بيوت للدعوة لمذهبهم فى القاهرة ودمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها من المدن، وربما نجد فى هذه القصة آثاراً مبالغًا فيها تدل على نوع من الاعتراف المؤكد الذى أولاه صلاح الدين للحشاشين فى الفترة التالية لاتفاق مصيف أما عماد الدين من جهة أخرى فيبلغنا بأن اغتيال كونراد لم يكن ملائمًا لصلاح الدين لأن كونراد رغم أنه كان واحداً من زعماء الصليبيين إلا أنه كان عدواً

لريتشارد المقيت، وكان على اتصال مع صلاح الدين فى الوقت الذى لقى فيه مصرعه، وقد أدت وفاة كونراد إلى تخليص ريتشارد من القلق وتشجيعه على مواصلة الحرب، وبعد أربعة شهور من هذه الأحداث وقع هدنة مع صلاح الدين شملت - بناء على طلب صلاح الدين - أراضى الحشاشين أيضاً.

كان اغتيال كونراد آخر منجزات سنان، ففى عام ١١٩٢ ـ ١١٩٣ أو ١١٩٣ ـ ١١٩٤ مات شيخ الجبل المخيف وخلفه فارسى يدعى نصر، وفى عهده يبدو أن «ألموت» قد استعادت سلطتها على إسماعيليى سوريا وظلت كذلك إلى ما بعد الغزو المغولى، ونعرف عن هذه الفترة أسماء بعض كبار الدعاة فى تواريخ مختلفة حفظتها لنا المصادر الأدبية ونقوش المراكز الإسماعيلية فى سوريا، ومعظم هذه الأسماء يشار إليها باعتبار أصحابها مبعوثين من «ألموت».

سياسات الحشاشين

وقد تأثر أيضاً الحشاشون فى سوريا -باعتبارهم من مواطنى «ألموت»- بالسياسة الجديدة التى أعلنها جلال الدين حسن الثالث والخاصة بإعادة حكم الشريعة والتحالف مع الخليفة فى بغداد، ففى عام ١٢١١ أرسل سيد «ألموت» رسائل إلى سوريا يطلب فيها من أتباعه السوريين بناء المساجد وإداء الصلوات والشعائر الدينية وتجنب الخمر والمخدرات وغيرها من الممنوعات ومراعاة الصوم وكل ما تأمر به الشريعة المقدسة.

ولا نعرف الكثير عن كيفية تأثير إصلاحات جلال الدين فى عقائد

وممارسات الحشاشين ولكن يبدو أن التحالف مع الخليفة ترك أثراً واضحاً على نشاطاتهم، فلم نعد نسمع عن اغتيالات لشخصيات إسلامية فى سوريا حيث يوجد أعداء الإسلام من الإفرنج فى حين أن عددا من الشخصيات المسيحية لم تلبث أن سقطت صريعة، وكان أولاها ريموند ابن بوهمن الرابع Bohemon IV حاكم أنطاكية الذى قتل فى كنيسة بطرطوس فى عام ١٢١٣ وأقدم أبوه المتعطش للانتقام على فرض الحصار على قلعة الخوابى، ولما كان الحشاشون الآن على علاقات طيبة مع خلفاء صلاح الدين فقد نشدوا مساعدة حاكم حلب وأرسل هذا بعثة عسكرية لرفع الحصار عنهم، ولكن قواته أصيبت بنكسة على أيدى الإفرنج فناشد الحشاشون حاكم دمشق أن يهب إلى نجدتهم فبعث إليهم جيشاً أرغم الأعداء على رفع الحصار والانسحاب.

وفى الوقت نفسه استطاع رؤساء الحشاشين أن يجدوا وسيلة للاستفادة من شهرتهم الذائعة الصيت، إذ استطاعوا تحت التهديد بالاغتيال أن يحصلوا على أجعال مالية من الحكام المسلمين والمسيحيين على السواء، بل وحتى من الزوار المؤقتين للشرق، إذ نعرف من مصدر عربى أنه فى عام ١٢٢٧ استقبل كبير الدعاة مجد الدين مبعوثين من الإمبراطور فريدريك الثانى الذى كان قد وصل إلى فلسطين فى حملة صليبية، وقد أحضروا له هدايا تبلغ قيمتها حوالى ٨٠ ألف دينار، وبحجة أن الطريق إلى ألموت بالغ الخطورة بسبب هجمات الخورازميين استبقى مجد الدين الهدايا لنفسه فى سوريا ومنح الإمبراطور مقابل ذلك الأمان الذى طلبه، وفى الوقت نفسه احتاط بإرسال مبعوث إلى حاكم حلب لإبلاغه بسفارة الإمبراطور وضمان التنسيق معه.

ويفسر الخطر الخورازمى حادثاً آخر يقال إنه وقع فى وقت مبكر من

العام نفسه، فيقال إن مجد الدين أرسل مبعوثاً إلى السلطان السلجوقى فى روم بقونية يطلب منه أن يرسل الجعل السنوى المعتاد وقدره ٢٠٠٠ دينار الذى تعود السلطان فى الماضى إرساله إلى «ألموت» أن يرسله إليه ـ أى إلى مجد الدين ـ بدلا من ذلك، وتشكيك السلطان فى الأمر فأرسل مبعوثاً إلى «ألموت» لاستشارة جلال الدين وأكد سيد ألموت أنه تخلى عن هذا المال لسوريا وأمر السلطان أن يدفعه إلى مجد الدين ففعل.

وفى ذلك الوقت نفسه تقريباً أصبح الحشاشون أنفسهم تابعين لفرسان الإسبتارية، يقول المؤرخ العربى إنه بعد بعثة الإمبراطور طلب فرسان الإسبتارية جزية من الحشاشين فرفضوا قائلين «ان ملككم الإمبراطور يعطينا فهل تأخذون منا؟» وعندئذ هاجمهم فرسان الإسبتارية وغنموا منهم غنائم كثيرة، ولا يوضح النص (التاريخ المنصورى لمحمد الحمدى) ما إذا كانت جزية الحشاشين إلى فرسان الإسبتارية ترجع إلى هذا الحدث أم أنها قائمة من قبل.

الآن أصبح الحشاشون جزءاً معترفاً به بل ومقبولاً من المسرح السياسى السورى، ويعطينا ابن واصل ـ وهو مواطن من وسط سوريا ـ دليلا طريفا على ذلك فيقول إنه حدث فى عام ١٢٤٠ أن تعرض قاضى سنجار المدعو بدر الدين لغضب السلطان الجديد ففر عبر سوريا وحصل على اللجوء لدى الحشاشين، وكان رئيسهم فى ذلك الحين فارسياً يدعى تاج الدين كان قد قدم من «ألموت». ولا يتردد ابن واصل فى أن يضيف أنه كان يعرفه شخصياً وكان على صداقة معه، ونجد اسم تاج الدين هذا على نقش فى «مصيف» يعود تاريخه إلى ذى القعدة ٦٤٦هـ (فبراير أو مارس ١٢٤٩).

بقيت مجموعة واحدة من الأحداث ينبغى تسجيلها قبل الاختفاء

السياسى للحشاشين فى سوريا وهى تلك المتعلقة بالملك لويس التاسع (المعروف بالقديس لويس) وإذا كان فى إمكاننا أن نرفض قصة مؤامرة الحشاشين لاغتيال القديس لويس عندما كان لايزال شاباً فى فرنسا باعتبارها لا أساس لها كغيرها من قصص نشاط الحشاشين فى أوربا، إلا أننا نقبل الحكاية التى أوردها جوينڤيل Joinville كاتب سيرة القديس لويس عن معاملات الملك مع الحشاشين بعد وصوله إلى فلسطين، فهذه القصة من طراز آخر وتحمل علامات الصحة، يقول جوينڤيل إن مبعوثى الحشاشين جاءوا إلى الملك فى عكا وطلبوا منه أن يدفع الجزية لرئيسهم «كما يفعل إمبراطور ألمانيا، وملك المجر، وسلطان بابليون (مصر) والآخرون فى كل عام لأنهم يعرفون جيداً أن حياتهم مرتبطة بإرادته» وطرح هؤلاء المبعوثون على الملك خياراً آخر هو انه إذا كان لا يرغب فى دفع الجزية فإنهم يرضون بإقالتهم من الجزية التى يدفعونها بأنفسهم إلى فرسان الاسبتارية وفرسان المعبد، ويفسر جوينڤيل سبب هذه الجزية بأن فرسان الاسبتارية والمعبد لم يكونوا يخشون شيئاً من الحشاشين لأنهم كانوا إذا قتل لهم سيد حل محله آخر لا يقل عنه كفاءة، ولم يكن رئيس الحشاشين راغباً فى إضاعة رجاله بلا مقابل، ونعرف من جوينڤيل أنه اتفق على استمرار الجزية إلى فرسان التنظيمين على أن يتبادل الملك وكبير الدعاة الهدايا، وهذه هى المناسبة التى قام فيها الأخ إيف دى بريتون Frair Yves de Breton المتحدث بالعربية بمقابلة رئيس الحشاشين والحديث معه.

نهاية الحشاشين

جاءت نهاية قوة الحشاشين تحت الهجوم المزدوج للمغول وسلطان مصر المملوكى الظاهر بيبرس. كان الحشاشون فى سوريا -كما هو متوقع- قد شاركوا غيرهم من المسلمين فى التصدى للتهديد المغولى، وحاولوا كسب ثقة بيبرس بإرسال السفارات والهدايا إليه، ولم يبد بيبرس فى بداية الأمر عداء نحوهم بل إنه عندما منح الهدنة لفرسان الإسبتارية فى عام ١٢٦٦ نص فيها على أنهم يجب أن يمتنعوا عما يتلقونه من جزية من مختلف مدن وأقاليم المسلمين بما فيها قلاع الحشاشين التى قدر مصدر مصرى أنها كانت تدفع جزية مقدارها ١٢٠٠ دينار و١٠٠ مود من القمح والشعير سنوياً، وكان الحشاشون من الحكمة بحيث أرسلوا مبعوثين إلى بيبرس يعرضون عليه الجزية التى كانوا يدفعونها من قبل إلى الإفرنج لاستخدامها فى الحرب المقدسة.

غير أن بيبرس ـ الذى كان هدف حياته تحرير الشرق الأدنى الإسلامى من التهديد المزدوج للافرنج المسيحين والمغول الوثنيين ـ كان لا يمكن أن يتوقع منه التسامح إزاء استمرار وجود جيب مستقل خطر من الملحدين والقتلة فى قلب سوريا فنجده منذ وقت مبكر يعود إلى ١٢٦٠، كما يقول مؤرخ حياته، يقطع أراضى الحشاشين إلى أحد كبار قواده، وفى عام ١٢٦٥ أمر بجمع الضرائب والرسوم على «الهدايا» التى تصل إلى الحشاشين من مختلف الأمراء الذين يدفعون إليهم الجزية، ومن بينهم -كما ذكرت المصادر- «الإمبراطور ألفونسو وملوك الإفرنج واليمن» (المقريزى: كتاب السلوك) ولم يكن فى استطاعة الحشاشين -الذين أضعفوا فى سوريا وأثبطت همتهم نتيجة مصير إخوانهم

الفارسيين– أن يبدوا مقاومة فقبلوا هذا الإجراء صاغرين وأصبحوا هم أنفسهم يدفعون الجزية إلى بيبرس وسرعان ما أصبح بيبرس بدلاً من سيد «ألموت» هو الذى يعين رؤساء الحشاشين ويخلعهم كما يريد.

فى عام ١٢٧٠ استاء بيبرس من موقف رئيس الحشاشين المسن نجم الدين فخلعه وعين مكانه زوج ابنته سريم الدين مبارك حاكم قلعة العليقة لأنه كان أكثر تجاوباً من حماه. كان الرئيس الجديد يحكم من منصبه كممثل لبيبرس واستثنيت مصيف من نفوذه وأصبحت تحت حكم بيبرس المباشر، ولكن سريم الدين استطاع بالخديعة أن يضم مصيف إلى أملاكه مرة أخرى فعزله بيبرس وجاء به سجيناً إلى القاهرة حيث مات – ربما مسموماً –وأعاد بيبرس تعيين نجم الدين الذى أصبح سلس القياد الآن على أن يحكم بالاشتراك مع ابنه شمس الدين نظير جعل سنوى يدفع إلى بيبرس، ونجد اسميهما محفورين فى جامع قدموس Qadmus فى حوالى ذلك التاريخ.

فى فبراير أو مارس ١٢٧١ اعتقل بيبرس اثنين من الحشاشين على زعم أنهما أرسلا لقتله، وقيل إنهما كانا فى سفارة من العليقة إلى بوهمن السادس ملك طرابلس وأنه دبر لهما اغتيال السلطان. وعلى أثر ذلك أمر بيبرس أيضاً باعتقال شمس الدين واتهمه بالتخابر مع الفرنج ولكنه أطلق سراحه فيما بعد عندما حضر أبوه نجم الدين وأقسم على براءته، كما أطلق سراح الشخصين اللذين اتهما بتدبير القتل، ووافق الزعيمان الإسماعيليان –تحت الضغط– على تسليم قلاعهما والبقاء فى بلاط بيبرس، وسار نجم الدين فى صحبة بيبرس حيث مات فى القاهرة فى أوائل عام ١٢٧٤ ، وسمح لشمس الدين بالذهاب إلى كهف «لتسوية شئونها»، ومرة أخرى بدأ شمس الدين ينظم المقاومة هناك

ولكن بلا جدوى، ففى مايو – أو يونيو– ١٢٧١ استولى قواد بيبرس على قلعتى «العليقة» و«الرصافة» وفى أكتوبر ١٢٧١ أقدم شمس الدين وقد تأكد من يأس موقفه على الاستسلام لبيبرس، واستقبله بيبرس فى أول الأمر استقبالا حسناً ثم عندما علم فيما بعد بمؤامرة لاغتيال بعض أمرائه أمر بيبرس بترحيل شمس الدين ومجموعته إلى مصر واستمر حصار القلاع فسقطت «الخوابى» فى العام نفسه واحتلت باقى القلاع فى عام ١٢٧٣.

بعد أن استسلم الحشاشون لبيبرس أصبحت خدماتهم الماهرة تحت تصرفه لفترة قصيرة من الزمن، فمنذ وقت مبكر يعود إلى أبريل ١٢٧١ ذكر أن بيبرس كان يهدد كونت طرابلس بالاغتيال، كما أن محاولة اغتيال الأمير إدوارد الإنجليزى فى عام ١٢٧٢ وربما أيضاً اغتيال فيليب أوف مونتفورت حاكم صور فى ١٢٧٠ كانتا بتدبير بيبرس، وقد تحدث مؤرخون متأخرون فيما بعد عن استخدام بعض سلاطنة المماليك للحشاشين للتخلص من مناوئيهم المتعينين، بل ويعطى الرحالة المغربى ابن بطوطة – الذى عاش فى القرن الرابع عشر – وصفا للتدابير التى كانت تتخذ فى مثل هذه الحالات فيقول: «عندما يريد السلطان أن يرسل واحدا منهم لقتل أحد أعدائه كان يدفع له ثمن دمه فإذا استطاع القاتل أن يفلت بعد أداء مهمته كان يأخذ النقود له، وإذا قتل أو وقع فى الأسر كان المال يعطى لأولاده أو ورثته، وكانوا يستخدمون مُدىً مسمومة لقتل ضحاياهم وأحياناً كانت خططهم تفشل ويتعرضون هم أنفسهم للقتل».

ومن المحتمل أن تكون مثل هذه القصص ناشئة عن الأساطير والشكوك وليس لها من الدلالة أكثر مما كان للحكايات التى تروى فى

الغرب عن جرائم اغتيال لأمراء أوربا نظير أجر يتقاضاه شيخ الجبل، وبعد القرن الثالث عشر لم تعد هناك اغتيالات مؤكدة يقوم بها حشاشون سوريون لحساب الفرقة، ومنذ ذلك الحين ركدت الإسماعيلية كجماعة ملحدة صغيرة فى فارس وسوريا، ولم تعد لها أهمية سياسية ما، وفى القرن الرابع عشر حدث انشقاق فى خط الإمامية النزارية، وأصبح كل من الإسماعيليين السوريين والفارسيين يتبعون زعماء مختلفين، ومنذ ذلك الحين توقفت الاتصالات بين الفريقين.

وفى القرن السادس عشر بعد الغزو العثمانى لسوريا أجريت أولى عمليات المسح للأراضى والأهالى لحساب السادة الجدد، وسجلت فيها منطقة «قلعة الدعوة» باعتبارها تحوى عدة قرى غربى حماة بما فيها بعض المراكز القديمة الشهيرة مثل قدموس والكهف يسكنها أتباع فرقة خاصة لا تميزهم سوى حقيقة أنهم يدفعون ضريبة خاصة، ثم لم يعودوا يظهرون فى صفحات التاريخ حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما عرف عنهم أنهم فى نزاع دائم مع زعمائهم وجيرانهم ومع بعضهم البعض، ومنذ منتصف القرن استقروا كجماعة زراعية مسالمة مركزهم السلامية وهى مستوطنة جديدة اكتسبوها بجهدهم من الصحراء، ويبلغ عددهم فى الوقت الحاضر حوالى ٥٠ ألف شخص بعضهم -وليس كلهم- يدينون بالولاء لأغاخان كإمام لهم.

الفصل السادس

الوسائل والغايات

الحشاشون الإسماعيليون لم يخترعوا الاغتيال، إنهم أعاروه اسمهم فحسب[1]. فالقتل قديم قدم الجنس البشرى، وترمز إلى قدمه بوضوح قصة قابيل وهابيل فى الإصحاح الرابع من سفر التكوين حيث يبدو القاتل الأول والضحية الأولى شقيقين هما ابنا الرجل الأول والمرأة الأولى، وجاء القتل السياسى مع ظهور السلطة السياسية، فعندما تناط السلطة بفرد ما تبدو إزالته أسرع وأبسط وسيلة لإحداث التغيير السياسى، وعادة ما يكون الدافع لمثل هذه الاغتيالات شخصيا أو حزبيا أو عائليا وذلك لاحلال فرد أو حزب أو أسرة محل آخرين فى السلطة، ومثل هذه الاغتيالات شائعة فى الممالك والإمبراطوريات الأوتوقراطية سواء فى الشرق أو الغرب.

وفى بعض الأحيان ينظر القاتل والآخرون إلى الاغتيال كواجب تبرره حجج أيديولوجية، إذ يبدو الضحية طاغية أو مغتصباً ويبدو قتله فضيلة وليس جريمة، ومثل هذا التبرير الأيديولوجى للقتل قد يعبر عنه بصيغ سياسية أو دينية، وفى كثير من المجتمعات ليس هناك فرق كبير بين الاثنين، فنقرأ مثلا عن أثينا القديمة أن اثنين من الأصدقاء هما هارموديوس Harmodius واريستوجيتون Aristogeiton تآمرا على اغتيال الطاغية هيبياس Hippias ولكنهما نجحا فقط فى قتل أخيه وشريكه فى الحكم، وألقى القبض عليهما وأعدما، وبعد سقوط هيبياس أصبحا من الأبطال العامين فى أثينا وأنشئت لهما التماثيل والأغانى تخليدا لذكراهما وتمتع أبناؤهما بالامتيازات والإعفاءات، وقد أصبح هذا التوقير لقتل الطغاة جزءاً من المزاج السياسى فى اليونان وروما، ونجد

(١) يشير المؤلف بذلك إلى لفظتى assassination, assassin والأولى ترجمة حرفية للفظة «حشاشين» والثانية تعنى الاغتيال، وقد اشتقت من اللغة الإنجليزية وبعض اللغات الأوربية الأخرى من اللفظة الأولى.

تعبيرا عنه من الاغتيالات الشهيرة كتلك التى تعرض لها فيليب المقدونى، وطيبريوس جراكوس ويوليوس قيصر، كما نجد النظرة المثالية نفسها إلى قاتلى الطغاة موجودة لدى اليهود وتتمثل فى أشخاص مثل إيهود وجيهو، كما تبدو أكثر وضوحاً فى قصة الفتاة الجميلة جوديت Judith التى شقت طريقها إلى خيمة الطاغية هولوفيرنس Holo Fernes مضطهد قومها وقطعت رأسه وهو نائم، وقد كتب إصحاح جوديت أثناء فترة السيطرة الهللينية ولا يوجد إلا فى صيغته الإغريقية ويرفضه بعض اليهود ويتبعهم فى ذلك البروتستانت باعتباره من كتب الأبوكريفا[١] ولكنه بالرغم من ذلك مضمن فى العهد القديم للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقد ألهم كثيرين من الرسامين والنحاتين المسيحيين، وبالرغم من أن جوديت ليس لها مكان فى التراث الدينى اليهودى إلا أن مثال «القاتل التقى» الذى تمثله عاش ليلهم جماعة السيكارى Sicarri الشهيرة أو «رجال الخناجر» وهم مجموعة من الوطنيين اليهود المتحمسين (زيلوت) ظهروا فى زمن سقوط أورشليم وكانوا يدمرون كل من يعارضهم أو يعوقهم.

وكذلك نجد أن الاغتيال السياسى ـ بجانبيه العملى والمثالى ـ كان مألوفاً منذ البدايات الأولى للتاريخ السياسى الإسلامى، فمن بين الخلفاء الأربعة الراشدين الذين خلفوا النبى ﷺ فى رئاسة الجماعة الإسلامية اغتيل ثلاثة منهم، فالخليفة عمر طعنه مولى مسيحى لموجدة خاصة، وعندما عرف الخليفة بذلك وهو على فراش الموت حمد الله لأنه لم يقتل بيد أحد المؤمنين، ولكن حتى هذا العزاء عز على خليفتيه عثمان وعلى

(١) كتب ملحقة بالتوراة تضم أخبار اليهود المتأخرين ولا يعترف بها المسيحيون. (المترجم)

اللذين اغتالهما عرب مسلمون، الأول اغتاله عدد من الثوار الغاضبين، والثانى اغتاله خارجى متطرف، وفى الحالتين كان الفاعلون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم قاتلى طغاة يخلصون الجماعة من حاكم غير عادل وكانوا يجدون من يتعاطف معهم فى هذا الاتجاه.

وتبلورت هذه القضايا خلال الحرب الأهلية الإسلامية التى أعقبت وفاة عثمان، فقد طالب معاوية والى سوريا وقريب الخليفة المقتول بمعاقبة قتلة عثمان، ولكن عليا الذى أعقبه فى الخلافة لم تكن لديه القدرة وربما الرغبة لإجابته إلى طلبه، وقال شيعته تبريرا لموقفه إنه ليست هناك جريمة قد ارتكبت، فعثمان فى نظرهم طاغ وكان موته تنفيذا لحكم بالإعدام أصدرته جماعة المسلمين وليس اغتيالا. والحجة نفسها استخدمتها فرقة الخوارج المتطرفة لتبرير اغتيال على نفسه بعد ذلك بسنوات قليلة.

إن الإسلام يعترف إلى حد ما بمبدأ الثورة المشروعة، ففى الوقت الذى يمنح فيه سلطات مطلقة للحاكم نجده يسقط واجب الرعية فى الطاعة إذا كان حكمه آثماً «فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» وحيث إنه لم ترس قاعدة محددة لاختبار شرعية الأحكام أو لمباشرة حق العصيان على الإثم لذلك كان الملجأ الفعال الوحيد لمن يستنكف ضميره حكما ما أن يثور على الحاكم ويحاو ل أن يرغمه على جادة الصواب أو يخلعه بالقوة، أما الإجراء الأسرع والأنشط فهو أن يزيله بالاغتيال، وقد أثير هذا المبدأ مراراً ولا سيما من ثوار الفرق لتبرير أفعالهم.

وفى الواقع فإن اغتيال الحكام أصبح نادراً بعد وفاة على ومعاوية، وعندما كان يقع نجده نتيجة لخلافات داخل الأسر الحاكمة أكثر من

كونه استجابة لدوافع ثورية، وعلى العكس نجد الشيعة يقولون إن أئمتهم وغيرهم من أهل بيت النبى هم الذين تعرضوا للاغتيال بتحريض من الخلفاء السنيين، وتحوى آدابهم قوائم طويلة للشهداء العلويين الذين تستصرخ دماؤهم الانتقام.

وهكذا فإن الإسماعيليين عندما كانوا يبعثون فدائييهم لقتل الحكام الآثمين وبطاناتهم كانوا يحيون بذلك تقليداً إسلامياً قديماً، حقاً لم يكن بالتقليد المألوف بل كان فى طور السبات منذ أمد طويل، ولكنه ظل محتفظاً بمكانة خاصة فى دائرة الفرق المنشقة والمتطرفة.

لاشك أن مثالية الاغتيال السياسى القديم فى تاريخ البشرية بالإضافة إلى الالتزام الدينى بتخليص العالم من الحكام الآثمين ساهما فى ممارسة فن الاغتيال كما تبناه وطبقه الإسماعيليون، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك، فإن قتل الحشاش لضحيته لم يكن عملا من أعمال الإيمان فحسب وإنما كانت له أيضاً طقوس ذات طبيعة مقدسة، فمما له دلالة خاصة أن الحشاشين فى كل الاغتيالات التى مارسوها سواء فى فارس أو سوريا كانوا يستخدمون الخنجر دائماً ولم يلجأوا مطلقاً إلى القتل بالسم أو بالسهام بالرغم من أن القتل بمثل هذه الطرق البديلة يكون فى بعض الحالات أكثر سهولة وأمناً، وكان الحشاش القاتل يمسك به فى كل الحالات تقريباً فلا يحاول الهرب بل هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يعتبرون البقاء على قيد الحياة بعد إنجاز المهمة أمراً مخجلاً.

والمعروف أن التضحية البشرية وطقوس القتل ليس لهما مكان فى الإسلام شريعة أو تراثاً أو ممارسة، ولكنهما رغم ذلك قديمان وعميقا الجذور فى المجتمعات البشرية، ومن الممكن أن يظهرا فى أماكن غير متوقعة تماماً كما أن «الرقص التعبدى» الذى كان يمارس فى الأزمنة

السحيقة ونسى تماماً عاد إلى الظهور فى شكل الانجذاب الصوفى فى رقص الدراويش (الذكر) مع أنه يتعارض تماماً مع عبادات الإسلام البسيطة المتقشفة، وبالمثل فقد وجدت «طقوس الموت» القديمة تعبيرات جديدة لها فى صيغ إسلامية فيحدثنا المؤلفون المسلمون بأنه فى أوائل القرن الثامن (الميلادى) ظهر رجل فى الكوفة يدعى أبا منصور العجلى زعم أنه الإمام المنتظر، وقال بأن تعاليم الدين لها معنى رمزى ولا حاجة لإطاعتها بالمعنى الحرفى، وأن الجنة والنار ليس لهما وجود مستقل وإنما هما مجرد المسرات والشقاء فى هذا العالم، وكان أتباعه يمارسون الاغتيال كواجب دينى. كما ظهر له معاصر من نفس قبيلته يدعى المغيرة بن سعيد كان يدعو لنظريات وممارسات مشابهة، وقد سحقت السلطات كلتا الجماعتين ولكن مما له دلالة أن كلا منهما كانت بحكم عقائدها تستخدم سلاحاً واحداً للقتل لا تعدوه إلى غيره، فإحداهما كانت تخنق ضحاياها بالحبال والأخرى تضربهم على رءوسهم بالهراوات الخشبية، وكان أنصارهما يعتقدون أن الأسلحة المعدنية لا يجوز استخدامها بعد ظهور المهدى، وهاتان الجماعتان كانتا تنتميان إلى أقصى الجناح المتطرف من غلاة الشيعة، ولا شك أن هناك تماثلا واضحاً بين هاتين الجماعتين وجماعة الإسماعيلية اللاحقة فيما يتعلق بالتناقض مع مبادئ الدين واستخدام سلاح بعينه فى ممارسة القتل.

ولقد كان الإسماعيليون كحراس على أسرار دفينة ومبشرين بالخلاص عن طريق الإمام وحملة وعد بتحقيق رسالة، ودعاة انعتاق من مشاق العالم وعبء الشريعة ـ كانوا بكل ذلك جزءاً من تراث قديم يعود إلى البدايات الأولى للإسلام بل وإلى أقدم من ذلك، كما أنه يمتد فى المستقبل إلى يومنا الحالى، هذا التراث يعتمد على نوع من العبادات

الشعبية والعاطفية تتناقض تناقضاً حاداً مع الدين الشرعى الذى يحميه النظام القائم.

فقد كان هناك الكثير من أمثال هذه الفرق والجماعات قبل الإسماعيلية، ولكن الإسماعيليين هم أول من أنشأ تنظيماً فعالاً ومستمراً، وكانت هذه علامة للعصر، فالجمعيات السابقة التى تضم الفقراء والمستضعفين كانت متفرقة ولا أهمية لها ونادراً ما تكتسب ذكراً خاصاً يجعلها معروفة لدى المؤرخ، أما فى مجتمع الخلافة المتأخرة مع ما يميزه من تمزق وانعدام الأمن فقد بحث الناس عن الطمأنينة والأمن فى أشكال جديدة قوية من الروابط، وتعددت هذه الروابط وأصبحت أكثر شمولاً وامتدت من الطبقات الدنيا إلى الوسطى بل وإلى الطبقات العليا فى المجتمع حتى أقدم أخيراً الخليفة الناصر نفسه إلى الاحتفال بانضمامه إلى إحداها محاولاً بذلك ضمها إلى جهاز الحكومة.

هذه الروابط كانت من أنواع متعددة، فبعضها كان إقليمياً بصفة أساسية يظهر فى المدن أو الأحياء وله مهام مدنية أو بوليسية أو حربية، وبعضها يظهر فى مجتمعات مهنية تقترن بجماعات محلية أو عرقية أو دينية وربما تكتسب أيضاً دوراً اقتصادياً وغالباً ما تظهر فى شكل روابط للشباب أو الرجال الذين هم فى مقتبل العمر، ويكون لها مناصب وطقوس تميز الوصول إلى سن البلوغ أو الرجولة، ومعظم هذه الروابط كانت تقوم على الأخوة الدينية فتضم أتباعاً لرجال مقدسين وعبادات يضعونها بأنفسهم، ومن السمات المشتركة فى هذه الروابط جميعاً أنها تتبنى عقائد وممارسات تنتمى إلى الديانة الشعبية ويدينها رجال الدين المحافظون، كما تتميز كذلك بوجود رابطة قوية من الولاء بين الرفاق

والتفانى فى الخضوع للزعماء ونظام لطقوس الانضمام والرتب المتدرجة تواكبها مراسم احتفالية ورموز معقدة[١]، ومعظم هذه الجماعات كانت غير نشطة سياسياً بالرغم من طبيعتها المنشقة الغامضة، ولكن الإسماعيليين -بفضل تكتيكاتهم الحربية وأهدافهم الثورية- استطاعوا استخدام هذا الشكل من التنظيم الولائى للقيام بمحاولة جريئة لقلب النظام القائم والحلول محله، وفى الوقت نفسه تخلصوا بالتدريج من النقاء الفلسفى لنظرياتهم المبكرة وانتهجوا أشكالاً من الديانة وثيقة الصلة بالمعتقدات السائدة بين أعضاء الجماعة، فمن ناحية نجد الإسماعيليين مثلا ـ طبقا لما يقوله المؤرخون الفرس ـ ينتهجون النظم الديرية تقريباً فيمتنع على قادة القلاع ماداموا فى مناصبهم الاحتفاظ بالنساء.

ولم يسبق للحشاشين مثيل فى استخدامهم المنظم المدبر الطويل للرعب كسلاح سياسى، فالخناقون الذين ظهروا فى العراق كانوا جماعة صغيرة تقتل عشوائياً مثلها فى ذلك كالسفاحين فى الهند، كما أن الاغتيالات السياسية السابقة كانت رغم ما فيها من إثارة من فعل أفراد أو على أحسن الأحوال من فعل جماعات صغيرة من المتآمرين محدودة من حيث الغرض والتأثير، أما فيما يتعلق بالمهارة فى الاغتيال والتآمر فقد سبقهم الكثيرون فى هذا الصدد وحتى فى تطوير الاغتيال إلى فن وطقوس وواجب كان هناك من سبقهم بل وبزّهم فى ذلك المجال ولكن

(١) من آخر أمثلة الروابط ما فجعت به البشرية أخيراً بأنباء مذبحة «معبد الشعب» فى مستعمرة «جونستاون» حيث تكشفت عن جمعية دينية شاذة يتزعمها مشعوذ بروتستانتى يدعى جيم جونز وقد انتحر أفراد هذه الجماعة بتجرع السم حين افتضح أمرهم إذ تجرع أكثر من ٩٠٠ شخص من الأطفال والنساء والرجال السم صاغرين راضين عند أول إشارة من الزعيم.
(المعرّب).

الإسماعيليين كانوا بحق «الإرهابيين الأول» الذين استطاعوا تطويع الإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية. يقول شاعر إسماعيلى فى امتداح الفدائيين: «أيها الرفاق... عندما يأتى وقت النصر ويحالفنا الحظ فى الدنيا والآخرة يستطيع محارب واحد يمشى على قدميه أن يبث الرعب فى قلب ملك تحت إمرته مائة ألف فارس أو يزيد»!

حقاً، لقد ظل الشيعة قروناً طويلة لا يبخلون عن إنفاق كل جهد ودماء من أجل أئمتهم دون جدوى وقاوموا بهبات لا تحصى تتراوح بين التضحية بالذات التى تقدم عليها جماعات صغيرة من الأنصار المتحمسين إلى العمليات العسكرية المدبرة تدبيراً جيداً، وقد فشلت هذه الهبات جميعاً فيما عدا قلة نادرة، سحقتها القوات المسلحة التابعة للدولة أو النظام، وحتى فى الحالات النادرة التى أحرزت فيها هبات الشيعة نجاحاً لم يؤد ذلك إلى انطلاق العواطف الحبيسة التى عبر عنها الثائرون، فإن المنتصرين الذين حملتهم هذه الهبات إلى سدة الحكم والوصاية على الجماعة الإسلامية لم يلبثوا أن انقلبوا على مؤيديهم وسحقوهم.

وقد كان حسن الصباح يعلم أن دعوته لا يمكن أن تنجح ضد معاقل الإسلام السنى، وأن أنصاره ليس فى إمكانهم أن يواجهوا ويهزموا القوة المسلحة للدولة السلجوقية، وأن كثيرين قبله قد نفسوا عن فشلهم فى عنف غير منظم، أو تمرد يائس، أو سلبية كئيبة، ولكن «حسن» وجد وسيلة جديدة يمكن بها لقوة صغيرة، منظمة ومخلصة، أن توجه ضربات فعالة ضد عدو يتمتع بتفوق ساحق، هذه الوسيلة التى اختارها حسن، أو يمكن أن يقال التى اخترعها هى «الإرهاب» الذى تعرفه دائرة معارف العلوم الاجتماعية بقولها: «الإرهاب تمارسه منظمة محدودة صغيرة، وتلهبه أهداف واسعة النطاق يضمها برنامج متماسك ترتكب من أجله الأعمال الإرهابية».

يقول جوينڤيل عن زعيم إسماعيلى متأخر فى سوريا: «إن شيخ الجبل كان يدفع الإتاوة لفرسان المعبد وفرسان الاسبتارية لأنهم لم يكونوا يخافون شيئاً من الحشاشين إذ إن شيخ الجبل لم يكن يكسب شيئاً من قتله رئيس المعبد أو الاسبتارية لأنه يعرف جيداً أنه إذا قتل أحدهم سوف يحل محله آخر لا يقل عنه كفاءة، ولهذا السبب فإنه كان راغباً عن فقد حشاشيه المدربين دون مقابل يكسبه» فهذان النظامان من الفرسان الصليبيين كان كل منهما مؤسسة متماسكة لها نظامها القانونى ورتبها وروابط ولائها التى تجعلها حصينة ضد هجمات الحشاشين، أما الدولة الإسلامية الممزقة والتى تفتقر إلى هذه الصفات وتتمركز فيها السلطة الأوتوقراطية حول شخص بعينه ترتبط به ولاءات مؤقتة زائلة فقد كانت غير حصينة أمام هجمات الحشاشين.

وقد كشف حسن الصباح عن عبقرية سياسية بإدراكه نقطة الضعف هذه فى الملكيات الإسلامية كما كشف عن مواهب إدارية وإستراتيجية كبيرة باستغلالها فى هجماته الإرهابية.

ومثل هذه الحملة من الإرهاب المنظم يلزمها مطلبان واضحان: التنظيم والأيديولوجية، فينبغى أن تكون هناك منظمة قادرة على أمرين: شن الهجوم وتحمل الضربة المضادة التى لا شك فى مجيئها، وينبغى أن تكون هناك عقيدة تلهم وتدعم المهاجمين إلى درجة مواجهة الموت، وهذه العقيدة فى مثل ذلك العصر والمكان لا يمكن أن تكون سوى الدين.

وهذان العاملان كانا موجودين، فالعقيدة الإسماعيلية المعدلة مع ذكرياتها عن الألم والاستشهاد ووعدها بالانعتاق الدينى والإنسانى كانت بمثابة القضية التى تدعم معتنقيها بالكرامة والشجاعة وتلهمهم الولاء

الذى لا نظير له من قبل فى التاريخ الإنسانى، وقد كان ولاء الحشاشين الذين خاطروا بالموت بل وأحبوه من أجل سيدهم هو أول ما جذب انتباه أوربا وجعل اسمهم عنواناً على الإيمان والتضحية بالذات قبل أن يكون عنواناً على القتل.

وكان هناك أيضاً التنظيم الهادئ إلى جانب الحمية المتوقدة فى عمل الحشاشين، ويبدو هذا واضحاً فى عديد من المبادئ، فإن استيلاءهم على الحصون ـ وبعضها كان من قبل عرينا لقطاع الطرق ـ أمدهم بالقواعد الآمنة كما أن مبدأ السرية الذى اشتق من نظرية التقية القديمة أفادهم سواء من حيث الأمن أو التضامن، وكان عمل الإرهابيين تدعمه الاعتبارات الدينية والسياسية، واستطاع الدعاة الإسماعيليون أن يجدوا ويكتسبوا إلى قضيتهم الأنصار بين سكان الريف والحضر، وكان المبعوثون الإسماعيليون يجوبون بين المسلمين الذين قد تدفعهم مخاوفهم أو طموحاتهم إلى أن يكونوا حلفاء مؤقتين للقضية الإسماعيلية.

هذه التحالفات تثير نقطة مهمة بالنسبة لولاء الحشاشين، فمن بين عشرات الاغتيالات المسجلة فى إيران وسوريا هناك عدد لا بأس به يقول عنه مصدر أو آخر إنه موحى به من طرف ثالث وغالباً ما يكون هذا الإيحاء أو التصرف مقترناً بتقديم نقود أو مغريات أخرى، وفى بعض الأحيان كان الفدائيون الذين يمسك بهم بعد قيامهم بعمليات القتل هم الذين يعترفون بذلك فى التحقيق.

من الواضح أن الحشاشين – وهم خدام مخلصون لقضية دينية – لن يكونوا مجرد قاطعى رقاب بالخناجر نظير أجر، فقد كان لهم هدفهم السياسى الخاص وهو إقامة الإمامة الحقة ولا يحتمل أن يكونوا هم أو

زعماؤهم مجرد أدوات لتحقيق طموحات الآخرين، ومع ذلك فإن القصص الملحة والواسعة الانتشار عن اتفاق الحشاشين مع أمثال بركيارق وسانجار فى الشرق وصلاح الدين وريتشارد قلب الأسد فى الغرب تستدعى بعض التفسير.

إن بعض هذه القصص شاعت لأنها كانت حقيقية فعلاً ففى كثير من الأزمنة والأمكنة يوجد رجال طموحون يرغبون فى الحصول على مساعدة العناصر العنيفة المتطرفة، ربما كانوا لا يشاركونهم عقائدهم بل ولا يحبونها بالمرة ولكنهم يرون أن فى الإمكان استخدامهم على أمل ـ كاذب غالباً ـ فى التخلص من هؤلاء الحلفاء الخطرين بعد أن يؤدوا مهمتهم، هكذا لم يأنف مثلا رضوان حاكم حلب وهو أمير سلجوقى من التحول عن الولاء السنى إلى الولاء الفاطمى وفتح مدينته للحشاشين للحصول على تأييدهم ضد قومه وسيده، وهكذا أيضاً كان الوزراء المتآمرون فى أصفهان ودمشق الذين حاولوا استخدام قوة الحشاشين وما ينشرونه من رعب لتحقيق مآربهم الخاصة، وفى بعض الأحيان كان الدافع إلى التعاون مع الحشاشين الخوف منهم والرغبة فى تفادى خطرهم وليس الطمع فى استخدامهم لتحقيق أهداف معينة، كما فى حالة شرف الملك المذعور وزير خورازمشاه جلال الدين الذى قص النسوى حكايته فيما سبق، ففى كثير من الأحيان كان من الممكن إرغام القواد والسلاطين والوزراء على الإذعان بإرهابهم، وكثير من القصص التى انتشرت عن مهارة الحشاشين وجسارتهم يبدو أنها تخدم غرضاً معيناً هو تبرير قيام تفاهم ضمنى بين حاكم سنى تقى وبين الثوريين الإسماعيليين.

أما دوافع أمثال سانجار وصلاح الدين فى التحالف مع الحشاشين

فقد كانت أكثر تعقيداً، فالاثنان تحالفا مع الحشاشين ليس انطلاقاً من خوف شخصى أو طموح معين، فقد كان كل منهما يسعى لتحقيق مهمة كبرى ـ سنجار يسعى لتدعيم السلطنة السلجوقية والدفاع عن الإسلام ضد الغزاة الوثنيين من الشرق وصلاح الدين يسعى لاسترجاع وحدة العالم السنى والتصدى للغزاة الصليبيين فى الغرب ـ ولابد أن كلا منهما قد أدرك على وجه اليقين أن مملكته بعد موته سوف تنهار ويفشل تدبيره، لذا فقد وجدا أن ثمة ما يبرر الإقدام على تنازل مؤقت مع عدو أقل خطرا فى النهاية من أجل ضمان سلامتهما الشخصية مما يتيح لهما فرصة إتمام مهمتهما الكبرى فى تدعيم الاسلام والدفاع عنه.

أما بالنسبة للحشاشين أنفسهم فقد كان الأمر أبسط من ذلك، أن هدفهم كان إشاعة الفوضى والقضاء على النظام السنى، فإذا دفع الإغراء أو الإرهاب بعض زعماء السنة إلى مساعدتهم فلا بأس بذلك، وحتى فى أيام فورتهم الأولى لم يكن زعماء الحشاشين يمتنعون عن مساعدة الآخرين إذا كان فى ذلك ما يستجيب لأغراضهم، وعندما أصبحوا حكاماً إقليميين بعد ذلك استطاعوا صياغة سياساتهم بمهارة وسهولة داخل نسيج الشبكة المعقدة من المحالفات والخصومات فى العالم الإسلامى.

غير أن ذلك لا يعنى أن خدماتهم كانت للبيع أو أن كل قصص التآمر حتى تلك التى تؤيدها اعترافات كانت قصصاً حقيقية فإن الزعماء قد يعقدون صفقات سرية ولكن ليس من المحتمل أن يطلعوا القتلة الفعليين على التفاصيل، فالأكثر احتمالاً أن الفدائى المنطلق إلى مهمة كان يزود بما يسمى فى التعبير الحديث «قصة تمويه» تورط أقرب الشخصيات احتمالاً على مسرح الأحداث فمثل ذلك تكون له فائدة

إضافية فى بذر بذور عدم الثقة والشكوك داخل المعسكر المعادى. ومن أوضح الأمثلة على ذلك اغتيال الخليفة المسترشد والقائد الصليبى كونراد أوف مونتفيرات فإن الشكوك التى أثارتها هاتان العمليتان ضد سانجار فى فارس وضد ريتشارد قلب الأسد بين الصليبيين لابد أن تكون قد خدمت غرضاً مفيداً للحشاشين وهو إشاعة الاضطراب فى الآراء وخلق حالة من عدم الوفاق فى معسكرى خصومهم. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يمكننا أن نثق بأن كل جريمة اغتيال عزيت إلى الحشاشين أو حتى تلك التى يزعمون أنهم قاموا بها قد ارتكبوها حقاً. فإن القتل لأسباب خاصة أو عامة كان مسألة شائعة. وربما يكون اسم الحشاشين قد استخدم كتغطية لعدد من الاغتيالات غير المذهبية التى لم يكن لهم يد فيها.

وكان الحشاشون يختارون ضحاياهم بعناية خلافا لما يفترضه بعض مؤلفى السنة من أنهم كانوا يشنون حرباً بدون تمييز ضد كل الجماعة الإسلامية. يقول حمد الله مصطفاوى – وهو من كتاب القرن الرابع عشر –: «إنه من المعروف جيداً والثابت أن الباطنية (يعنى الإسماعيلية) عليهم ما يستحقون– كانوا لا يضيعون دقيقة فى سبيل إيذاء المسلمين بكل الطرق وكانوا يعتقدون أنهم يثابون على ذلك أعظم الثواب وأنهم يرتكبون خطيئة كبرى إذا تورعوا عن القتل وإسقاط الضحايا» والواقع أن حمد الله الذى كان يكتب حوالى عام ١٣٣٠ كان يعبر عن وجهة نظر لاحقة فى الإسماعيلية لوثتها الخرافات والأساطير، أما المصادر المعاصرة سواء فى فارس أو سوريا فتدل على أن إرهاب الإسماعيليين كان موجها ضد أشخاص معينين ولأسباب محددة، وفيما عدا بعض الانفجارات الشعبية القليلة والاستثنائية كانت علاقاتهم مع جيرانهم أهل السنة عادية تماما. وهذا يبدو صحيحا سواء بالنسبة للأقليات

الإسماعيلية فى المدن أو حكام الأقاليم الإسماعيليين فى علاقاتهم مع زملائهم السنة.

وكان ضحايا الحشاشين ينتمون إلى مجموعتين رئيسيتين: الأولى تضم الأمراء والقواد والوزراء. والثانية تضم القضاة وغيرهم من الشخصيات الدينية. وهناك مجموعة ثالثة متوسطة تضم ولاة المدن، وقد نالت اهتمامهم بين حين وآخر، ودائماً - وفيما عدا استثناءات قليلة- كان ضحاياهم من المسلمين السنة، فلم يكن الحشاشون يهاجمون عادة الاثنى عشرية أو غيرهم من الشيعة، ولم يوجهوا خناجرهم إلى صدور المسيحيين أو اليهود المحليين، أما هجماتهم ضد الصليبيين فى سوريا فكانت قليلة وجاء معظمها بعد اتفاق سنان مع صلاح الدين وتحالف حسن مع الخليفة.

وكانت المؤسسة السنية بجوانبها السياسية والعسكرية والإدارية والدينية هى العدو الرئيسى للإسماعيلية، وكان هدفهم من الاغتيالات إخافة هذه المؤسسة وإضعافها ثم الإطاحة بها فى النهاية، وبعض هذه الاغتيالات كانت مجرد أعمال انتقام وتحذير مثل قتل رجال الدين السنة فى مساجدهم عقاباً لهم على مهاجمة الإسماعيليين بالقول أو الفعل، ولكن كان هناك ضحايا آخرون يتم اختيارهم لأسباب محددة أو عاجلة مثل قادة الجيوش الذين يهاجمون الإسماعيلية أو شاغلى المعاقل الحصينة التى يودون الاستيلاء عليها. كما اجتمعت الدوافع التكتيكية والدعائية فى اغتيال بعض الشخصيات الكبيرة كالوزير نظام الملك واثنين من الخلفاء ومحاولات اغتيال صلاح الدين.

وهنالك مسألة أكثر صعوبة تتعلق بتحديد طبيعة التأييد الذى كان يلقاه الإسماعيليون. إن معظم هذا التأييد كان يأتى من الريف.

فالإسماعيليون فى قلاعهم الحصينة كانوا يحققون نجاحاً أكبر عندما يستطيعون الاعتماد على سكان القرى المجاورة سواء فى التأييد أو التجنيد. كما حاول مبعوثو الإسماعيلية سواء فى فارس أو سوريا نشر دعوتهم فى المناطق التى يوجد فيها تراث قديم من الانحراف الدينى، وتكشف بعض كتابات «الدعوة الجديدة» مدى التأثر بكثير من الخصائص السحرية التى ترتبط بمعتقدات الفلاحين الدينية وذلك خلافاً للكتابات الفاطمية المذهبية التى تتميز بالتقدم الفكرى المألوف فى مراكز الحضارة المدنية.

ولكن التأييد الذى كان يتمتع به الإسماعيليون ويسعون لتكريسه وتوجيهه لم يكن مقصوراً على المناطق الريفية والجبلية فمن الواضح أنه قد كان لهم أنصار فى المدن أيضاً، وكان هؤلاء الأنصار يقدمون المساعدات الحذرة إذا احتاجها الرجال القادمون من القلاع فى مهمة ما، وفى بعض الأحيان ـ كما حدث فى أصفهان ودمشق ـ كانوا من القوة بحيث دخلوا فى صراع صريح على السلطة.

ولقد كان من المفترض عادة أن مؤيدى الإسماعيلية كانوا من الطبقات الدنيا فى المجتمع كالحرفيين ومن دونهم من الرعاع. وهذا الافتراض قائم على إشارات هنا وهناك تدل على انتماء المحرضين الإسماعيليين إلى هذه الطبقات مع عدم قيام دليل بوجه عام يفيد وجود أنصار للإسماعيلية بين الطبقات الأرقى حتى تلك التى كانت منقوصة المزايا فى النظام السلجوقى السنى. حقاً هناك علامات كثيرة تشير إلى وجود متعاطفين مع الشيعة بين التجار والمتعلمين ولكن يبدو أن هؤلاء وأمثالهم كانوا يفضلون الانشقاق السلبى للاثنى عشرية على راديكالية الإسماعيليين. غير أننا نجد فى الواقع أن الكثيرين من زعماء الإسماعيلية

ومدرسيها كانوا من رجال المدن المتعلمين. فحسن الصباح مثلاً كان من «الرى» وتلقى تعليماً يؤهله لأن يكون مؤلفاً أو ناسخاً، وابن عطاش كان طبيباً وكان أول مبعوث من «ألموت» إلى سوريا، وسنان كان مدرساً، وكان -طبقاً لروايته عن نفسه- ابن أسرة من النبلاء فى البصرة، ومع ذلك يبدو أن «الدعوة الجديدة» لم تكن أبداً بالنداء الفكرى المغرى الذى يجتذب الشعراء والفلاسفة والفقهاء فى عهدها المبكر.

لقد ظلت الإسماعيلية منذ القرن التاسع إلى الحادى عشر بمثابة قوة فكرية كبرى فى الإسلام. وكانت تمثل تحدياً خطيراً لأذهان وقلوب معتنقيها بل واكتسبت تعاطف مثقف عظيم كالفيلسوف العالم ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) أما فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فقد بدأ بريقها يخبو. وبعد نصيرى خسرو الذى توفى حوالى عام ١٠٨٧ لم تعد هناك شخصية فكرية كبرى فى الفقه الإسماعيلى وحتى تلاميذه كانوا محصورين بين الفلاحين والجبليين فى المناطق النائية. وكانت الإسماعيلية تحت حسن الصباح وخلفائه تثير مشاكل سياسية وعسكرية واجتماعية خطيرة للإسلام السنى. ولكنها لم تعد تمثل تحدياً فكرياً وإنما ظلت تكتسب بصفة متزايدة الخصائص السحرية والعاطفية وآمال الفداء والتبشير المرتبطة بعبادات المحرومين والفقراء وغير المستقرين. وتوقفت الإسماعيلية مرة واحدة وإلى الأبد عن أن تكون بديلاً جاداً للفكر السنى الجديد الذى بدأ يسيطر على الحياة الفكرية فى المدن الإسلامية. ولكن المفاهيم الروحية للإسماعيلية والمواقف الإسماعيلية استمرت من طرف خفى فى التأثير فى الشعر والصوفية الفارسية والتركية. ومن الممكن تمييز العناصر الاسماعيلية فى الانفجارات الثورية التبشيرية اللاحقة كثورة الدراويش فى القرن الخامس عشر بتركيا وثورة الباب فى القرن التاسع عشر فى فارس.

هناك سؤال آخر يضطر إلى طرحه المؤرخ الحديث: ماذا تعنى الإسماعيلية؟ من الناحية الدينية يمكن القول إن الدعوة الجديدة للإسماعيلية ما هى إلا ظهور لاتجاهات إلحادية مناقضة للإسلام، ومثل هذه الاتجاهات كانت شائعة فى التاريخ الإسلامى ولها ما يماثلها وربما ما يسبقها فى الأديان الأخرى، ولكن عندما يمتنع الإنسان المعاصر عن إعطاء المركز الأول فى اهتماماته للدين فإنه أيضاً يتوقف عن الاعتقاد بأن الناس فى العصور الأخرى كانوا يفعلون ذلك حقاً، وهكذا فإنه يبدأ فى إعادة فحص الحركات الدينية الكبرى فى الماضى بغرض البحث عن اهتمامات ودوافع تكون مقبولة لدى الذهن الحديث.

وهكذا قدم الكونت دى غوبينو Count de Gobineau أبو العنصرية الحديثة أول نظرية كبرى فى تفسير المدلول «الحقيقى» للإلحاد الإسلامى، فقال إن التشيع يمثل ردة فعل الفارسيين الأندو أوربيين ضد سيطرة العرب أى ضد سيطرة السامية على الإسلام. وقد بدا مثل هذا التفسير معقولاً بل وواضحاً فى أوربا القرن التاسع عشر التى كانت تعج بمشاكل الصراع الوطنى والحرية القومية، وطبقاً لهذه النظرية كان الشيعة يمثلون فارس وقد حاربوا السيطرة العربية فى أول الأمر ثم السيطرة التركية، وكان الحشاشون يمثلون الاتجاهات الوطنية الجهادية المتطرفة مثل الجمعيات السرية الإرهابية التى كانت منتشرة فى إيطاليا ومقدونيا خلال القرن التاسع عشر.

غير أن تقدم البحث من جانب وتغير الظروف الأوروبية من جانب آخر أديا فى القرن العشرين إلى بعض التعديلات فى هذه النظرية المتعلقة بالصراع العنصرى والوطنى، فقد أوضحت المعلومات المتزايدة أن التشيع بصفة عامة، والإسماعيلية بصفة خاصة، لم يكونوا أبداً وقفاً على الفرس،

فالفرقة بدأت فى العراق، والخلافة الفاطمية حققت أكبر نجاح لها فى بلاد عربية وهى شمال إفريقيا ومصر، وحتى الدعوة الإسماعيلية الجديدة التى أنشأها حسن الصباح بالرغم من أنها بدأت فى فارس بواسطة فارسيين إلا أنها اكتسبت أتباعاً كثيرين فى سوريا العربية بل ونفذت إلى القبائل التركمانية التى هاجرت إلى الشرق الأوسط من وسط آسيا، وعلى أية حال لم يعد ينظر إلى الوطنية كأساس كاف للحركات التاريخية الكبرى.

فى سلسلة من الدراسات ظهر أولها فى عام ١٩١١ قدم باحث روسى يدعى ف.ف. بارتولد v.v. Barthold تفسيراً آخر، فقال إن المعنى الحقيقى لحركة الحشاشين يكمن فى كونها حرباً للقلاع ضد المدن، فهى محاولة أخيرة وغير ناجحة قامت بها الأرستقراطية الإيرانية الريفية لمقاومة النظام الاجتماعى الحضرى الجديد الذى أوجده الإسلام. لقد كانت بلاد فارس قبل الإسلام مجتمع فرسان ثم دخلته المدنية كاختراع إسلامى، وقام الفرسان الفرس ملاك الأراضى المهددون بفقد امتيازاتهم ـ كما فعل بارونات أوربا فى العصور الوسطى ـ بمساعدة سكان الريف بشن حرب من قلاعهم ضد النظام الاجتماعى الجديد الغريب. وكان الحشاشون سلاحاً فى تلك الحرب.

ثم عكف الباحثون الروس بعد ذلك على مراجعة وتهذيب محاولة بارتولد لتفسير الإسماعيلية تفسيراً اقتصادياً. فقالوا إن الإسماعيليين لم يكونوا ضد المدن من حيث هى مدن. ذلك أنهم كان لهم أنصار فى المدن نفسها، ولكنهم كانوا ضد عناصر معينة مسيطرة فى المدن وهم الحكام والقادة العسكريون والنبلاء المدنيون والإقطاعيون الجدد ورجال الدين المجندون من السلطة. وأكثر من ذلك فإنه لا يمكن الموازنة ببساطة

بين الإسماعيليين والنبلاء القدامى. فالإسماعيليون لم يرثوا قلاعهم وإنما استولوا عليها. كما أنهم لم يلقوا التأييد من أولئك الذين كانوا يملكون إقطاعياتهم الخاصة وإنما من أولئك الذين فقدوها لصالح الملاك الجدد كالملتزمين وكبار الموظفين والقواد الذين حصلوا على الإقطاعيات والدخول من الحكام الجدد على حساب النبلاء القدامى والفلاحين. فى حين أن هناك نظرية أخرى تنظر إلى الإسماعيلية كأيديولوجية رجعية ابتدعها كبار الملاك الإقطاعيون للدفاع عن امتيازاتهم ضد المساواة التى يناصرها الإسلام السنى. وثمة نظرية ثالثة ترى فى الإسماعيلية استجابة تختلف حسب الظروف لحاجات الجماعات المختلفة التى قاست من عبء النظام السلجوقى الجديد ولهذا فقد تسنى لها أن تستقطب الطبقة الحاكمة القديمة المخلوعة وسكان المدن الساخطين على السواء، غير أن نظرية رابعة ترى أن الاسماعيلية ما هى ببساطة إلا حركة «شعبية» تقوم على أكتاف الحرفيين وفقراء المدن وفلاحى المناطق الجبلية، وطبقاً لهذه النظرية فإن إعلان حسن للقيامة كان انتصاراً للقوى «الشعبية». وتهديداته بمعاقبة الذين استمروا فى تطبيق الشريعة كانت موجهة ضد العناصر الإقطاعية فى الممتلكات الإسماعيلية (عناصر الثورة المضادة) الذين هم فى الظاهر إسماعيليون ولكنهم فى الباطن محافظون يضمرون الولاء للإسلام التقليدى ويعادون المساواة الاجتماعية!

والواقع أن هذه النظريات القائمة على التفسير الاقتصادى- مثل المحاولات السابقة القائمة على التفسير العنصرى- قد أثرت معرفتنا بالإسماعيلية عن طريق توجيه البحث فى اتجاهات جديدة ومفيدة. غير أنها أيضاً -كالتفسيرات السابقة - تعانى من التطرف فى التفسير المذهبى الدوجماتى الذى يؤكد أهمية بعض الجوانب ويغفل جوانب

أخرى، واصة تلك المتعلقة بعلم الاجتماع الدينى والزعامة والترابط. ومن الواضح أنه يلزمنا بعض التعمق فى معرفتنا بالإسلام وفرقه وبعض التشذيب فى وسائل البحث قبل أن نستطيع أن نقرر إلى أى مدى كان العنصر الاقتصادى فى الإسلام ذا دلالة ومدى كنهه بالضبط.

والحقيقة أنه ليس هناك تفسير واحد بسيط يكفى لتوضيح ظاهرة الإسماعيلية المعقدة فى مجتمع معقد كالمجتمع الإسلامى فى القرون الوسطى. لقد استمرت الديانة الإسماعيلية فترة طويلة من الوقت وفى منطقة شاسعة من الأرض. وكانت تعنى أشياء مختلفة فى الأزمنة والأمكنة المختلفة، وكانت الدول الإسماعيلية إمارات إقليمية لها خلافاتها وصراعاتها الداخلية، وكان النظام الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية الإسلامية – مثله فى ذلك مجتمعات القرون الأوربية الوسطى – معقدا متغير النماذج من حيث النخبة الحاكمة ونظم الملكية والطبقات والتجمعات الدينية والعنصرية والاجتماعية ولم يلق الدين ولا المجتمع الذى ظهر فيه بحثاً كافياً فيما يبدو.

إن الإسماعيلية –كغيرها من العقائد والحركات التاريخية الكبرى– كانت تنهل من مصادر كثيرة وتخدم حاجات كثيرة. كانت للبعض وسيلة لضرب سيطرة مقيتة سواء بهدف إعادة نظام قديم أو إنشاء نظام جديد. وكانت لآخرين بمثابة الطريق الوحيد لتحقيق إرادة الله فى الأرض. وكانت للحكام سلاحاً لتحقيق استقلالهم المحلى وحمايته ضد التدخل الخارجى أو طريقاً لإنشاء إمبراطورية. وكانت الإسماعيلية – أملاً وعملاً –تعطى قدراً من المعنى والكرامة لحياة مريرة كئيبة، أو بشارة خلاص ودمار. أو عودة للحقائق السالفة أو وعداً بالتنوير المستقبلى.

وفيما يتعلق بمكان الحشاشين فى تاريخ الإسلام يمكن أن نقرر بقدر

معقول من التيقن أربعة أمور: الأول أن حركتهم –بغض النظر عن طبيعة قوتها الدافعة– اعتبرت بمثابة تهديد عميق للنظام القائم سياسياً واجتماعياً ودينياً. والثانى أن الإسماعيلية لم تكن بالظاهرة المنعزلة فى التاريخ الإسلامى وإنما كانت حلقة فى سلسلة طويلة من الحركات التنبئية وهى حركات شعبية غامضة تدفعها عوامل قلق عميقة الجذور وتنفجر بين وقت وآخر فى أعمال عنف ثورى. والثالث أن حسن الصباح وخلفاءه قد نجحوا فى إعادة تشكيل وتوجيه الرغبات الغامضة والمعتقدات الحوشية والغضب غير الهادف لدى الساخطين فى أيديولوجيا وتنظيم ليس لهما نظير من حيث التماسك والنظام والعنف الهادف فى أى منظمة أخرى من قبل أو من بعد. والرابع – وربما النقطة الأكثر أهمية– أن الإسماعيليين فشلوا فشلاً ذريعاً ونهائياً إذ لم يتمكنوا من قلب النظام القائم بل ولم ينجحوا فى السيطرة على مدينة كبيرة واحدة، وحتى ممتلكاتهم التى تحرسها القلاع لم تكن أكثر من إمارات صغيرة لم تلبث حين جاء الوقت أن اقتحمها الغزاة وأصبح أنصارهم مجرد جماعات صغيرة مسالمة من الفلاحين والتجار. مجرد أقلية مدنية بين جماعات أخرى كثيرة.

ومع ذلك فإن تيار الأمل التنبئى والعنف الثورى اللذين دفعا الإسماعيلية استمرا فى التدفق، ولم تلبث مثلهم ووسائلهم أن وجدت كثيرين من المقلدين، وهؤلاء المقلدون أمدتهم التغيرات الكبرى فى عصرنا الحديث بأسباب جديدة للغضب، وأحلام جديدة تبحث عن التحقق، وأدوات جديدة للهجوم.

* * *